ما يقوله القرآن

في سورة يس

ما يقوله القرآن في

سورة يس

من مفردات ولطائف وتعاليم

الجزء الثالث

الشيخ فاضِل الصفَّار

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿١﴾

الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٢﴾

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهدِنَا الصِّرَاطَ

المُستَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ

عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ

وَلاَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ

فَاسْمَعُونِ ۞ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ

يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ

لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ

يس/ ٢٥-٢٧

هي آيات ثلاث بمنزلة آية واحدة لترابط معانيها وتكاملها.

وقد جاءت هذه الآيات بعد مراحل الحوار والاستدلال الطويلة التي اختصرها القرآن في بضع آيات، ومعلوم أن من يتخذ العقل والفطرة والوجدان طريقاً للاستدلال يصل إلى الإيمان، بل أعلى درجاته، فالمضمون الذي ذكرته الآيات نتيجة طبيعية للمقدمات المذكورة، ولكن المنطوق مما يُحيّر العقول ويبهرها، فإنه اشتمل على الوضوح والإبهام معاً، فمن حيث المفردات واضح جداً ولكن من حيث المعنى المقصود في غاية الغموض، وهنا جملة من الأسئلة تدور حوله:

السؤال الأول: أنه كان يحاور الذين أشركوا في العبادة فانتقل من ذلك إلى قوله تعالى: ﴿**إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾ فهل المخاطب هم المشركون أم الرسل أم غيرهم؟ ثم أليسوا كانوا يسمعونه فلماذا قال فاسمعون؟

السؤال الثاني: لماذا قال: ﴿**آمَنتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ فمن هو ربهم؟ ولا يعقل أن تكون الأصنام، فلا بد وأن يكون الرحمن الذي هو آمن به، فلماذا لم يقل (آمنت بربنا) أو (رب العالمين)؟

السؤال الثالث: أنه بعد إقراره بالإيمان قيل له ادخل الجنة؟ فما هي الجنة؟ هل هي جنة الدنيا أم جنة الآخرة؟ وكيف تبدل الخطاب من هذا العالم الحاضر إلى الجنة التي هي من عالم الغيب.

السؤال الرابع: ﴿**قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾[١] من هم قومه؟ ولماذا تمنّى هذا التمني؟ ثم ما الذي غفرله؟

والحق أن الآيات كثيرة المعاني والمطالب، وفي نفس الوقت هي واضحة في مفرداتها غامضة في معانيها، وفهم المراد منها يتم في مباحث:

(١) سورة يس: الآيتان ٢٦-٢٧.

المبحث الأول: في مفردات الآيات

وهي عديدة:

المفردة الأولى: (ضمير المخاطب)

فقد اختلف المفسّرون في أنّ المخاطَب بقوله: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾(١) من هو على أقوال:

القول الأول: ذهب إلى أنّهم القوم المشركون الذين حاورهم حبيب النجار، وطلب سماعه بعد الاستدلال لهم وإتمام الحجة عليهم، وهذا يعود لأسباب:

الأول: حثهم على الاستماع لوعظه ونصحه كما هو شأن كل داعية إلى الله سبحانه إنه بعد إتمام الحجة يأمرهم بالاتباع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووجوب إرشاد الجاهل وتنبيه الغافل(٢).

الثاني: أن القوم يسمعون أنّه آثر بنفسه لأجل إيمانه ومعتقده، وبذلك يثبت لهم حقانية ما آمن به، ودعاهم إليه وصدقه في قوله، فإن الكاذب لا

---

(١) سورة يس: الآية ٢٥.

(٢) انظر نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٦٢؛ روح المعاني: ج٢٢، ص٥٤٨.

يضحي بنفسه لأجل مدعاه، وبذلك يكون قد بذل غاية جهده في هدايتهم، وهذا شأن أولياء الله سبحانه أنهم يتحننون على الناس، ويبذلون كل ما بوسعهم لأجل إنقاذهم من ظلمات الشرك والكفر والعصيان.

الثالث: لإظهار نصرته ودفاعه عن الأنبياء عليهم السلام؛ لأن الكامل يدرك بمقتضى عقله ودينه وجوب الدفاع عن حجج الله ونصرتهم وتخليصهم من الأذى مهما كلَّف الثمن؛ لذا شغلهم بكلامه وبرهانه ليثبوا عليه ويقتلوه، وينشغلوا بقتله عن قتل الرسل فيخلصهم منه[١].

فيكون قوله: ﴿**آمَنتُ بِرَبِّكُمْ**﴾[٢] أي الرحمن لأجل استفزازهم وإثارة غضبهم لينشغلوا بنفسه عنهم، وبهذا يكون قد نصر حجج الله، وآثر بنفسه عنهم، وهذا نهج يقضي به عقل كل إنسان كامل في نفسه ودينه من باب العمل بقانون التزاحم المبني على تقديم المهم على الأهم، أو الوقوع في الضرر الأقل لأجل تلافي الوقوع في الضرر الأكبر.

وتوضيحه: أن قتل حبيب أقل ضرراً من قتل الرسل الثلاثة.

أولاً: لأنّه واحد وهم جماعة.

وثانياً: هم كانوا أنبياء وهو من الصديقين، فدرجته أقل، وأولياء الله يضحون بأنفسهم لأجل من هو أعلى مقاماً ورتبة منهم، وهذا تكليف عقلي

---

(١) روح البيان: ج٧، ص٣٨٦.

(٢) سورة يس: الآية ٢٥.

وشرعي تفصيله في الفقه، وحيث إن هذا يتوقف على إثارة هؤلاء وجبت عليه الإثارة؛ لأنّ ما يتوقف عليه الواجب واجب.

القول الثاني: ذهب إلى أنّه خاطب الرسل لما أراد القوم قتله؛ لأنّه تحدّاهم ولم يبال بتهديدهم بالقتل، ليكون ذلك إقراراً منه بالإيمان بهم وبما يدعون إليه، فيكونوا له شهداء عند الله سبحانه(١)، وقد ذكروا لكيفية قتله صوراً عديدة، فمنهم من قال: إنّهم وطئوه حتى شقوا بطنه(٢)، ومنهم من قال: إنهم نشروه بالمنشار(٣)، ومنهم من قال خرقوا خرقاً في حلقه ثم علقوه من وراء سور المدينة(٤)، ومنهم من قال: حرقوه وعلّقوه(٥)، ومنهم من قال: ألقوه في بئر يقال له الرس، وقبره في سوق أنطاكية(٦)، ومنهم من قال رموه بالحجارة وهو يقول: «اللهم اهد قومي حتى مات»(٧)، ومنهم من قال: ألقوه في حفرة وردوا عليه التراب، ومنهم من قال: خنقوه ليموت، فالتفت

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٦٥٨.

(٢) تفسير القرطبي: ج١٥، ص١٩.

(٣) تفسير القرطبي: ج ١٥، ص١٩؛ روح البيان: ج٧، ص٣٨٦.

(٤) نفحات الرحمن: ج ٥، ص٢٦٢.

(٥) تفسير القرطبي: ج ١٥، ص١٩.

(٦) تفسير روح البيان: ج ٧، ص٣٨٦.

(٧) مجمع البحرين: ج٢، ص٥٨٤، (صحب)؛ الكشاف: ج٣، ص٣١٩ .

للأنبياء وقال: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[١][٢] وطلب سماعه لأجل أن يلفت نظر الرسل المحاطين بالأعداء الذين يدبرون لقتلهم لكي تقوى عزيمتهم، ويشهدوا له بهذه التضحية الكبيرة عند الله.

ولا مانع من الجمع بين الأقوال في صورة القتل لعدم تنافيها، وهو ما تقتضية العادة فإنّ القتل إذا يكون جماعياً يتكالب عليه أهل الدنيا ويمارس فيه (أشد) أنواع العنف، وفي القتل وبعد القتل ينكلون به، ويستعرضون ذلك للتشفي منه وتخويف غيره، وهذه تستغرق مدة زمنية، وشواهده في التأريخ كثيرة.

القول الثالث: أنه خاطب عموم الناس[٣]، ووجهه ظاهر، ولعله يعود إلى الأول.

القول الرابع: أنّه خطاب للملائكة، وتوجيهه: أن المستفاد من منطوق الايات أنّ الرجل بعد أن حاور القوم قتلوه، وفي لحظة القتل وقبل خروج روحه من جسده تستقبله الملائكة لكونه شهيداً، والشهداء لا يموتون وإنما ينتقلون انتقالة فورية من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، وفي بعض الأخبار أن بأول قطرة دم تخرج منه تستقبله الملائكة، ويلاقي الحور العين، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ**

---

(١) سورة يس: الآية ٢٥.

(٢) روح المعاني: ج ٢٢، ص٥٤٨-٥٤٩.

(٣) انظر روح المعاني: ج٢٢، ص٥٤٨، تفسير الرازي: ج٩، ص٥٧.

يُرْزَقُونَ۞فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِن خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) .

تفيد الآية المباركة أنّ القتل غير الموت، والناس يحسبونهما شيئاً واحداً؛ إذ في كليهما زهوق الروح وخروجها من البدن، إلّا أنّ الباري عز وجل يميِّز بينهما، فالقتل في سبيل الله يحسبه الناس موتاً وهو في الواقع حياة، كالشخص الذي ينزع ثوباً ويلبس آخر، أو يخرج من دار و يدخل داراً أخرى، ولذا ترقّى بقوله: ﴿**بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ وعبّر بالرزق لأنّ الرزق هو أساس المعيشة في الدنيا، وهو معيشة الأبدان، والميت ينقطع رزقه في الدنيا فلا يأكل ولا يشرب، إلّا أنّ الشهيد رزقه يستمر معه، فهو يأكل ويشرب عند ربه، وهذا الرزق يناسب تلك النشأة والعالم لكنه دائم ولا ينقطع عنهم .

فالآية صريحة في أنّ هناك من يحسبه الناس ميتاً وهو حي يرزق لكنهم لا يرونه، وفي ذلك أسرار ورموز لا يدركها إلّا أهلها، وعند أهل المعرفة هناك نوعان من الموت ونوعان من الحياة، الأول هو موت الجسد، والثاني موت النفس، وموت الجسد يتحقق بخروج الروح من الجسد فيعود كالخشبة اليابسة، وأما موت النفس فيتحقق بخروج الشهوة والوساوس الشيطانية منها، وحياة الجسد بوجود الروح فيه، وأما حياة النفس بالعلم والمعرفة والكمالات الأخلاقية والفضائل،

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٦٩-١٧٠ .

وأكثر الناس يعيشون و يموتون بالأول إلّا أنّ الأولياء وأهل الله يعيشون ويموتون بالثاني، ولذا هم أحياء دائما عند ربهم يرزقون؛ ويكون لهم ارتباط دائم بعالم الدنيا حتى بعد رحيلهم منها، ويظهرون لبعض خواصهم في بعض الحالات لحكم وغايات؛ لأنّ أبدانهم البرزخية التي يعيشون بها بعد الدنيا طوع أمرهم فيظهرون بها.

وعالم البرزخ ليس بعالم بعيد عن هذا العالم، بل هو باطن هذا العالم وصورته الأخرى، وقد تبلغ الروح درجة من الكمال والتحرر من حبس البدن حتى تظهر مع تكثرات في البدن، ولذا ينسب إلى بعض الأولياء وجودهم في أمكنه متعددة، وقد ذكر بعض فقهاء العصر من أهل المعرفة والزهد أنه رأى بعض مشايخه في عين هذا البدن، وكذا رآه بعض أصحابه وخواصه[(١)]، وهذه الحقيقة قد يستغربها البعض إلّا أن القضية مطابقة للعلم، وشهد بها القرآن بأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون[(٢)].

والله سبحانه يعطيهم هذه القدرة على الحركة والظهور كما كانوا في عالم الدنيا، وقد وردت في ذلك بعض الروايات المعتبرة[(٣)]، وقد منحهم الله سبحانه ذلك فضلاً؛ لأنهم حرموا أنفسهم من الرزق والنعم الدنيوية، وفي ذلك إشارة إلى لطيفتين:

---

(١) انظر مواهب الرحمن : ج٧، ص٨٥.

(٢) انظر سورة آل عمران: الآية ١٦٩ .

(٣) الكافي: ج١، ص٥٣٣، ح٥؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص٤٨٦، ح١ .

الأولى: أنّ ما يقدّمه الإنسان لربه يعوّضه بالأحسن، فإن قدم مالاً لربه بأن تصدق على فقير أو ساعد محتاجاً أو أدى ما عليه من الواجبات بأن خمَّس أمواله وزكّى إن وجبت عليه الزكاة فإن ذلك كله يعوَّض بالأفضل منه، فيقول سبحانه: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**﴾(١) فما بالك بمن قدم نفسه لربه؟ وهذا العطاء الذي منحه الباري لسيد الشهداء سلام الله عليه وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأنبياء والأولياء من المزايا والخصوصيات والمقامات؛ لأنه وهب لربه كل ما يملك فأعطاه الله من كل ما يملك.

الثانية: أنّ كل حرمان للنفس في سبيل الله فيه تعويض، فلذا أهل المعرفة والراغبون في الكمالات يحرمون أنفسهم من شهوات الدنيا ولذاتها، فإن التعويض الذي ينالونه أعظم وأعظم، وكل لذة فانية زائلة يتركها الإنسان لأجل الله تعوض بلذة روحية باقية، وكل ما يلاقيه الإنسان من عناء وتعب من اجل العقيدة الحقة ويضحي لأجلها يعيش الحياة الأبدية، وإلى هذا تشير رواية أبي بصير عن الصادقعليه السلام أن الذي يموت على هذا الأمر - أي الاعتقاد الحق بالولاية والصابر على الأذى في سبيلها - ولو كان على فراشه فإنه يموت شهيداً، وهو حي عند ربه يرزق(٢).

---

(١) سورة سبأ: الآية ٣٩.

(٢) المحاسن: ج١، ص١٦٤، ح١١٦؛ الكافي: ج٨، ص١٤٦، ح١٢٠؛ تفسير نور الثقلين: ج١، ص٤٠٩، ح٤٣١، وفيه: ((يا أبا محمد إن الميت منكم على هذا الأمر شهيد. قال: قلت: وإن مات على فراشه؟ قال: إي والله على فراشه حيٌّ عند ربه يرزق)).

ومن الشواهد التي يجعلها الله عزّ وجل آية أنّ الأرض لا تأكل أجسادهم، وتبقى طرية في القبور، فقد روى الخاصة والعامة عن عبد الله الأنصاري أنه لما أراد معاوية أن يجري العين على قبور الشهداء أمر بأن ينادى: من كان له قتيل فليخرجه من هذا الموضع. قال جابر: فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان، فإن أصابت المسحاة إصبع رجل منهم قطرت دماً[١].

وفي ذلك روايات وحكايات كثيرة جداً تفيد العلم بصحتها[٢]، ولا تختص بالشهداء قتلاً، بل تشمل الذين قتلوا نفوسهم بالتقوى والعمل الصالح، فإن الأرض لا تأكل أجسادهم، وهم أحياء عند ربهم يرزقون، والذين واظبوا على بعض التعاليم الدينية مثل غسل الجمعة.

والخلاصة: أن سياق الخطاب يشهد بأنّ قوله: ﴿**إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾[٣] موجه إلى ملائكة الرحمة التي تستقبل الشهيد في سبيل الله سبحانه؛ لأن الشهيد يبقى حياً وإن انفصلت روحه عن جسده، وقال بعض المفسرين: إنهم لما أرادوا قتله رفعه الله إليه وهو في الجنة لا يموت إلّا

---

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥١؛ نفحات الرحمن : ج٢، ص١٣٠؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٩٣.

(٢) نفحات الرحمن : ج٢، ص١٣٠.

(٣) سورة يس: الآية ٢٥.

بفناء الدنيا[١]، وهو الشخص الرابع الذي سيعود مع عيسى عليه السلام والخضر وإل ياس النبي مع حجة الزمان وقائم آل محمد عليه السلام.

وربما يقال بقول خامس وهو أن المخاطب هو النبي والأئمة عليهم السلام وفاطمة عليها السلام لتواتر الروايات على أن كل عبد في ساعة احتضاره وقبل خروج روحه من جسده يرى النبي والأئمة عليهم السلام، فإن كان من الصالحين بشروه واستقبلوه بالسرور، وإن كان من الطالحين رآهم بنحو يسوؤه، وهذا مشهد عام لجميع الناس لا يراه إلّا المحتضر. أما الحاضرون بجنبه فلا يرون، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنكُمْ وَلَكِن لاَ تُبْصِرُونَ**﴾[٢] فقد روى الكليني بإسناده عن سدير الصيرفي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك يا ابن رسول الله هل يُكره المؤمن على قبض روحه؟ قال: «لا والله إنه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له ملك الموت: ياولي! الله لا تجزع، فو الذي بعث محمداً لأنا أبرُّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك. افتح عينك فانظر. قال: و يمثل له رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريتهم عليهم السلام، فيقال له: هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة رفقاؤك.

---

(١) مقتنيات الدرر: ج٩، ص٧٨.

(٢) سورة الواقعة: الآية٨٥.

قال: فيفتح عينيه فينظر فينادي روحه مناد من قبل رب العزة فيقول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ إلى محمد وأهل بيته ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ بالولاية ﴿مَرْضِيَّةً﴾ بالثواب ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ يعني محمداً وأهل بيته ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ فما شيء أحب إليه من استلال روحه واللحوق بالمنادي»[١].

وفي رواية أخرى أن ملك الموت يبشره بمرافقتهم عليهم السلام «وأنه يزورهم – أي آل محمد – في جنات رضوى – وهي جنة برزخية أفضل الجنان محل الأنبياء والأولياء – فيأكل معهم من طعامهم، ويشرب من شرابهم، ويتحدث معهم في مجالسهم حتى يقوم قائمنا أهل البيت، فإذا قام قائمنا بعثهم الله فأقبلوا معه يلبون زمراً زمراً»[٢].

وفي رواية ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما يموت موالٍ لنا مبغض لأعدائنا إلّا ويحضره رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام فيسرونه ويبشرونه، وإن كان غير موالٍ لنا يراهم بحيث يسوؤه»[٣].

وفي رواية أخرى وردت بعض التفاصيل عن ذلك تقول: إذا حضر المؤمن ملك الموت وأعوانه وجد عند رأسه محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله من جانب، ومن جانبه الآخر علياً سيد الوصيين، وعند رجليه من جانب

---

(١) الكافي: ج٣، ص١٢٧ – ١٢٨، ح٢؛ البحار: ج٦، ص١٦٩، ح٤٩.

(٢) الكافي: ج٣، ص١٣٢، ح٥؛ وانظر البحار: ج٦، ص١٩٧–١٩٨، ح٥١.

(٣) انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٦٥؛ الفصول المهمة: ج١، ص٣١٤؛ مدينة المعاجز: ج٣، ص١٢٨.

الحسن سبط النبيين، ومن جانب آخر الحسين سيد الشهداء أجمعين، وحواليه بعدهم خيار خواصهم ومحبيهم الذين هم سادة هذه الأمة بعد ساداتهم من آل محمد. ينظر إليهم العليل - أي المحتضر - المؤمن فيخاطبهم بحيث يحجب الله صوته عن آذان حاضريه، كما يحجب رؤيتنا أهل البيت ورؤية خواصنا من عيونهم؛ ليكون إيمانهم بذلك أعظم ثواباً لشدة المحنة عليهم منه، ثم تسل روحه منه سلاً رفيقاً، والناس يرونه في شدة ولكنه في رخاء ولذة، وبعكس ذلك يرى المخالف لهم[(١)].

وهذه الروايات مخبرة عن واقع تكويني حاصل يراه الجميع، وهذا لا كلام فيه، وإنما الكلام في أن هذه الرؤية تتحقق لكل مؤمن ولوكان قبل الإسلام أم تختص بالمسلمين، والمسألة فيها احتمالان بل قولان، ولكل قول وجوه لا يسعنا المجال لتفصيلها، لكن في مجموعها تدل بأن الإنسان في ساعة احتضاره يتصل بعالم الغيب، ويرى الملائكة والأولياء والأنبياء الصالحين فيقول: ﴿**إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾[(٢)] لعدة غايات:

الأولى: لأجل الإقرار لديهم بالإيمان فيدفع عنه الحساب، ويشهدون له بذلك.

الثانية: أنه يقول ذلك لا إرادياً؛ لأنه ينتقل من عالم الجهل والشبهة إلى العلم واليقين، فحيث إنه يبلغ درجة اليقين يقر إقراراً قاطعاً بإيمانه.

---

(١) انظر تفسير الامام العسكري عليه السلام: ص٨٤؛ معالم الزلفى: ج١، ص٣٠٩، ح٧٨؛ الفصول المهمة: ج١، ص٣١٠؛ مدينة المعاجز: ج٣، ص١٢٢.

(٢) سورة يس: الآية ٢٥.

الثالثة: لأجل السكينة والاستقرار النفسي، فإنّ المؤمن يتوقع ظهور ثمرة ايمانه فيستعجلها بعد الرحيل من الدنيا الذي عانى فيها المشقات والويلات، ولذا يخاطب فوراً مستبشراً بدخول الجنة، وهي الجنة البرزخية.

والتحقيق أن الأقوال لا تنافي بينها؛ لذا يمكن القول بها جميعاً دون مانع.

وتوضيح ذلك: أن التحاور الذي حصل بين الرسل وحبيب النجار من جهه وبين زعماء الكفر وقادته من جهة أخرى لم يحصل في غرفة مغلقة، بل في الملأ العام والشاهد على قول حبيب لما جاء من أقصى المدينة قال: ﴿**يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾ وهذا معناه أنّ الحضور كانوا جمعاً غفيراً من القوم، فالمجلس الذي تم فيه الحوار حضرته كل الأطراف، والأحداث التي وقعت فيه فيها نوعان من القول والسماع. ذات القول أي المباشر، وقصد القول وهو الذي يعنيه القائل، كما هو الحال في كل محاورة تجري. فيها من هو مخاطب بالمباشرة، وفيها من هو مخاطب بالتبع، وكذلك السماع.

فإذا قال: ﴿**إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾[١] يشمل المعني بالخطاب أولاً والمعني به ثانياً، فإن كان المعني بالخطاب الزعماء شمل عموم الناس كما شمل الرسل، وإن كان الرسل هم المعنيين به شمل غيرهم بالتبع، فالاختلاف المذكور ليس له ثمرة هامة. يبقى الكلام في القول الرابع: وهو أنّ هذا القول للملائكة، فهو أيضاً لا يمنع من شموله للقوم والرسل معاً

(١) سورة يس: الآية ٢٥.

الذين في عالم الدنيا؛ لأن القول هنا يرادبه قول الحال لا قول المقال، أي أنّ موقفه وصبره على القتل والتضحية لسان حال ينطق في الجميع بأنه آمن به، واستعد للتضحية في سبيله، ومثل هذا القول يتناقله الناس ويتسامعونه، ولسان العمل أقوى دلالة وصدقاً من لسان القول. يبقى السؤال أنه - بناء على القول الرابع والخامس – لماذا يقول للملائكة ﴿**إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾.

والجواب: أنّ آمنت لا يراد بها إظهار الإيمان في مقابل الكفر؛ لوضوح أنّه كان مؤمناً، والملائكة والأولياء تعرفه، وإنّما يراد به التسليم والانقياد لأمرالله سبحانه، نظير قوله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إليه مِن رَبِّهِ**﴾(١) مع أن الرسول مؤمن وصفه بالإيمان وأراد به أنه سلّم وانقاد لما أنزل إليه من ربه، وقال (بربكم) تعظيماً للأولياء وللملائكة ولله سبحانه؛ لأنه مقتضى كمالهم ورقي درجاتهم وتواضعاً منه؛ لأنّ شأن المؤمن النقي أن يتهم نفسه وأن لايثق بما يقول ويعتقد أنه كان على الوجه الأتم والأفضل، فلذا يمكنه أن يدعي أنه مؤمن، ولكن لا يمكن أن يدعي أنه تام الإيمان والعقيدة، بحيث لا تدخله الشوائب، فمع وجود احتمال الخلل والنقص في إيمانه وعمله لا يمكن أن ينسب نفسه لربه؛ لأنّه منزه عن الناقص وتربيته، وما يليق بشأنه سبحانه أن ينسب كامل التربية والنشأة إليه وهم الملائكة، وفي ذلك لطف دقيق في المعرفة وأسلوب البيان.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

وباختصار: أن نسبة الرب إلى صاحب الإيمان الكامل أي الملائكة أوفق من نسبته إلى صاحب الإيمان غير الكامل ولو في نظره.

ونلاحظ: أن الأقوال المذكورة لا تنافي بينها، وجميعها تتفق على أمرين:

الأول: أن حبيباً النجارعَلَيْهِ السَّلَامُ مات الموتتين: الموت القهري على أيدي الكفار والموت الاختياري على يده، فأمات نفسه وشهواتها فعاش الحياتين: حياة الروح والحياة عند ربه؛ لذا صار من الصدّيقين ومن أعلاهم درجة.

والثاني: حاكى الكل بلسان القول أو الحال، وقد سمعوا قوله، وعرفوا غايته، فالجمع أولى. هذا ما يتعلق بالجواب عن السؤال الأول، ومنه يعرف الجواب عن السؤال الثاني.

المفردة الثانية: ﴿الْجَنَّةَ﴾

وبمعرفتها يتم الجواب عن السؤال الثالث وفيها قولان:

القول الأول: أنّ الجنة هي البرزخية استناداً إلى الجمع بين الأدلة النقلية؛ لأن جنة الآخرة تكون بعد انقضاء أمد الدنيا وطي مراحل الحشر والحساب وهو لم يحن بعد.

القول الثاني: أنها جنة الآخرة؛ لأن الشهداء والأولياء لا برزخ لهم، بل ينتقلون للجنة فوراً، وتشهد له بعض الأخبار التي نصت على أن المؤمن إذا مات قامت قيامته[1]، والحق هو الأول لوجوه:

---

(١) سورة يس: الآية ٢٦.

الأول: ما تواتر من أن القبر روضة من رياض الجنان أو حفرة من حفر النيران[١]، وهو نص في الجنة البرزخية، فيتقدم على ظهور الأدلة في الأخروية.

الثاني: أن النصوص الدالة لم تعيّن أي جنة يدخل المؤمن بعد موته، فتحمل على الأدلة التي نصت على جنة البرزخ؛ لأنّها مبينة لمجملها أو مقيدة لمطلقها.

الثالث: أن حمل النصوص المذكورة على جنة الآخرة يستدعي التقدير في الآية بأن يحمل قوله: ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ**﴾[٢] الظاهر في الحال والفعلية على أنه سيقال له ذلك في المستقبل، وهو خلاف الأصل، بل ينافي البلاغة، فالقول بالجنة الأخروية لم يثبت له مقتض، بل مبتلى بالمانع، والقول بلسان المجهول (قيل) قد يشير إلى أنّ الذي يخاطبه هو الباري عزّ وجل، وهل يخلق الصوت له أو بإيجاد القول في قلبه وهو الأوفق؛ إذ لو كان بخلق الصوت لقال (وقيل له) فحذف اللام والضمير كاشف عن عدم وجود واسطة، إلّا أن يقال إنّه لم يقل (له) لأنّ الغاية هو القول لا المقول له، وفيه ما فيه، وهو نوع تكريم وتعظيم له، ويؤيده ماورد في الرواية الثانية عمّا يراه المحتضر؛ إذ يناديه ربّ العزة كما مر، ولذا قال بعض المفسرين: إنه لما قتل نودي من ساحة العزة أن ادخل الجنة[٣].

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٩٣-٩٤؛ عوالي اللآلئ: ج١، ص١٤٥، الهامش؛ البحار: ج٦، ص٢٠٥.

(٢) انظر عوالي اللآلئ: ج١، ص١٤٥، الهامش؛ البحار: ج٥٨، ص٧، السادس؛ ج٧٠، ص٦٧.

(٣) تفسير الميزان: ج١٧، ص٧٩؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٥٦.

ولو كانت الملائكة تكلمه لكان الأوفق ان يذكر قولهم، وقال بعضهم: إنّ القول هنا لا يراد به الكلام بل الفعل، نظير قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[١] وقوله إرادته وفعله، ومثله ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ**﴾[٢] وهو مجرد الجعل والبلع، ومعناه هنا هو دخول الجنة بالفعل[٣]، وهو وجيه، ويؤيده العقل؛ لأنّ الآثار تترتب على الأعمال ترتيباً قهرياً، لكنه لا ينافي ظهور الآية، فلا مانع من الجمع، ولو دار الأمر بينهما كان الظهور هو الحاكم؛ لتضافر الأدلة على وجود الكلام و المخاطبه بين الملائكة وأهل الجنة.

وكيف كان فإنّ مخاطبته بدخول الجنة فور قتله شاهد على أنه لم يذق مرارة الموت والتعذيب وإن توهم أعداؤه أنهم يعذّبونه، وشاهد أيضاً على دخول الجنه فوراً، فكأنه انتقل فوراً من عذاب إلى نعيم، ومن دنيا إلى جنة.

ومن الضعف بمكان قول بعض المفسرين أن القائل: ﴿**ادْخُلِ الْجَنَّةَ**﴾[٤] هم القوم استهزاءً به، وهو بعيد عن الظهور والقرائن المحتفة بالآية، بل مناف لقوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾[٥] فإنه صريح في دخول الجنة، لكنهم كانوا جاهلين مشركين.

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

(٢) سورة هود: الآية ٤٤.

(٣) تفسير الرازي: ج٩، ص٥٦.

(٤) سورة يس: الآية ٢٦.

(٥) سورة يس: الآيتان ٢٦- ٢٧.

المفردة الثالثة: ﴿قَوْمِي﴾

إذ سماهم قومه مع أنهم يختلفون معه في العقيدة؛ لأن نهج الأنبياء عليهم السلام وسيرتهم قائمة على محبة الناس وعدم التفريق بينهم، بل الجميع عندهم سواء، ويعتبرون للتعامل معهم ضابطين هما الإنسانية والأخوة الدينية، فكل من لم يتفق معهم في الدين يتفقون معه في الإنسانية، وهذا مبدأ عظيم يبطل العصبيات بين البشر، فلذا حبيب يسمي القوم الذي قتلوه شرّ قتله ومارسوا في حقه أبشع أنواع التعذيب بأنّهم قومه، وهذا هو دأب رجال الله.

وقوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ يحتمل أنه قال للملائكة الذين استقبلوه وأدخلوه جنته، ويحتمل أنه قال لأهل البرزخ الذين يشاركونه المقام ورتبته، ويحتمل أن يكون حدّث نفسه بذلك، والكل صحيح ولا تنافي بين الاحتمالات، وشاهد الحال والعادة يقضيان بحدوثها.

المبحث الثاني: في لطائف الآيات المباركات

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أنّه في الإيمان قال: ﴿آمَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾[1] ولكن في الغفران قال: ﴿غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ والسر فيه أنه بعد الغفران يليق بأن ينسب نفسه للرب لأسباب:

الاول: أن الغفران يمحي العيوب والنواقص فيجعله كاملاً، فيليق أن ينسب إلى تربية الكامل.

الثاني: أن الغفران فيه نعمة وامتنان عظيم يستدعي الشكر، ومن مقتضيات الشكر العبادة، ولا تكون إلّا للرب تعالى.

الثالث: لأن الغفران ناشئ من الحب والقرب، ولولاه لم يكن، فلو قال: (بما غفر لي ربكم) لكان منافياً لهما، وهو ما لايصنعه عبد ولا عاقل.

اللطيفة الثانية: هل (ما) في قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾[2] استفهامية أو موصولة أو مصدرية أو زائدة؟

---

(١) سورة يس: الآية ٢٥.

(٢) سورة يس: الآية ٢٧.

وتظهر الثمرة بينها في فهم معنى الباء، فعلى الأول تكون الباء سببية، ومفادها ياليت قومي يعلمون بأي سبب غفرلي وجعلني من المكرمين ليعرفوه ويقتدوا به، ولاشك أن السبب هو الإيمان بقول الأنبياء والتصدي لنصرتهم والدفاع عنهم والشهادة في سبيل هذه العقيدة، وبذلك يسن للقوم طريق السعادة بالتوبة عن الشرك والدخول في الإيمان، ويضعّف من جهة منافاته للبلاغة وثقله في البيان، وكان الأوفق أن يقول: (بِمَ غفرلي ربي).

وعلى الثاني تكون الباء للإلصاق، ومفادها (ياليت قومي يعلمون بالذي غفرلي ربي)[1] فتكون إخباراً عن الحال وهو ضعيف؛ لأن (الذي) يعود على الغافر فلا يستقيم مع قوله (ربي) فيكون المنطوق في غاية الركاكة، ومفاده (يعلمون بالغافر الذي غفرلي ربي) إلّا أن نقدّر ضميراً مثل (هو) أي وهو ربي أو نحذفها، وكلاهما على خلاف الأصل.

وعلى الثالث تكون للإلصاق أيضاً، ومفادها (ياليت قومي يعلمون بغفران ربي) وهو وجيه[2] أدبياً، لكنه لا يستقيم في المعنى، ولا ينسجم مع مقامه؛ لأن تمني علم القوم بغفران ذنبه لا يصح إلّا إذا كان الشخص معلوماً عندهم بالسوء الذي يستحق عليه العقاب، فإذا غفرله ربه ذلك

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٩؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥١؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٧٩؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٥٦.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٤٢.

يستحق أن يعلن عنه ويعلمه الآخرون، وهذا لا ينطبق على حبيب؛ لأنه كان مؤمناً صالحاً تقياً ومن الصديقين.

وأمّا على الرابع فهو باطل في نفسه؛ لعدم وجود الزيادة في القرآن، ولأنه يوجب الخلل في منطوق الآية ومعناها.

فالحق هو الأول لسببين:

الأول: لأنه أوفق بقواعد البلاغة والإشكال الذي ذكر مردود بأن ما الاستفهامية وردت على الأصل، وحذف الألف على خلاف الأصل، وهو لا يخل بها مع الألف، بل لأن (الذي) يستبطن فيه وردت مع الألف فتكون من موارد استعمال اللفظ في أكثر من معنى الاستفهام والموصول.

والثاني: لأنه أوفق بغاية الأنبياء والأولياء، فإن علو هممهم وكمال نفوسهم وأرواحهم وتجردها من الأحقاد والضغائن يستدعي عطفهم على الناس الذين يبتلون بالشرك والمعاصي لما سيؤول أمرهم من العذاب؛ لذا يعطفون على أعدائهم، ويبكون لأجل مصيرهم السيء.

وقد مر أنّ صبياً كان يدعو لقومه وهم يرجمونه ويعذبونه ويقول (اللهم اهد قومي) ومثله يتمنى أن يعلم قومه بمصيره؛ لأنهم لو علموا بذلك سيسلكون طريق التوبة والإيمان حتى ينجو مما هم فيه، و لذا ورد في الحديث أنه نصح لقومه حياً وميتاً[(١)].

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥١.

اللطيفة الثالثة: لماذا يستغفر المعصوم؟

قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي﴾ هل كان مذنباً فغفر له؟

والجواب: عن ذلك يتوقف على بيان مقدمتين:

المقدمة الأولى: أن المغفرة من الله سبحانه أن يصون العبد من أن يمسه العذاب[١]، وأصلها الستر كما صرح به أهل اللغة[٢]؛ لأن الغفران سبب الصون، وللملازمة بينهما يمكن أن يعبر بأحدهما عن الآخر، والحق ان الغفرأن أخص من الستر لتميزه عنه بميزتين:

الأولى: أنه يطلق على الستر من العيوب والنواقص.

والثانية: أنه يستبطن الستر عن محبةٍ أو عفو؛ لذا يلازمه إسقاط العقاب أو إيجاب الثواب، لذا قال بعض أهل اللغة: إن الغفران ينبئ عن استحقاق الثواب[٣]، والصواب أنه لا عن استحقاق الثواب، بل في موضع إعطاء الثواب أو رفع العقاب؛ لأن الثواب تفضّل والعقاب استحقاق، وكلاهما لا يحصلان إلّا عن عفو ومحبة، ولذا لا يستعمل إلّا في الله سبحانه، كما لا يقال الاستغفار إلّا في طلب العفو منه سبحانه، وأما رفع العقاب من غيره

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٩، (غفر).

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٧٧٢، (غفر).

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٣٨٧، (١٥٥٦).

يقال له عفو أو صفح، وطلبه يقال له استعفاء أو طلب العفو، وللكلام تفصيل في اللغة[1].

المقدمة الثانية: أن طلب الغفران على أنحاء عديدة عمدتها ثلاثة:

النحو الأول: طلب المغفرة من الذنوب والمعاصي، وهو الذي يقع من عموم الناس، والغالب في استعماله.

النحو الثاني: طلب المغفرة من القصور الحاصل في حق الخالق.

النحو الثالث: طلب المغفرة عن الآثار والتبعات الحاصلة من الأفكار والأعمال.

والأول نقص وهو معروف، وأما الثاني فهو من مراتب الأدب والكمال، ولا يدركه إلّا الكُمّلون من البشر من الأنبياء والصدّيقين ومن تابعهم في الكمالات، وهو لا يكون من ذنب ومعصية، بل من خوف التقصير أو القصور في أداء حق الخالق تبارك وتعالى؛ لأنهم يعرفون ويشعرون بأن حقوق الباري عليهم عظيمة، وأعمالهم مهما كانت صالحة وعظيمة لا يمكن أن تفي بحقوقه عليهم، فيقروا أن كل ما يقدمونه في محضره هو قليل ولا يليق بساحته، ومثله يعدونه نقصاً وقصوراً فيهم، فيكملون نقصه بالدعاء وطلب العفو والاستغفار لكي يمحي الباري عنهم هذا القصور، ويتقبل منهم العمل القليل، ويعده كثيراً، ويرتضي منهم

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٣٨٧ ـ ٣٨٨، (١٥٥٦ ـ ١٥٥٩).

العمل الذي يرونه لا يفي بحق، والذي يقرأ فقرات دعاء عرفة وأمثاله يجد ذلك جلياً، وقد كثر في الأدعية الشريفة: ﴿يامن يقبل اليسير ويعفو عن الكثير﴾(١) وفي بعضها:﴿يامن لم يهتك الستر ولم يؤاخذ بالجريرة﴾(٢) لأنه سبحانه إذا هتك الستر فضح قصور العبد، وهذه معرفة عالية وشعور رفيع لو أدركه العبد وصل إلى مراحل الانقطاع، ودخل عالم العبودية والربوبية الذي يصبح فيه العبد عبداً، والناقص كاملاً، والجاهل عالماً.

وقد كثر ورود الاستغفار في أدعية المعصومين عليهم السلام لهذه المعرفة والشعور، وقد ورد في دعاء سيد الشهداء عليه السلام في يوم عرفة: ﴿يامن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بين يديه مستغفرين﴾(٣) ولاحظ أن هذا الاستغفار من خصائص الأولياء؛ لأنه لا يدركة إلّا هم.

وورد بطرق الخاصة والعامة عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله أنه كان يتوب إلى الله عز وجل بالاستغفار كل يوم سبعين مرة(٤)، وقد وجه جمع من أصحابنا ذلك بتوجيهات منها ما ذهب إليها الشيخ الصدوق والسيد المرتضى من أن ذلك من باب التعليم والإرشاد للعباد، وسياق المثل: (إياك أعني واسمعي

---

(١) مصباح المتهجد: ص٥٩٨؛ إقبال الأعمال: ج١، ص١٧٥.

(٢) الدعوات: ص٦٠؛ المصباح (للكفعمي): ص٥٧١؛ التوحيد: ص٢٢١، وفيه: ﴿يا من لم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك الستر﴾.

(٣) البحار: ج٩٥، ص٢٢٦.

(٤) الكافي: ج٢، ص٤٣٨، ح٤؛ مسند أحمد: ج٢، ص٢٨٢.

ياجاره)[١] وبعضهم قال: إنه من باب الاستغفارمن وساوس الشيطان، فإنه لاينفك يؤذيهم لكي يرفعه الباري عنهم ويسلطهم عليه، ويشهد له قول النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ﴿ما منكم أحد إلّا وله شيطان﴾ فقيل له: وأنت يا رسول الله؟ فقال: ﴿وأنا ولكن أعانني الله عليه فأسلم﴾[٢] وهما وإن كانا غير مخلين بعصمتهم إلّا أن الأنسب بمقاماتهم ماذكرناه، ولو سأل سائل ما سبب شعورهم بالقصور واستغفارهم؟ لكان الجواب لعدة وجوه:

الوجه الأول: الجهة البشرية فيهم، فإن أرواحهم وعقولهم وقلوبهم ملكويته فتقتضي دوام الانقطاع لربهم، إلّا أن الضرورات البشرية في أبدانهم قد تمنع من ذلك أحياناً، فيضطرون للأكل والشرب والتفرغ للعباد وتعليمهم والصبر على أذاهم وشرورهم ونواقصهم فيشعرون بالتقصير في حق مولاهم، فيقومون له مستغفرين، وقد ورد في الحديث النبوي: ﴿أنه ليران على قلبي وإني لأستغفر بالنهار سبعين مرة﴾[٣] وقيَّد الاستغفار بالنهار لأنه محط الانشغالات البشرية والاختلاط مع الناس والجهاد في سبيل الله بخوض الحروب والقتال، بخلاف الليل فإنه يصفو له الجو الروحي، ويخلو بربه تبارك وتعإلى ومخالطة الناس والانشغال بتلبية

---

(١) انظر اعتقادات الصدوق: ص٦٣؛ تنزيه الأنبياء: ص١١٩.

(٢) عوالي اللآلئ: ج٤، ص٩٧، ح١٣٦؛ وانظر البحار: ج٦٧، ص٤٠.

(٣) عوالي اللآلئ: ج١، ص٣٣٤، الهامش؛ كشف الغمة (للأربلي): ج٣، ص٤٧؛ شرح أصول الكافي: ج٤، ص٢١٣؛ وانظر الفقيه: ج٤، ص٣٨٥؛ المعجم الكبير: ج١، ص٣٠٢، ح٨٨٧ ـ ٨٨٩.

حاجات البدن مما يوجب الكدورة على قلبه المبارك، وكلما كان القلب نورانياً نقياً وطاهراً أسرعت إليه الكدورات أكثر بما يستدعي الاستغفار لتطهيره وتنقيته من الشوائب.

الوجه الثاني: ما يزدادون فيه من المعرفه بالله سبحانه التي تحصل لهم وتتجلى في كل ليلة جمعة كما نصت عليه بعض الاخبار[(١)]، وكذا من زيادة الكمالات وعلو الدرجات التي ينالونها من أعمالهم ومجاهداتهم، أو من صلوات الناس عليهم والاقتداء بهم، فإن معرفتهم بالله لا نهاية لها، وكذا الكمالات والدرجات، وعليه فكلما ازدادوا معرفة عدوا المرتبة السابقة قصوراً يستدعي الاستغفار منه، وكلما ازدادوا درجة كانت نعمة عظيمة عليهم استدعت شكراً، والشكر يستدعي الاستغفار؛ لأنهم يشعرون بأن ما منحهم ربهم من نعم لا يستحقونه، وأن درجاتهم عند ربهم لا تليق بما يفيض عليهم من نعم فيستغفرون ليجبروا هذا الضعف بالإنابة والتوبة والدعاء.

الوجه الثالث: أنهم يدركون أنّ كل مالديهم من مقامات ودرجات هي منه سبحانه، فلو صرف عنهم لطفه ورحمته زالتا عنهم؛ لذا ورد في الأدعية الشريفة: «اللهمّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[(٢)] فعلمهم

---

(١) انظر شرح أصول الكافي: ج٥، ص٢٤٢؛ الجواهر: ج١، ص١٨٢، الهامش.

(٢) انظر الدعوات: ص٢٣٢؛ مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٥٢؛ مصباح المتهجد: ص٦٠٣؛ إقبال الأعمال: ج١، ص١٨٢، وفيها: «اللهم لا تكلني إلى نفسي فأعجز عنها».

وعصمتهم وقدرتهم منه سبحانه، وقد نالوها من جهتهم الإلهية، وإذا لاحظوا أن وجودهم الإلهي الملكوتي تلبس بالجسد المادي الملكي القاصر شعروا بالنقص والقصور، فهم دائماً بين شعورين: شعور تجلي العظمة والهيبة الإلهية في قلوبهم، وشعور النقص والقصور من جهتهم البشرية، فيقومون مستغفرين تائبين من قصورهم، وللكلام تفصيل ذكرناه في شرحنا على دعاء كميل(١).

والخلاصة: أن العبد كلما ازداد كمالاً ورقياً ازداد استغفاراً، وهذا الاستغفار ليس من الذنب، بل من القصور الذي يعده الكامل ذنباً في مقابل الأكمل والأعظم، وإليه يشير الحديث: ﴿حسنات الأبرار سيئات المقربين﴾(٢) أي كل عمل حسن يعمله الأبرار الصالحون لحسنه إلّا أن المقربين من ربهم لا يعدونه شيئاً يستحق الذكر في مقابل حقوقه عليهم، وتقديم العمل القليل في محضر من يستحق الأكثر يعده الكامل إساءة في حقه فيعتذر منه. مثله مثل من يقدم طعاماً قليلاً للملك فيعتذر منه لقلته في محضره.

وأما النحو الثالث فهو إزالة الآثار السلبية من قلوب الناس وخواطرهم وهي من ملازمات البشر، فإنهم يحملون على الأنبياء والأولياء في قلوبهم الشيء الكثير بسبب جهلهم، أو سوء ظنهم، أو تضرر مصالحهم،

---

(١) انظر مواهب الليل في شرح دعاء كميل: ج١، ص٣٦٩-٣٧٣.

(٢) البحار: ج٢٥، ص٢٠٥، ح١٦؛ كشف الغمة (للأربلي): ج٣، ص٤٦.

فيحقدون عليهم ويؤذونهم ويقتلونهم، وبعض هذه الآثار السلبية تحصل في حياتهم، وبعضها تبقى حتى بعد مماتهم وانتقالهم إلى العالم الآخر؛ لأن شأن الحقد والحسد والجهل بقاء آثاره مالم تزل أسبابها، والكفار والمشركون الذين يعادون الأنبياء والأولياء في الغالب عصاة متمردون لايتوبون ولايتعلمون، أو لايريدون تعلم الحقائق، فتبقى الآثار تغلي في صدورهم، وهم بسبب جهلهم وحقدهم يعدونها ذنوباً، ولايزيلها إلّا الله سبحانه، وهذا أحد معاني النصرة الإلهية لأوليائه. يشير إلى ذلك قوله تعالى لرسوله المصطفى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾[١].

والمقصود الآثار والتبعات التي حصلت في صدور أعدائه قبل الفتح وبعده، أو في حياته و بعد رحيله، وقد ظلت هذه الأحقاد في صدور البعض - خصوصاً بني أمية - إلى بعد رحيله حتى قتلوا حديثه وشخصيته وأولاده وذريته، وبسبب آثارها السلبية عليهم يعدونها ذنوباً وهي ليست بذنوب، ولكن القرآن سماها كذلك إما باعتبار التكلم بلسان القوم أو باعتبار ما يلزمها من آثار كالذنب الذي يلازم الحيوان ملازمة عضوية، وقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أن الذنب هو تحطيمه لأصنام المشركين التي كانت تعبد من دون الله، وكان عددها ثلاثمائة وستين صنماً[٢]، وللآية معانٍ أخرى نوكلها لمحلها.

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢.

(٢) انظر الأمالي (للطوسي): ص٣٣٦، ح٦٨٣؛ البحار: ج٢١، ص١١٦، ح١١.

والخلاصة: أن إزالة الآثار عن نفوس المشركين والكفار والمنافقين أو سترها يعتبر غفراناً لها.

ونلاحظ أن كل نبي وولي وصدّيق ومن تابعهم واقتدى بهم يحتاج إلى نوعين من الاستغفار: هما استغفار القصور واستغفار الآثار، وهو من مقتضيات عالمهم وعبوديتهم وأما استغفار الذنب فهو بعيد عنهم لعصمتهم. إذا اتضح هذا يعرف أن قول حبيب النجار ﴿**بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي**﴾[1] ليس من قبيل غفران الذنوب والمعاصي، وإنما من قبيل الثاني والثالث، وقد غفر الله سبحانه له قصوره، وأزال عن القلوب الآثار، وأشاد بذلك؛ إذ ذكره في القرآن، وجعله عظة للذين آمنوا، وفي ذلك دلالة على أن الظاهر القرآني لاينبغي أن يحمل على ظهوره دائماً، بل يجب أن تلاحظ مناسباته وقرائنه حتى يفهم معناه.

اللطيفة الرابعة: قال: ﴿**وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾[2] والإكرام إعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التجلي والتعظيم[3]، وهي جملة خبرية كاشفة عن المقام الذي ناله حبيب لشهادته ولطف التعبير فيه أنه قال: ﴿**وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ ولم يقل (كرّمني) لأن صيغة الماضي في التكريم تفيد الوقوع مرة واحدة، وتدل على العطاء دون المقام.

---

(١) سورة يس: الآية ٢٧.

(٢) سورة يس: الآية ٢٧.

(٣) مجمع البيان: ج٨، ص٢٦٩؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٧٩.

أما صيغة اسم المفعول فتفيد الاستمرار، ونسبة الجعل إليه، و(من) يفيدان أنه ألحق بقوم رفعهم الباري عز وجل وجعلهم أصحاب كرامة لديه، وأعطاهم بهذا التكريم منصبين منصب الكرامة، وقد أعطاه الله لبعض الملائكة والعباد المخلصين كما نص عليه القرآن الكريم[1]، ومنصب الشفاعة، والكريم والشفيع يملك القدرة على الإنقاذ بكرامته ووجاهته عند الله وبنفوذه، وهو أثر وضعي لما نفاه عن الأصنام من المقامين اللذين كان المشركون يعتقدون أنها تملكها حيث قال: **﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ﴾**[2] و هذا أحد معاني التعويض والجزاء الوفاق للأفكار والأعمال التي يقدمها الإنسان لربه؛ إذ أبطل دعاوى المشركين فيما نسبوه للأصنام، ونصر الباري عز وجل، ودعاهم إلى عدم التجاوز على حقوقه سبحانه وأعطى كلا الصفتين له.

---

(١) قال في الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ سورة الأنبياء: الآيتان ٢٦- ٢٧، وفي العباد المخلصين قال: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ سورة المعارج: الآية ٣٥.

(٢) سورة يس: الآية ٢٣.

اللطيفة الخامسة: كيف ينتفع الميت في البرزخ؟

إن التمني في قوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾[1] يشير إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن لأهل البرزخ أماني وآمالاً يحبون تحقيقها كما لهم تحسر وندم على ما تركوا، وحيث إن أيديهم انقطعت عن الدنيا لانتهاء أمد اختبارهم فإنهم يتمنون من أهلهم وذويهم تحقيقها، وقد قرر الشرع جملة من الأحكام تخص الميت تؤكد هذه الحقيقة. منها الوصية وإيجاب الشرع تنفيذ وصية الميت، وتلقين الميت لأجل تذكيره ودفع وحشة القبر عنه، وقد ثبت علمياً أن الميت تبقى أذنه تسمع لمدة إثنتين وسبعين ساعة، والصلاة عليه وذكره والدعاء له، وكذا استحباب تشييعه وحضور جنازته والصلاة عليه وأداء صلاة الوحشة عنه، فذلك كله شاهد على أنه يرى ويسمع ويدرك، كما أنّها تفسر صحة بعض الرؤى التي يراها أهل الميت والمعنيون به بعد موته، ويحدثهم ويخبرهم عن حاله، وأحياناً يطلب منهم كما تواتر نقله. طبعاً هذا ليس بعام لجميع الأموات، بل لقسم خاص لهم بعض الصلاحيات في الارتباط بعالم الدنيا، وتكون الرؤيا الصادقة وسيلة الارتباط.

ومن هنا نلاحظ أن الشرع حث ذوي الميت على عمل الخير والتصدق عن الميت والترحم عليه وإقامة الصدقات الجارية وإطعام الطعام وإقامة المجالس التي فيها ذكر لأهل البيت عليهم السلام ونحو ذلك بثوابهم؛ لأن الميت في

---

(١) سورة يس: الآية ٢٦.

عالم البرزخ يبقى ارتباطه بعالم الدنيا حيث أعماله وآثارها وأعمال أهله وذويه التي يؤدونها عنه من قضاء العبادات وأداء حقوق الناس التي في ذمته والتثويب باسمه، ومثل ذلك يقال في أعماله الطالحة وأعمال من تأثر به وتعلم منه أو أقتدى به، ولذا كان النبيﷺ يقف على قبور الكفار ويخاطبهم، وكذا أمير المؤمنينعليه السلام، وقد ورد أنه لما رجع من حرب صفين ووصل جبّانة الكوفة توجه إلى القبور ونادى أهلها قائلاً: ﴿يا أهل الديار الموحشة ... أما الدور فقد سكنت، وأما الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت وهذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟﴾[١].

وفي رواية الأصبغ بن نباته أنهعليه السلام قال: ﴿لو كشف لكم لرأيتم أرواح المؤمنين في هذا الظهر حلقاً يتزاورون ويتحدثون﴾[٢].

ولو لا أن يكونوا يدركون ويسمعون ويتمنون ويندمون لم يكن وجه لمخاطبتهم من قبل سادة الخلق، وقد نص القرآن على أن المؤمن الصالح بعد الموت يتمنى الخير لأهله وقومه كما يتمنى الطالح أن يرجعوه إلى عالم الدنيا ليعمل صالحاً، ولكن في ذاك العالم لا يستطيع الإنسان أن يحقق أمانيه إلّا عبر أهله وذويه؛ إذ قال سبحانه: **﴿حَتَّى إذا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا**

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص٣١، رقم ١٣٠.

(٢) انظر البحار: ج٦، ص٢٤٣، ح٦٥؛ المختصر: ص١٩، وفيه ((لألفيتم بدل لرأيتم)).

وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١] وقوله: ﴿**ارْجِعُونِ**﴾ يتضمن تمني العودة إلى عالم الدنيا وندمه على ما فرّط فيها، وترك كل مافرط فيه من وراء ظهره، ولكن لايستجاب له؛ لأن أمد الاختبار انتهى، ودخل عالم البرزخ وهو العالم المتوسط بين عالمي الدنيا والآخرة يعيش فيه الإنسان حتى يكتمل ملفه قبل حشره[٢]، ويجمع فيه آثار أفكاره وأعماله ومايقدمه له أهله وذووه من الصالحات، ويستمر في هذا العالم إلى يوم البعث بمرتبتيه البعث في الرجعة إن كان مؤمناً صالحاً، أو البعث في الآخرة، وقد ورد في الأخبار المتضافرة أن من لم يزك ماله ولم يحج تمنى أن يرجعوه، وسأل ذلك ولكن لا يستجاب له[٣].

والمراد بالزكاة معناها العام الشامل للخمس والزكاة والصدقات المستحبة؛ لأنه يجد أنه بخل بأتفه الأشياء وهو المال الزائل، وتركه لغيره يستمتع به، وضحى بالأجر العظيم الذي يقابله في الحياة الباقية.

روى الشيخ الصدوق عن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: نصلي عن الميت؟ فقال: ﴿نعم، حتى إنه ليكون في ضيق فيوسع الله عليه

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩- ١٠٠.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٧، ص٢٠٩.

(٣) نفحات الرحمن : ج٤، ص٣٩٤ ـ ٣٩٥؛ ثواب الأعمال: ص٢٠٨، ح٥؛ الكافي: ج٣، ص٥٠٣، ح٣، وفيه: ((عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من منع صيراطاً من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم، وهو قوله عزّ وجل: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۞ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

ذلك الضيق، ثم يؤتى فيقال له: خفف عنك هذا الضيق بصلاة فلان أخيك عنك﴾[(١)].

ومفاده أن الميت لا ينسى أصحابه في الدنيا، ويعرف من يقدم له العمل ويذكره ومن لا يقدم، ومعلوم أنه يدعو لمن يعمل له خيراً، ويسأل الله سبحانه أن يقضي حوائجه ويدخل على قلبه السرور كما هو أدخل عليه السرور.

وفي رواية أخرى قال عليه السلام: ﴿إن الميت ليفرح بالترحم عليه والاستغفار له كما يفرح الحي بالهدية تهدى إليه﴾[(٢)].

وفي رواية ثالثة عنه عليه السلام: ﴿يدخل على الميت في قبره الصلاة والصوم والحج والصدقة والبر والدعاء، ويكتب أجره للذي يفعله وللميت﴾[(٣)] وفي ذلك لطف عظيم بالعامل؛ إذ ينال بما يقدمه للميت ثواب رضا الميت ودعاءه وسروره، وثواب ذات العمل.

وفي رواية أخرى فصل بعض الآثار التي ينالها الميت من عمل الحي. قال عليه السلام: ﴿إذا تصدق الرجل بنية الميت أمر الله جبرئيل أن يحمل إلى قبره سبعين ألف ملك؛ وفي يد كل ملك طبق، فيحملون إلى قبره، ويقولون:

---

(١) انظر الفقيه: ج١، ص١٨٣، ح٥٥٤؛ الوسائل: ج٢، الباب ٢٨ من أبواب الاحتضار، ص٤٤٤، ح٢٥٩٨.

(٢) الفقيه: ج١، ص١٨٣، ح٥٥٤؛ الوسائل: ج٢، الباب٢٨ من أبواب الاحتضار، ص٤٤٤، ح٢٥٩٩.

(٣) الفقيه: ج١، ص١٨٥، ح٥٥٧؛ الوسائل: ج٢، الباب٢٨ من أبواب الاحتضار، ص٤٤٤، ح٢٦٠٠.

السلام عليك ياولي الله. هذه هدية فلان بن فلان إليك، فيتلألأ قبره، وأعطاه الله ألف مدينة في الجنة، وزوجه ألف حوراء، وألبسه ألف حلة، وقضى له ألف حاجة»[1] و من هذه الحاجات التي يقضيها هو ما يدعو به الميت لمن قدم له الهدية.

ومعلوم أن القضية تعود إلى فضل الله ورحمته وليس إلى الاستحقاق، فلا ينبغي ان يستغرب من كثرة العطاء، فإن خزائن الباري لا تنفد ولا تزيده كثرة العطاء إلّا جوداً وكرماً، فإذا كان المؤمن العادي الفقير كريماً مع أخيه المؤمن ويهديه من العمل والثواب فلا يمكن أن يحرم الباري عبده الفقير إليه من كرمه، وعادته الإحسان والجود والكرم.

عناية رجال الله بذويهم

الحقيقة الثانية: أن رجال الله حتى بعد موتهم يفكرون في أهلهم وذويهم وأقوامهم، ويطلبون نصحهم وهدايتهم، ويتمنون لهم الخير، وأن لذّات الجنة لاتهمهم بقدر ما تهمهم هداية الناس وصلاحهم، و السبب في ذلك يعود لوجوه:

الأول: أنّ لذّات الجنة فيها مصلحتهم، وهداية الناس فيها عبوديتهم لربهم، وهي أعظم في نفوسهم وقلوبهم، ولذا نلاحظ أن حبيب بمجرد أن

---

(١) الوسائل: ج٢، الباب ٢٨ من أبواب الاحتضار، ص٤٤٥، ح٢٦٠٦؛ البحار: ج٧٩، ص٦٣، ح٧.

دخل الجنة تمنى أن يعلم قومه ما أعطاه الله من النعيم، مع أن العادة قاضية أن ينقطع إلى نعيمه ولذاته، ثم يفكر في غيره، لكنه فعل العكس، وهذا شاهد آخر على أنه كان من عباد الله الأبرار الذين يعبدون الله سبحانه.

والثاني: علو نفوسهم يقتضي مشاركة الغير في النعمة وإن ظلمهم وقتلهم، لإن الانفراد أنانية تنافي العبودية وروح المشاركة ومحبة الناس، فإن الأنبياء ومن شاكلهم في الكمال لايحبون ان يتفردوا ينعمه، بل يحبون مشاركة الناس لهم؛ لأن قلوبهم تحب الجميع. إن المؤمن العادي بعد الموت ينتبه أنه كان غافلاً يتنازع على أمور الدنيا الفانية، ويعيش الهموم والآلام والمشاكل مع أنها كلها تافهة لاتسوى شيئاً، وكان في الدنيا ربما يحسد ويحقد لكنه بعد الموت ينزع ما فيه من غلٍّ وحقد فتصفو نفسه وقلبه، ويكمل عقله، فما بالك بالصديقين؟

وهذه اللطيفة تبطل دعويين:

الأولى: دعوى من يزعم أن الأنبياء والأولياء لا يضرون ولا ينفعون بعد موتهم، فإن النصوص المتقدمة شاهدة على أنهم يضرون وينفعون، وحبيب النجار تمنى لقومه العلم، ولو دعا لهم لاستجاب الباري عز وجل دعاءه، وأنزل عليهم الخير؛ لأنه شفيع؛ بداهة أن العبد واقع في محضر الباري يسمع كلامه ودعاءه حياً كان أو ميتاً، واذا قصرت يد العبد في الدنيا فإن يد الباري مبسوطة، ورحمته واسعة، وفضله عميم.

فحضور المؤمن عند قبر النبيصلى الله عليه وآله والولي لأجل تعظيمه وتكريمه والسلام عليه والدعاء عنده ينفع الزائر؛ لأن رحمة الله سبحانه قريبة منه، وهو يسمع الدعاء، ويرى الزائر فيدعو له بالرحمة والخير والبركة، فكيف لا

ينفع؟ ولو أساء الزائر الأدب وفعل مايستحق العقوبة دعا الله سبحانه، فإنه سبحانه يستجيب له ويعاقبه فكيف لا يضر؟

الثانية: دعوى من ينفي وجود عذاب القبر ونعيمه، وتفصيل البحث في علم الكلام[١].

الثالث: أنّ الصديقين وأصحاب الدرجات المعنوية العالية هم باب الرحمة الإلهية، ولا يتمنون الشر لأحد وإن كان من مخالفيهم؛ لأن نفوسهم تقية زكية، وقلوبهم نقية لا تعرف القبائح، ولذا كانوا يدعون لأقوامهم وهم يعذبونهم ويقتلونهم، وقد مر دعاء حبيب النجار لقومه وهم يرجمونه، وكذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أدموه[٢].

وورد في الأخبار أن النبي المصطفى رأى جنازة محمولة إلى القبور فسأل جنازة من هذه؟ قيل له (فلان اليهودي) فبكى صلوات الله عليه، فقيل يارسول الله! مم بكاؤكم؟ قال: ﴿لهذا اليهودي﴾ قيل إنه يهودي. قال: ﴿نعم إنها نفس أفلتت مني وذهبت إلى النار﴾ فهو صلوات الله عليه يبكي لشخص لم يهتد على يده، ويتأسف لذهابه إلى النار فيبكي. هذه الروح العالية تجلت فيها رحمة الله، وجعلها رحمة للعالمين، وقد تضافر هذا المضمون عنهم عليهم السلام في قضايا كثيرة[٣].

---

(١) انظر مقتنيات الدرر: ج٩، ص٧٩.

(٢) البحار: ج٢٠، ص٢١؛ ج٣٥، ص١٧٧.

(٣) انظر تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٩٥، تفسير سورة الضحى، ح١١؛ ينابيع الحكمة: ج٣، ص٢٩٢، ح٥٤١٤.

المبحث الثالث: في تعاليم الآيات المباركات

وهي عديدة:

التعليم الأول: نفوذ الإقرار على النفس

إنّ إقرار الإنسان البالغ على نفسه ولنفسه معتبر؛ لقوله: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾(١) وقبوله منه لقوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ووجه اعتبار الإقرار على النفس هو الفطرة والعقل؛ لأن الإقرار على النفس فيه إلزام لها، وربما إنزال ضررها، والإنسان السليم لا يقدم على الإضرار بنفسه إلّا إذا كان له وجه حق، ولذا اتفق الفقهاء والأصوليون وعموم العقلاء على الأخذ بقانون الإقرار و اعتباره سيّد الأدلة في إثبات الحقوق والواجبات، ولخصوه بقولهم: (إقرار العقلاء على أنفسهم جائز)(٢) أي نافذ، وهو نص حديث نبوي شريف.

---

(١) سورة يس: الآية ٢٥.

(٢) الوسائل: ج٢٣، الباب ٣ من أبواب كتاب الإقرار، ص١٨٤، ح٢٩٣٤٢؛ عوالي اللآلئ: ج١، ص٢٢٣، ح١٠٤.

وأما إذا كان الإقرار لمصلحة النفس فلم يعتبروه، وإنما يدرجونه في باب الادعاء الذي لا يؤخذ به إلّا بدليل، ولكن الآية المباركة أشارت إلى التوسعة في القاعدة؛ إذ اعتبرت الإقرار للنفس وجعلته نافذاً إذا كان يتعلق بالإيمان والعقيدة وأداء الواجبات الإلهية، وهذا ما أقرته الشريعة، ووردت به النصوص والسيرة إذ يقبل من الإنسان إقراره لنفسه بالإسلام والإيمان والولاية، ولايطالب بدليل مثبت، ويعامل على أساسه، ووجهه ظاهر؛ لأن دواخل الناس لا يعرفها إلّا الله سبحانه وتتميز درجات العقيدة بدرجات العمل والطاعة. نعم ورد أن الإسلام إقرار بلا عمل، وعليه تترتب الحقوق الأولية من حقن الدم والعرض والمال والميراث والمناكحة[١].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يبعث من يجبي الصدقات الواجبة - أي الخمس والزكاة ونحوهما - من الكوفة إلى بواديها، ويوصيه أن يقف على أطراف مواطنهم ويقول: عباد الله! أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه؟ فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه[٢]، أي صدِّقه ولا تتحقق من حاله مع أنه إقرار للنفس.

ومن ذلك يتضح أن إقرار العقلاء ينفذ على أنفسهم فقط في حقوق الناس ولا ينفذ إذا كان لهم؛ لأنه يصبح ادعاء، وأما إقرارهم في حقوق الله

---

(١) تحف العقول: ص٢٩٧؛ البحار: ج٥، ص٢٠٨، ح٢٢.

(٢) نهج البلاغة: ج٣، ص٢٤، الرقم ٢٥؛ وانظر الكافي: ج٣، ص٥٣٦، ح١.

سبحانه فينفذ ما كان لهم أو عليهم، وهذا التعليم تفيده الآية المباركة، وتشهد له قواعد الفقه كقاعدة الجب، وما لا يعرف إلّا من قبله، وتصديق قول ذي اليد، واعتبار غيبة المسلم في الطهارة، وسوق المسلمين ونحوها.

التعليم الثاني: الدفاع عن حجج الله وشعائره

إن الدفاع عن حجج الله وشعائره من الواجبات المغلظة بإظهار الإيمان بهم والنصرة لهم، وأعلى مظاهر شعائر الله سبحانه هم الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنون، وهذا الوجوب قد يتزاحم مع حكم التقية، والذي يستدعي إخفاء الإيمان وصون النفس من القتل إلّا أن وجوب الدفاع والعزة يترجح على وجوب التقية لوجوه:

الوجه الأول: انتفاء مقتضى وجوب التقية، وتضافر الأدلة على أنّ التقية إذا وصلت إلى الدم فلا تقية.

الوجه الثاني: ما يقضي به العقل من وجوب الإظهار والنصرة؛ لأنّ الأنبياء بعثوا لتأسيس الدين وتعليم الناس التوحيد ووحدانية العبادة، وهذا يتنافى مع التقية.

الوجه الثالث: أنّ دليل التقية لا إطلاق له بحيث يجري في مختلف الموارد.

موارد التقية وأساليبها

وتوضيح ذلك: أن التقية من حيث العمل على نحوين:

الأول: التقية الإخفائية، ويرادبها إخفاء الدين والعقيدة وعدم إظهارها خوفاً من الأعداء والمخالفين.

الثاني: التقية الإظهارية، ويراد بها إظهار العقيدة والدين بأسلوب مرن لا يستفز المخالف، ولا يزيد من عدائه، وكلاهما ينطبق عليهما العنوان إذا عرفنا التقية بمعاملة الناس بما يعرفون وترك ما ينكرون حذراً من غوائلهم[1]، والمراد بما يعرفون وينكرون أي ما يفهمونه ويتقبلونه لا ما ينفرهم أو يثير حفيظتهم، كما أن ترك ما ينكرون لا يعني عدم إظهاره دائماً، بل ترك مايثير حنقهم، فتارة يتحقق بإظهار الأصل، وتارة بأسلوب الإظهار، وهو نهج يقضي به العقل، ويعمل به العقلاء، ويستفاد ذلك من قول الإمام الصادقعليه السلام في رواية سفيان بن سعيد التي رواها الصدوق في معاني الأخبار: «إن الله عز وجل قال لموسى وهارونعليهما السلام: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى۞فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾[2] يقول الله عز

---

(١) انظر القواعد والفوائد: ج٢، ص١٥٥، وفيه ((مجاملة بدل معاملة))؛ مستدرك الوسائل: ج١٢، الباب ٤٠ من أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما، ص٣٣٧، ح١٤٢٢٢؛ عوالي اللآلئ: ج١، ص٤٣٢، ح١٣٢؛ البحار: ج٢٩، ص٤١٠.

(٢) سورة طه: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤.

وجل: كنيّاه وقولا له يا أبا مصعب، وإن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفراً ورّى بغيره ... وقد أدّبه الله عز وجل بالتقية فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] ... يا سفيان! من استعمل التقية في دين الله فقد تسنّم الذروة العليا من العز. إنّ عز المؤمن في حفظ لسانه، ومن لم يملك لسانه ندم»[2].

وملك اللسان يعني أن يكون اللسان تحت سلطة صاحبه يتكلم به بحسب الحاجة والضرورة، وهي تختلف من زمان إلى زمان، ومن مكان لآخر، ومن ظرف لآخر، ففي بعض الموارد يتطلب الأمر إخفاء أصل العقيدة، وفي بعض الموارد يتطلب إظهارها بالأسلوب المناسب الذي يقتضيه الحال.

وقوله: «إذا أراد سفراً ورّى بغيره» حمل على معان:

منها: أنه إذا أراد السفر ورّى بغير السفر أي أخفاه واستتر بغير السفر تقية من المخالفين أو لمصالح أخرى.

ومنها: أنه ورّى بغير النبي بأن يرسل أحداً قبله ليتوهم الناس أنه هو فيكفي شرهم.

ومنها: أن المراد السفر إلى الحرب لا يظهر مقصده لكيلا يصل إلى أعدائه فيستعدوا للقتال، وبهذا يهزمهم ويقلل الدم[3].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٢) معاني الأخبار: ص٣٨٦، ح٢٠؛ البحار: ج١٣، ص١٣٥، ح٤٣.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج١، ص٤٣٦.

فليست التقية محكومة بضابطة واحدة، ولذا قسّمها الفقهاء على حسب الأحكام التكليفية الخمسة، ففي بعض الموارد تكون مباحة، وفي بعضها تكون واجبة، وفي أخرى تكون محرمة، وعدوا من التقية المحرمة ما إذا بلغ الأمر الدم، أي كان في إظهارها مايوجب قتل الغير للمؤمنين، وأما فيما يوجب قتل النفس فقالوا باختلاف الموارد، ففي بعض الموارد تحرم، وفي بعضها تجب؛ لاندراجها في باب التزاحم[١].

نعم اختلفوا في الأنبياء أنهم كانوا يتقون ام لا، فذهب السيد المرتضى قدس سره وجماعة إلى العدم، وقال جماعة بالوقوع، والحق هو التفصيل بين التقية الإخفائية فالعدم، والإظهارية فنعم، وشواهده في السيرة والأخبار كثيرة، وكذا في القرآن؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً**﴾[٢] والهجر الجميل هو أن يخالفهم بقلبه ويؤالفهم بظاهر لسانه، ودعوته إلى الحق بالمداراة وترك المكافأة[٣]، وما أشارت إليه الآية من طريقة رسل أنطاكية وحبيب النجار في المحاورة تشهد لهذه الحقيقة، فإنهم لم يخفوا العقيدة، وإنما أظهروا الأمر بالمرونة والكلمة الطيبة والاستدلال المنطقي كما مر عليك.

والحكمة في مرونة الأسلوب تعود إلى وجوه:

---

(١) انظر البحار: ج٨، ص١٤٢؛ سفينة البحار: ج٨، ص٥٦٦.

(٢) سورة المزمل: الآية ١٠.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج٣٨، ص٥١٤، (هجر).

الوجه الأول: أن الفكر لا يمكن إقحامه بالقوة والعنف، كما لا يزول بالقوة والعنف؛ لأنه يقوم على القناعة والاعتقاد، وكلاهما لا يحصلان إلّا بالحوار المنطقي الهادئ، والشاهد أن الظلمة والطغاة حاولوا بمختلف الأساليب أن يغيرّوا الفكر الحر ويقمعوا أهله فعجزوا، بينما الأنبياء بالمنطق والمرونة أقاموا الأمم والحضارات، وهذه حضارات العالم اليوم تتبع الأنبياء لا الفراعنة.

الوجه الثاني: أنّ الإيمان بالشيء يبدأ بالقلب قبل العقل، فإذا أحب الإنسان شخصاً ووثق به يمكن أن ينظر فيما يقول ويصدقه، وأما إذا نفر منه فإن قلبه يطرده فلا يسمع له أو يعقل، والقلب لا يحب النفرة والإثارة والاستفزاز، بل المرونة واللطف، ولذا أشاد الباري عز وجل بنبيه المصطفى صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[(١)] هكذا هو طبع البشر، وهكذا هي قلوبهم تحب اللطف والرحمة والاحترام، وتنفر من الغلظة والخشونة والعنف، فالأسلوب المرن واللطف في البيان يفتح القلوب فتحب أن تسمع، وحينئذ يتأمل العقل حتى يؤمن و يقنع.

الوجه الثالث: أن ذلك من الإرفاق على النفس، فإن التأثير على الإنسان لتغيير فكره أو موقفه فيه مشقة عليه؛ لأنك تخرجه من نهج كان قد أَلِفه واعتاد عليه، وتلزمه بمنهج جديد لم يألفه من قبل، وتغيير المنهج شديد

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

على النفس؛ لأنه خروج عن المعتاد، فلابد وأن يقترن بمرونة الأسلوب وحلاوته حتى تتوازن النفس وتنتقل من حال إلى حال، وهذه السياسة يستخدمها الأطباء في معالجة الأمراض؛ إذ يُغلّفون الأدوية المرة واللاذعة بغلاف فيه نكهة طيبة وحلاوة في الطعم حتى يستسيغه المريض ويتقبله فيشفى. هذا ما يتعلق بعلاج البدن، وكذلك الحال في معالجة الأرواح والعقول، فإن مرارة الحق وتقبله لا يمكن أن تجتمع مع الخرق والغلظة، فلابد وأن تغلف باللطف والليونة حتى يستسيغه الجاهلون والذين يتوهمون الضرر منه، ويقطع عليهم سبيل الاعذار.

الوجه الرابع: مسايرة الأفهام فيما تحكم، فإن الدعوة إلى الحق إذا اقترنت بمرونة الأسلوب تنزع قوة العناد من أيدي المخالف، فإذا كابر وتصدى لقتل الداعي فإن العقل والعرف يحكمان بأنه ناشئ من تجبّر المخالف وعناده وطغيانه، بخلاف ما لو كان الأسلوب فيه خرق وغلظة وفظاظة، فإن العرف قد يعده سبباً للقتل أو جزء السبب؛ لأن الاستفزاز والإثارة يعدان من التحريض على القتل عرفاً، وبهذا التوجيه يمكن تصنيف الروايات الحاثة على التقية والأخرى الحاثة على الجهاد، ويتم بملاحظة الظروف والأحوال، فتكون التقية في بعض الموارد إخفائية وفي بعضها إظهارية، وبكليهما عمل حبيب؛ إذ كان يكتم إيمانه أولاً، ثم لما تطلب الأمر نصرة الأنبياء أظهره، وحاورهم بالمنطق والدليل، وقد تقدم أن الحوار الناجح والصحيح يجب أن يتميز بثبات الموقف مع مرونة الأسلوب.

وقد تقدم أن الأنبياء والأولياء يعملون بمقتضيات عبوديتهم، وهي تقوم على منطق الوظيفة والواجب لا يطلبون من وراء ذلك أجراً، والذي يعمل بهذا الضابط لا يحقد ولا ينتقم، لأنّ الحقد والانتقام والتشفي صفات من يريد الدنيا و يتنازع لأجلها، ويعمل بمنطق المصالح، فإذا تضررت مصالحه حقد وانتقم، فقول حبيب ﴿**يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ**﴾(١) يعلِّم البشرية أن تعيش التسامح و المحبة للبشرية و النزاهة من الأحقاد والضغائن.

التعليم الثالث: التخلية قبل التحلية

إنّ الذين يجاهدون في سبيل الله يحظون بمقامين هما: غفران ذنوبهم ولحوقهم بالمكرمين من عباده، وقد قدمت الآية الغفران على الإكرام إشارة إلى مبدأ أخلاقي وتربوي عظيم، وهو أن التخلية قبل التحلية في كل عملية إصلاح وتقويم، فإن الإنسان إذا أراد أن يبني داراً إما يبنيه على أرض جديدة أو مكان بيت قديم، وعلى كلا التقديرين لا يمكنه أن يقيم بناءه الجديد قبل أن يرفع أنقاض الأرض أو أنقاض الدار القديمة، بل لابد أن ينقي الأرض ويخليها من الشوائب والموانع حتى يقوم البناء صالحاً، وهكذا النفوس فإنّها لا تستقيم إلّا بتطهيرها من الرذائل والقبائح الفكرية والأخلاقية حتى تتحلى بالفضائل الفكرية والأخلاقية.

---

(١) سورة يس: الآية ٢٦.

وعلى هذا الأساس يغفر الباري عز وجل أولاً لعبده، ثم يدخله الجنة ويجعله من المكرمين؛ بداهة أن دخول الجنة والتحاق العبد بالمكرمين من العباد يستدعي وجود لياقة وقابلية ترفع من شأنه إلى مستوى الجنة والإكرام، ومادامت الذنوب والنواقص والقبائح ملازمة له استحال بلوغه ذلك المقام؛ لذا لا بد وأن يطهر وينقى ويرفع شأنه أولاً ثم يكرم، وهذه قاعدة عامة تجري في مختلف جوانب الحياة.

فإن العالم لا يكون عالماً إلّا إذا رفع الجهل بالتعلّم، والتقي لا يكون تقياً إلّا إذا رفع الميل إلى الشهوة المحرمة وهكذا.

التعليم الرابع: بين المرشد والمؤرّخ

قد يخطر في بعض الأذهان وجود شيء من الغموض بين مدلولي هذه الآيات الشريفة والروايات الواردة في شأن نزولها.

فإن الآيات الشريفة من قوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ**﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾[2] تحدثت عن ثلاثة رسل جاؤوا إلى أنطاكية ودعوا الناس إلى الإيمان، ونصرة حبيب النجار لهم وقتله ودخول الجنة، ولا تدل على أن أهل القرية آمنوا وصدّقوا الرسل.

---

(١) سورة يس: الآية ١٣.

(٢) سورة يس: الآيتان ٢٦-٢٧.

وأما الروايات فنّصت على أنّ الرسل لما أظهروا المعاجز و الكرامات آمن الملك وآمن معه الناس فكيف قتلوا حبيباً؟ فقد اختلف المفسرون في توجيه ذلك على أقوال:

القول الأول: ذهب إلى الخطأ في الراوي، والتزم بظهور الآيات في عدم إيمان أهل المدينة، واستشهد لذلك بقوله تعالى فيما بعد: ﴿**إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾[1] فإنها دالة على نزول العذاب بهم، وهو ينفي وقوع الايمان[2]، وعزّزه بعضهم بلزوم الإعراض عن الرواية لمخالفتها للقرآن[3]، وهو ضعيف؛ لان احتمال خطأ الراوي مدفوع بأصالة عدم الخطأ، ومخالفة القرآن مدفوعة بما سنذكره من وجه الجمع.

القول الثاني: ذهب إلى أنّ الروايات الشريفة كمّلت مضامين الآيات ولم تخالفها، إلّا أن كل واحد منهما أشار إلى جهة سكتت عنها الأخرى، فمثلا الآيات ما تعرضت إلى استدلال الرسل والمعاجز التي أظهروها، بينما فصلتها الروايات، كما أن القرآن سكت عن مصير أهل القرية وفصلته الروايات، ومن جهة أخرى سكتت الروايات عن محاورة حبيب النجار وما جرى فيها، بينما ذكرته الروايات، فلا تعارض بينهما، وإنما اكتفى كل منهما بما يهمه ويخدم غرضه، وهذا شأن المرشد والمعلم والواعظ حينما يبين قضية

---

(١) سورة يس: الآية٢٩.

(٢) انظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٢٦.

(٣) تفسير الفرقان: ج٢٣، ص٣٦٢، هامش (١).

ما فإنه لا يفصّل في أحداثها، بل يكتفي بما يخدم الغرض من أحداثها، بخلاف المؤرخ فإنه يفصّل في نقل الأحداث دون عناية منه بجوانب العظة والتعليم، فإن مهمة المؤرخ تختلف عن مهمة المرشد والواعظ، والقرآن والحديث من قبيل الثاني لا الأول، وعلى القارئ والباحث أن ينظر إليهما في سياق واحد، ويستخلص النتائج دون النظر إلى التفاصيل التي لا تهم الغرض، وفيه نظر وإن كان القول في نفسه صحيحاً؛ لضرورة التكامل بين القرآن والحديث؛ إلّا أن هذا لايرفع الإشكال الذي ذكر، وإنما يدعو إلى غض النظر عنه.

القول الثالث: ذهب إلى أنّ الروايات ناظرة إلى بعض القوم، ومنهم الملك وبعض حاشيته الذين آمنوا وصدقوا الرسل، وأما الذين قتلوا حبيباً النجار فهم الجماعة التي عاندت ولم تؤمن، وهم الذين نزلت بهم الصيحة وأهلكتهم[(١)]، وهذا ما تقتضية العادة في مثل هذه المواقف؛ إذ لايؤمن بالأنبياء جميع الناس، بل يختلفون فيهم بحسب درجاتهم ومستويات عقولهم ونفوسهم وقلما تؤمن أمة برمتها بنبي من الأنبياء الأ بعد محن كثيرة وصبر ومجالدة، لكنه ينافي الظهور. نعم يصح في البعض كما سترى.

القول الرابع: أن الروايات والآيات متوافقة في استعراض الأحداث والوقائع ولم تتناف، وتوضيح ذلك بحسب التسلسل:

---

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٤٥.

أولاً: تعرضت الآيات إلى إرسال رسولين إلى أنطاكية فكذبوهما، وفي هذه الفترة كان الجميع مشركاً.

ثانياً: قالت عززناً بثالث وهو شمعون، حيث تمكن من اختراق حاشية الملك وبلاطه وإقناعه بصدق الدعوة برفق الأسلوب والمعاجز والكرامات التي أظهروها.

ثالثاً: مجيء حبيب النجار الذي نصر الرسل، والرواية الواردة بشأنه دلت على أنه جاء لنصرة الرسولين حينما كذبهما القوم، وكان قد التقى بهما في أطراف المدينة، وأقاما له الحجج في شفائه وشفاء ابنه فآمن بهما، ولمّا كذبهما القوم جاء لنصرتهما فحاورهم وقتلوه.

ويبدو من السياق أن بعده جاء شمعون، وتمكن من أن يغيّر الأسلوب، وأتم الحجج على القوم فآمن الملك وآمن القوم. بهذا التسلسل المنطقي للأحداث الذي ذكرته الآيات والروايات يرتفع التنافي، ويبطل القولان الأولان. يبقى الكلام في الآية التي تليها وقد نصت على أن هناك من عوقب ونزل به العذاب، فتحمل على القوم المعاندين، فهم الذين ضلوا وقتلوا حبيباً؛ لأن هذا جزاء من يقتل نبياً ويعاند في كفره.

وشواهد التأريخ فضلاً عن الواقع تؤكد أن الأنبياء مهما جهدوا وبالغوا في التعليم والإرشاد يبقى هناك من صار العناد سجيتهم لايؤمنون حتى يهلكهم الباري عز وجل بالعذاب.

ومنه ماورد في قضية موسى وهارون لما أمرهما الباري أن يأتيا فرعون ويقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى. قيل إنّ موسى أتاه وقال له:

تسلم وتؤمن لرب العالمين على أن لك شبابك فلا تهرم، وتكون ملكاً لا تنزع الملك حتى تموت، ولاتنزع منك لذة الطعام والشراب والجماع حتى تموت، فإذا مت دخلت الجنة، فأعجبه ذلك، ولكنه كان لا يقطع أمراً دون هامان وكان غائباً، ولما قدم هامان أخبره بالذي دعاه إليه، وأنه يريد أن يقبل منه، فقال هامان:

قد كنت أرى أنّ لك عقلاً، وأنّ لك رأياً، بينا أنت رب تريد أن تكون مربوباً، وبينا أنت تُعبد تريد أن تَعبد؟ فقلبه عن رأيه حتى أهلكهما الله سبحانه[1]، ولكن في قضية قوم أنطاكية اهتدى الملك ورعيتة فاهلك الله المعاندين منهم.

وربما يرد سؤال آخر و هو أنّ الآيات ابتدأت بذكر أنطاكية بعنوان قرية؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ**﴾[2] ولكن في قضية حبيب النجار قال: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى**﴾[3] فلماذا اختلف التعبير من القرية إلى المدينة؟

والجواب: أن القرية أول مجيء الرسل وهم أول من استقبلهم حبيب؛ لأنه كان في أطراف المدينة يرعى غنمه، والقرى تقع في أطراف المدن، وأما الحوار و القتل فحدث في مركز المدينة.

---

(١) انظر زبدة البيان: ص٣٥١؛ البحار: ج١٣، ص٩٣؛ مجمع البيان: ج٧، ص٢٤؛ مقتنيات الدرر: ج٧، ص٨٧ تفسير الآية ٤٣ ـ ٤٤ من سورة طه.

(٢) سورة يس: الآية ١٣.

(٣) سورة يس: الآية ٢٠.

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ
بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِنَ السَّماءِ
وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ

يس/ ٢٨

ما هي صيحة جبرئيل؟

وقد جاءت في سياق الآيات السابقة لبيان ثلاثة أمور:

الأول: أن الله سبحانه انتقم من القوم الذين عاندوه وقتلوا وليّه.

الثاني: إظهار وجه آخر لكرامة حبيب عند الله؛ إذ لم يمهل قاتليه ولم يؤجل عذابهم، ولم يكتف بالعذاب المادي، بل عذبهم بالعذاب المعنوي؛ إذ منعهم من إرسال الهداة والمرشدين، فإن من أقسى العذاب الذي يصيب الأقوام فقدان المصلحين الذين يهدونهم إلى مصالحهم.

والثالث: لبيان قلة شأن القوم عند ربه تبارك وتعالى، فإنهم استهانوا بحبيب وقللوا من شأنه فقتلوه، ولهذا جاءهم العذاب فجأة من دون توسيط ملائكة للعذاب ولا للنصرة، بل أفناهم كما تفني الريح التراب لضعفه وهوانه، فإن هذا من مواطن الذل والهوان.

وتفصيل البحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

المفردة الأولى: ﴿وَمَا﴾

الواو استئنافية تؤسس لبيان آخر يغاير البيان السابق، وتتضمن التفريع في المعنى لبيان ترتب الجزاء على العمل.

واتفق المفسِّرون على أنّ ﴿ما﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ نافية، ومعناها لم تنزل.

المفردة الثانية: ﴿جُندٍ﴾

وهو جمع ويطلق على معنيين هما العسكر والأنصار والأعوان[(١)]، والأول يفيد النصرة المادية، أما الثاني فأعم لشموله للنصرة المعنوية وهو الأنسب بمدلول الآية وغرضها، فيشمل كل نصرة إلهية سواء تمثلت بالملائكة كما نصر الله سبحانه نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله بملائكة مردفين في يوم بدر والخندق. قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[(٢)] والجنود الأولى العسكر والثانية الملائكة،

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٢١، (جند)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٤٠، (جند).

(٢) سورة الأحزاب: ٩.

أو تمثلت بشدة البأس والهمة وقوة القلوب أو التوفيقات التي ينصر بها أولياءه بإيصالهم إلى غاياتهم، أو بإيقاع الرعب في قلوب الأعداء ونحو ذلك مما يوجب النصرة والغلبة، ولكن الآية تتحدث عن العقوبة والانتقام لا النصرة، فتفيد أن الباري عز وجل أذن بإهلاك القوم وأشار إلى أن إهلاكهم سهل يسير لا يحتاج إلى معونة ونصرة، وإنما تكفيهم صيحة واحدة تفنيهم، وهو ما حصل.

وإنما خصص السماء بالذكر مع أن جنود الله كثيرة ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**﴾[1] للإشارة إلى أن الأمر الإلهي ينزل من جهة العلو، أو أن الملائكة هي التي تأتي بأمره سبحانه وتنفذه؛ لأنها المدبرات لأمره، فكل الأسباب التي توجب النصرة التي ذكرناها والأسباب التي توجب العقوبة تأتي بها الملائكة وتنفذها، فهي جنود الله سبحانه، وقد ملأت السموات والأرض، ولا يمكن عدها وأحصاؤها، وقد ورد: أن بني آدم عشر الجن، والجن وبني آدم عشر حيوانات البحور، وكلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين فيها، وكل هؤلاء عشر ملائكة سماء الدنيا، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية، وعلى هذا الترتيب ثم الكل في مقابلة ملائكة الكرسي قليل، ثم كل هؤلاء عشر ملائكة سرادق من سرادق العرش التي عددها ستمائة ألف سرادق، وعرضه وسمكه إذا قوبل بالسموات والأرضين وما فيهما وما بينهما فإنه يكون شيئاً يسيراً وقدراً صغيراً، وما موضع قدم إلّا

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

وفيه ملك راكع أو ساجد أو قائم. لهم زجل بالتسبيح والتقديس، ثم هؤلاء في مقابلة الملائكة الذين يحومون حول العرش كالقطرة في البحر لا يعرف عددهم إلّا الله، ثم هؤلاء مع ملائكة اللوح الذين هم اشياع إسرافيل والملائكة الذين هم جنود جبرئيل عليه السلام قليل، سبحانه ما أعظم شأنه، فما يعلم جنود ربك إلّا هو[(١)].

المفردة الثالثة: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾

اختلفوا في أنّ ﴿ما﴾ فيها موصولة أو نافية أيضاً على قولين[(٢)].

وعلى الأول يكون مفاد الآية أنه سبحانه لم ينزل ملائكة على أهل أنطاكية لنصرة حبيب أو لإهلاك قومه كما أنزلنا على السابقين من قبل ذلك في أمم خلت، والمنزل هو آيات العذاب كالحجارة والريح والأمطار، أو الرسالة من السماء، وسنأتي إليه.

وعلى الثاني تفيد عدم الإنزال لا على أهل أنطاكية ولا على الذين من قبلهم ولا بعدهم؛ لأن النفي لكان التامة يفيد التأبيد، والثاني أقوى ظهوراً وأوفق بسياق الآية وموافق لمضامين الأدلة.

---

(١) مجمع البحرين: ج١، ص٤٠٩، (جند)؛ وانظر البحار: ج٥٤، ص٤١٨، أقوال؛ ج٥٦، ص٢٤١؛ تفسير الرازي: ج٢، ص١٦١، المسألة الرابعة؛ تفسير أبي السعود: ج١، ص٨٠.

(٢) بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥٢.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: الجهل بنعمة رجال الله

تضمن منطوق الآية ما يجمع المتضادين في البيان، وهو من لطف التعبير وجماله، ويدل على صحة استعمال اللفظ في أكثر من معنى الذي نفاه بعض الأصوليين.

وبيان ذلك: أن القوم تصوروا أنهم بقتل حبيب النجار انتصروا وحققوا الغلبة، ولم يعلموا أن مادبروه صار سبباً لهلاكهم وعذابهم من جهتين:

الجهة الأولى: الحرمان من النبوات والرسالات السماوية، فلم يأتهم من بعد جريمتهم وعنادهم رسول ولا ملائكة؛ لأنهم فقدوا اللياقة والتأهيل لإرسال الرسل[1]، ولازم الحرمان من الرسل ذهاب الخيرات والبركات منهم، وتحولهم إلى مجتمع تعيس بئيس؛ لأن وجود الأنبياء والأولياء بين الناس منشأ الخير والسعادة من ناحية وجودهم التكويني؛ لأنهم وسائط

(١) انظر تفسير عقود المرجان: ج٤، ص١٧٩.

الفيض والرحمة الإلهية، ووجودهم التعليمي والإرشادي؛ لأنهم يكملون العقول والنفوس، ويهذّبون الطباع والأخلاق، فيكون المجتمع أكثر صلاحاً وأمناً وسعادة.

هذه الحقيقة قد لايلتفت إليها بعض الناس، أو لا يدركونها، لكنها حقيقة موجودة لا يدركونها إلّا بعد الحرمان منها؛ لأن الأشياء تعرف بالأضداد، وهذا شأن الإنسان أنه يغفل عن النعمة مادامت بين يديه، فإذا حرم منها التفت إلى أنه في أي نعمة كان؛ لذا ورد في الأحاديث الشريفة نعمتان مجهولتان الصحة والأمان[١]، ولكن الناس لا يلتفتون إليهما إلّا بعد فقدانهما، وهكذا في العلاقات الإنسانية بين الزوجين والآباء والأبناء، ووجود العلماء والصالحين في الأمة، فإنه في الغالب يغفل عن نعمة وجودهم، ولكن إذا فقدوهم عرفوا الخسارة التي خسروها، والتضييع الذي وقعوا فيه، ولما كانت بينهم لا يعرفونها ولا يستفيدون منها كما ينبغي، وربما أذوها وظلموها، ولكن إذا فقدوها عرفوا قدرها، وإلى هذا يشير قول أبي فراس:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر[٢]

---

(١) التحفة السنية: ص٦٧؛ روضة الواعظين: ص٤٧٢؛ مسند الإمام الرضا عليه السلام: ص١٢٠.

(٢) الغدير: ج٣، ص٤٠٨؛ الوافي بالوفيات: ج٩، ص١٩٣.

وهذه حقيقة، فإنّ الناس عادة لا يلتفتون إلى النعم إلّا بعد فقدانها، خصوصاً النعم الحاصله بوجود رجال الله والعلماء والصالحين بين أظهرهم.

الجهة الثانية: نزول العذاب والهلاك عليهم، فبعملهم وعنادهم حرموا أنفسهم من الحياتين المادية والمعنوية، فظلوا على الشرك، وقتلوا العلم والمعرفة فيهم بمحاربة الرسل وقتل حبيب، وهذا موت معنوي عظيم، وأنزلوا العذاب عليهم فماتوا بالعذاب الإلهي، فإذا هم في لحظة خامدون.

ولذا ورد في بعض الأخبار النبوية تسمية أنطاكية من مدن النار إما من جهة نزول العذاب بها أو من جهة أنها من مواضع النار البرزخية أو الأخروية[١].

اللطيفةالثانية: أن الجند من السماء فيه احتمالان:

الأول: كل قوة إلهية تتنزل من السماء فتشمل ألوان العذاب كالريح والمطر والحجر.

الثاني: ملائكة العذاب، ولكل من الاحتمالين قائل من المفسرين، ولا تنافي بين المعنيين؛ لأن الملائكة هي التي تدبر شؤون العالم بإذن الله تعالى؛ إذ قال سبحانه: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً**﴾[٢] و هي على أصح الأقوال الملائكة، فألوان العذاب تنزل بأمر الملائكة أو بإنزالها له[٣].

---

(١) انظر تفسير نفحات الرحمن : ج٥، ص٢٦٤.

(٢) سورة النازعات: الآية ٥.

(٣) ذكر المفسرون بعض المعاني الأخرى للمدبرات كلها ترجع إلى ماذكرنا.

لكن الآية نصت على أنهم لحقارتهم وقلة شأنهم وضعفهم وعجزهم لايحتاج إهلاكهم إلى إنزال قوة عظيمة من الملائكة تكون كالجند الذين هم مظهر القوة والنظم، بل يكفيهم صيحة واحدة تنهيهم وتبيدهم.

اللطيفة الثالثة: قوله: ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ**﴾[١] ومرجع الضمير هو حبيب النجار، أي بعد أن قتلوه على أصح القولين أو رفعوه، وإفراد الضمير شاهد على أن الأنبياء الذين نصرهم ودافع عنهم لم يقتلوا، فما ذكره بعض المفسرين من القول بقتلهم غير سديد.

(١) سورة يس: الآية ٢٨.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: أنّ وجود الأخيار والصالحين بين الناس أمان لهم من الابتلاءات والآفات المهلكة.

التعليم الثاني: أنّ العذاب ينزل بعد تمام الحجة ومعاندتها والتكبر عليها؛ لسقوط العذر، وهذا القانون يجري على الأمم والجماعات كما يجري على الأفراد، فإذا تمت الحجة سقط العذر، فالمخالفة تكشف عن التجبر والطغيان، وهمافرديان كانا أو جماعيان يوجبان نزول العذاب؛ لأنهما بمنزلة الحرب مع الله سبحانه.

التعليم الثالث: هكذا يقتلون رجال الله

إن قتل الأنبياء و الأولياء والصالحين نوعان:

قتل الأشخاص وهو ظاهر، وقتل شخصياتهم بتشويه مكانتها أو تضعيفها في النفوس، أو بقتل مبادئهم ومناهجهم وإهمال شرائعهم وأحكامهم وهذا القتل أشد من الأول، وهو أعظم عند الله سبحانه، فإن الأنبياء والأولياء وإن كانوا أفضل خلق الله سبحانه إلّا أنه سبحانه جعلهم ضحايا لدينه وشريعته، فضحوا بأنفسهم لأجل دين الله، فإذا تجاوز الناس

على دين الله وشريعته فإنهم وإن لم يقتلوا النبي شخصاً ولكنهم قتلوا شخصيته، وهذا ما يعيشهُ العالم اليوم، فإنهم لم يقتلوا الأنبياء ولكن يقتلون رسالاتهم في كل قانون باطل وسياسة ظالمة وحروب طاحنة وفساد في الأفكار والأخلاق، فلا العالم المسيحي يعمل بتعاليم السيد المسيح، ولا اليهودي بتعليم موسى عليه السلام ولا العالم الإسلامي بتعليم رسول الله صلى الله عليه وآله. كل أمة تقتل نبيها كل يوم بشكل جماعي مقنن أو بشكل أفراد وهم لا يشعرون، فحينما يسن قانون يبيح شرب المسكرات ويرخص لمجالس اللهو والمصارف تقوم على التعامل بالربا وقد حرمها النبي والقرآن يكون هذا قتلاً لشخصية النبي صلى الله عليه وآله، وحينما الفرد المؤمن يفعل المنكرات ويترك الصلاة والصيام هو يقتل شخصية النبي وهو لا يعلم، فالمسألة خطيرة، ولذا يشكو النبي المصطفى صلوات الله عليه يوم القيامة إلى ربه و يقول: ﴿**يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا القرآن مَهْجُوراً**﴾(١) والهجر هو قطع الصلة والرفض(٢)، والقرآن له معنيان:

الأول: الكتاب الكريم وقد هجرته الأمة، فلم تأخذ بأحكامه وحدوده وتعاليمه، والواقع الخارجي لسلوك المسلمين وقوانينهم وأنظمتهم الحاكمة في كل جوانب حياتهم شاهدة على أنها هجرت كتاب الله، وأخذت من الغرب و الشرق وعقولهم القاصرة.

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٥١٧، (هجر).

الثاني: الكتاب الناطق، وهو أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ تضافر عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: ﴿علي مع القرآن، والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض﴾(١) إلّا أن نسبة كبيرة من الأمة هجرته ولم تتبعه ولم تأخذ منه، بل فضلت غيره عليه.

فماذا يعني هذا؟ يعني أن الأمة التي نسبها النبي المصطفى صلى الله عليه وآله لنفسه وقال: (قومي) إن لم تقتل النبي جسداً قتلته ولازالت تقتله روحاً وشخصية تارة بتشويه صورته ونقل قضايا لا تليق به، كما ورد في روايات العامة الشيء الكثير منها(٢)، وتارة بتشويه نهجه بممارسة الظلم والفساد والقتل باسمه، وتارة بمخالفة شريعته، وهذه الحقيقة المرّة في الأمة المسلمة، وفي الأمة المسيحية واليهودية حيث يقتلون موسى وعيسى كل يوم تنذر بنزول العذاب، ويكفي شاهداً على وجود هذا العذاب الخوف والفقر والأمراض والحروب التي تعصف بالعالم من جهة، والزلازل والسيول وغيرها من الوقائع التي تحدث بين آونة وأخرى وتهلك الحرث والنسل.

---

(١) انظر البحار: ج٣٨، ص٣٥؛ الأمالي (للطوسي): ص٤٦٠، ح١٠٢٨؛ الاحتجاج: ج١، ص٢١٦؛ الطرائف: ص١٠٣.

(٢) وضوء النبي صلى الله عليه وآله: ج١، ص٢٢٤؛ وانظر كشاف القناع: ج٤، ص٥٨؛ أحاديث أم المؤمنين عائشة: ج٢، ص٢١٧.

كيف هجروا القرآن؟

والنكتة العجيبة في الآية أنه صلوات الله عليه يقول: ﴿**اتَّخَذُوا هذَا القرآن مَهْجُوراً**﴾[1] ولم يقل (سيتخذون) ومعنى ذلك أنهم في حياته هجروا القرآن، فكيف يا ترى هجروه هل هجروه في القراءة؟ أم هجروه في الحفظ؟ أم هجروه في العمل؟ كما أن قوله ظاهر في الشكوى، وسيستمر هذا الهجران في الأجيال والأزمنة في الدنيا، وليس سيشكو ذلك في الآخرة، وقد يقال إن هجران القرآن في القراءة أو الحفظ غير محقق ولو في الجملة؛ لأنهم يقرؤون القرآن في صلاتهم وفي مجالسهم، والواقع يشهد بأنهم هجروه في العمل؛ إذ لا تجد في الأمة المسلمة من يعمل بأحكام القرآن وحدوده إلّا القليل النادر وإذا عمل البعض يؤوله حسب ما هو يريد ويحب، وهذا على صعيد الأفراد.

وأما على صعيد المجتمع في السياسة والاقتصاد ومناهج التعليم والإعلام والثقافة العامة فهناك هجران تام، والشواهد على وقوع هذا الهجران منذ حياة النبي صلى الله عليه وآله كثيرة جداً، ويكفي شاهداً بيّناً لا يخفى على أحد هو إعراض الأمه عن إمامة علي عليه السلام وخلافته حتى إنه صلوات الله عليه كان يريد أن يبلِّغ ذلك ويتردد حذراً من الأقاويل والتمرد حتى كفل له الباري عزّ وجل العصمة من كلام الناس ومواقفهم، وأشار إلى أن عدم

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

تبليغ الأمر يضاهي عدم تبليغ الرسالة برمتها؛ لأن الإمامة والخلافة علة بقاء الرسالة وحفظها، فقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[١].

وقد تضافرت الأخبار بل تواتر بطرق الفريقين أنها نزلت في قضية الغدير وتنصيب أمير المؤمنينعليه السلام إماماً وخليفة على الناس[٢]، وهناك آيات كثيرة في القرآن تدل على ذلك، إلّا أن الأمة لم تستمع ولم تعمل وأولّت تلك الآيات بتأويلات منافية للعقل والمنطق الصحيح عناداً[٣]، ومثل هذا العناد لابد وأن يكون وراءه عذاب، وهذا العذاب لا يستأصل الناس؛ لأن الأمة ببركة الإسلام ورسوله مأمونة من عذاب الاستئصال، لكن عذاب العناد والغفلة والجهل ونصرة الباطل وخذلان الحق موجود ومستمر، وهذا ناشئ من أمرين:

أحدهما: السنة الإلهية في ان العناد والمكابرة فيهما عقوبة إلهية.

وثانيهما: دعاء النبيصلى الله عليه وآله؛ إذ دعا بعد تنصيب أمير المؤمنينعليه السلام قال: ﴿اللهم انصر من نصره، واخذل من خذله﴾[٤].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٢) انظر غاية المرام: ص٣٣٤ ـ ٣٣٥؛ الغدير: ج١ ، ص٢١٤-٢٢٣.

(٣) انظر نهج الحق: ص١٧٢ وما بعدها.

(٤) تفسير الإمام الحسن العسكريعليه السلام: ص١١٢؛ البحار: ج٣٧، ص١٤٩، أقوال؛ تفسير أبي حمزة الثمالي: ص٢٠٠.

فالخذلان لحجة الله يقابل بالخذلان، والاستهانه بأحكام الله ورسوله مصيره الاستهانة من قبل باقي الأمم، وهذه قاعدة وليست قضية نقولها للعبرة فقط.

وقد تواتر هذا المعنى في الآيات و الروايات، ويدل عليه العقل، وتفصيله في علم الكلام.

إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ

يس/ ٢٩

تفيد الآية أن عذابهم الذي أفناهم كان بصيحة واحدة وهي رفع الصوت[1]، والبحث فيها يقع في مباحث:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٩٦، (صاح).

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿إِن كَانَتْ﴾

إن نافية ومفادها ما كانت الأخذة أو العقوبة إلّا صيحة[١]، وقد عبر عن العقوبة بالصيحة من باب تسمية المسبب باسم سببه؛ لبيان التلازم الفوري بين حصول الصيحة وهلاكهم و: ﴿كَانَتْ﴾ تفيد تحقق الوقوع وعدم تأخره أو تراخيه.

المفردة الثانية: ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾

ذكر أنهم لما قتلوا حبيباً النجار غضب الله عليهم فبعث جبرئيل حتى أخذ بعضادتي باب للمدينة ثم صاح عليهم صيحة فماتوا عن آخرهم خموداً كالنار إذا انطفأت[٢]، وفي ذلك دلالة على سهولة الانتقام وسرعته وشدته.

---

(١) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥٢.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٠.

والسؤال: ما هي الصيحة التي صاحها جبرئيل؟ هل هي صوت مخيف مفزع نظير الصوت الذي يطلقه اسرافيل فيفزع الناس ويموتون في آخر العالم؟ أم هو كلام يقوله ويردده فيه إخبار أو ذكر وثناء ودعاء، وبه يكون سبب هلاكهم؟ أم هو يهيج عليهم السحب فترعد رعداً فيه صعق فيموتون؟ أم يهيج عليهم الأرض فيهلكون بصوت زلزالها؟ احتمالات، والثالث والرابع ذكره بعض المفسرين[١]، وأكثرهم سكتوا عن حقيقتها، إلّا أن الروايات الواردة من الأئمة عليهم السلام تدل على وجود عدة صيحات بعضها وقع وبعضها سيقع ويستفاد منها أن الصيحة على قسمين: صيحة العذاب تأتي لإهلاك المعاندين والظالمين، وهذه تقع بالصوت المرعب، وصيحة الرحمة وتقع لتعليم الناس أو تبشيرهم بالفرج وإظهار الحق، وتتحقق بالكلام المرتفع الذي فيه بشارة وتعليم، نظير صيحة جبرئيل لما برز الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لعمرو بن ود وقد سمعها الناس. حيث قال: ﴿لافتى إلّا علي، ولاسيف إلّا ذو الفقار﴾[٢] وبه يثبت فضل الإمام عليه السلام ومقامه عند الله سبحانه ليكون حجة على الناس أجمعين، وهناك صيحة ثانية صاحها لما جرح الإمام في محراب صلاته فنادى في السموات: ﴿تهدمت – والله – أركان الهدى، وانفصمت العروة الوثقى، قتل علي

---

(١) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٢٣.

(٢) شرح الأخبار: ج٢، ص٣٨١، ح٧٣٩؛ مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ج٢، ص٥٣٦، ح١٠٣٧؛ مرآة العقول: ج٢٥، ص٢٦٧-٢٦٨.

المرتضى﴾[١] وتضمنت غاية أخرى وهي الإشارة إلى عظمة المصيبة وأثرها في السموات والأرض، وهناك صيحة ثالثة سيصيحها لدى ظهور خاتم الأوصياء في آخر الزمان يعلن بها بداية عصر الظهور، وفي الأخبار أنه ينادي بصوت طلق تسمعه الخلائق ﴿**أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾[٢] ويصيح صائح آخر بلسان عربي يسمعه من في السموات والأرضين: يا معشر الخلائق! هذا مهدي آل محمد -ويسمّيه باسم جده رسول الله ﷺ، ويكنيه وينسبه إلى أبيه الحسن العسكري عليه السلام- بايعوه ولا تخالفوا أمره، فتبايعه الملائكة أولاً، ثم نجباء الجن ثم النقباء[٣] وهكذا، ولكل ذلك حكم ومصالح لسنا بصددها.

وهذه الصيحة لها أثران: أثر للمؤمنين فيه دلالة على النصر والغلبة للمؤمنين، وأثر للمخالفين فيه دلالة على شقائهم وهلاكهم، وهذه صيحات رحمة تقترن بالكلام المبين الذي يفهمه الكل.

وأما صيحة جبرئيل في أنطاكية ففيها نجاة للأنبياء والتابعين لهم، وهلاك للذين خالفوهم وقتلوا حبيباً النجار، وظاهر الصيحة الصوت الصادر وليس من السحاب أو الزلزلة، بل هي صيحه يطلقها جبرئيل تحرق القلوب والنفوس فيخمدون بلا حس ولا حراك.

---

(١) انظر البحار: ج٤٢، ص١٨٩، ح١٣٣؛ الأنوار العلوية: ص٣٧٧.

(٢) سورة النحل: الآية ١.

(٣) انظر مختصر البصائر: ص١٨٤؛ شجرة طوبى: ص١٧٧.

وصيحة العذاب لا تكون بالكلام؛ لأنها مهلكة فلا يراد بها إفهام الموتى وتعليمهم، بخلاف صيحة الرحمة فإن المقصود بها إفهام الأحياء وإتمام الحجة عليهم.

المفردة الثالثة: ﴿خَامِدُونَ﴾

أي ميتون بموت مفاجئ يدع حراكهم سكوناً وحرارتهم برودة، وضجيجهم سكوتاً، وهو وصف للنار إذا أطفئت وبقي رمادها، فقوله سبحانه: ﴿خَامِدُونَ﴾ أي ساكنون قد ماتوا وصاروا بمنزلة الرماد الخامد[1]، وقد وصف موتهم بالخمود ولم يصفه (بالهلكة أو الموت مثلاً) أو (الهمود) لوجود نكته وهي أن الخمود يطلق على النار إذا سكن لهبها ولم يطفأ جمرها، بينما همدت يطلق عليها إذا طفئ جمرها[2]، والآية وصفت موتهم بالخمود لا الهمود لأسباب:

الأول: للإشارة إلى أن هؤلاء بعد موتهم يحترقون بنار البرزخ، وهذا ما تؤكده الرواية النبوية التي جعلت أنطاكية من مدن النار الأربعة، وبذلك يُعرف أن التعبير بالموت والهلاك لا يفي بالمعنى المقصود؛ لأنهما أعم، بخلاف الخمود.

---

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص٢٥٥، (خمد).

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٥، (خمد)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٣١١، (خمد)، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩٨، (خمد).

الثاني: لبيان أنهم كانوا كالنار الملتهبة بالشهوة والغضب. أما الشهوة فلأجل حبهم للدنيا وحرصهم الشديد على مصالحهم اللذين دعاهما إلى المكابرة وعدم الإيمان، وأما الغضب فلأن قلوبهم كانت تغلي بالحقد على الأنبياء وحبيب النجار؛ لذا هددوهم بالعذاب الأليم، وقتلوا حبيباً بقتلة قاسية.

والشهوة والغضب يشعلان داخل الإنسان ويصيرانه كالنار الملتهبة، فإذا جاءه الموت في هذه الحال يكون كالنار التي يلقى عليها ماء أو تراب فيخمدها وهكذا أهلك الباري القوم.

الثالث: لأن الكفر نار حقيقية كامنة في النفوس والقلوب والعقول في الحال بلحاظ المبدأ والصفة وفي الاستقبال بلحاظ الجزاء، فإن جوهر الكفر نار، والكفرة تحيطهم النار، وهي تلهب فيهم وإن لا يدركونها بسبب وجود الموانع، فإذا ماتوا يسكن لهبها والناس يستريحون من لهب كفرهم وأذاهم.

في مقابل الإيمان فإنّه نور، والمؤمنون يعيشون في النور والناس يستفيدون منهم ويستضيئون بهم، فإذا ماتوا يشعر الناس بالظلمة، وربما تاهوا وضلوا لاسيما العلماء والصالحين.

ولعل السبب في هلاكهم بالصيحة دون غيرها هو أن الصيحة تصيبهم بالفزع والرعب النفسي أولاً فتميتهم من الخوف، وهذا ماتقتضيه قاعدة المسانخة بين العمل والجزاء، فإن هؤلاء كان العناد والمكابرة طبيعتهم، ونفوسهم مشحونة بالحقد والغضب فكان الأنسب أن يهلكوا أولاً من داخلهم، وذلك يتم بالصيحة، أو لأنه جزاء سد أسماعهم وعدم استماعهم لعظة حبيب النجار والأنبياء استحقوا العقاب من ذات السببين اللذين امتنعوا بهما عن الإيمان.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: أن الآية دلت على هلاك أهل مدينة أنطاكية؛ لأنهم قتلواً رجلاً واحداً من أوليائه فانتقم منهم، وجعل مدينتهم من مدن النار، فلا ينبغي أن يستغرب إذا أهلك الباري الذين قتلوا الحسين عليه السلام وأخوته وأصحابه وهو أعظم من حبيب النجار، وعاقب من قتله أو شارك في قتله بيد أو لسان بالقتل(1)، كما عاقب الأمة التي خذلته بالحيرة والضلالة الدائمة كما وردت به الأخبار المعتبرة(2)، والذي يقرأ التأريخ ويتتبع أحداثه وينظر إلى الوقائع بعين العبرة والعظة يجد هذا ماثلاً عنده، ويتيقن بأنّ بعض ما تعانيه الأمة من عذاب على مختلف الصعد يعود إلى ذلك، فما لم تصح الأمة وتعتبر وتعود إلى رشدها فلا خلاص لها ولانجاة، وهذه الحقيقة أشارت لها الآية المباركة، ولازالت الوقائع تتكرر بقتل الصالحين والعلماء الربانيين بأشخاصهم أو شخصياتهم فيدل على استمرار العذاب.

---

(1) انظر البحار: ج٤٥، ص٣٠٠، فما بعدها.

(2) انظر الأمالي (للصدوق): ص٢٣٢، ح٢٤٤؛ الكافي: ج٤، ص١٧٠، ح٣؛ الفقيه: ج٢، ص١٧٥، ح١٠٥٩.

اللطيفة الثانية: لماذا تهلك أمة لأجل رجل؟

وقد يقال هل يعقل أن يهلك الباري عز وجل جماعة كثيرة لأجل شخص واحد؟

الجواب: نعم.

أولاً: لأن القيمة عند الله ليس للعدد بل للنوع، وقيمة الرجال بكمالاتها ومقاماتها، ورب شخص واحد يعادل أمة بكاملها؛ لأنه يجمع كل خصالها الكمالية.

وثانياً: لأنّ القوم لماقتلوا حبيباً لم يتصد أحد للمنع عنه، ولو كان فيهم من تصدى ودافع عنه أو منع من قتله لما نزل بهم العذاب، ولكن حيث لم يفعلوا استحقوا العذاب الشامل فلم يبق له من مدافع إلّا الله سبحانه، وهو يقول سبحانه دفاعاً عن الذين آمنوا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ**﴾(١).

ودفاع الله سبحانه ناشئ من نقمته وقوته وعظمته فيكون مهلكا؛ ونقمته وعذابه لا تقوم لهما السموات و الأرض، وفي ذلك دلالة على أن الناس هم سبب العذاب، وأن ذلك من مقتضى العدل؛ لأن بعضهم يقتل وبعضهم يتفرج ولم يدافع ولاينصر فيكون مشاركاً للقاتل بالموقف.

---

(١) سورة الحج: الآية ٣٨.

اللطيفة الثالثة: أن الآية المباركة دلت على أن انتقام الباري عز وجل وعذابه اتسم بمزايا وهي:

الفجأة والسرعة والشدة والشمول، وقد ذكروا أن الصيحة وقعت في اليوم الذي قتلوه، وقيل في اليوم الثالث من قتله، وقيل في الساعة التي عادوا فيها من قتله إلى منازلهم مستبشرين فرحين[1]، وإطلاق قوله: ﴿**مِن بَعْدِهِ**﴾ يحتمل الجميع، لكن فاء الترتيب وإذا الفجائية في قوله تعالى: ﴿**إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾[2] تدل على اقتران الهلاك بالصيحة دون فاصلة، فالصيحة هي التي أهلكتهم.

اللطيفة الرابعة: قد يقال أن الباري عز وجل قال: ﴿**وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ**﴾[3] أي ملائكة، ومعناه أنه سبحانه لا ينزل ملائكة لأجل نصرة أوليائة ولا هلاك أعدائه، فكيف أنزل للنبي والمسلمين ملائكة لتنصرهم في يوم بدر؟

والجواب: من وجهين:

الوجه الأول: أنه نفى النزول في الماضي ونفى النزول على قوم حبيب ولم ينفِ النزول في المستقبل.

---

(١) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٦٣، روح البيان: ج٧، ص٣٨٩.

(٢) سورة يس: الآية ٢٩.

(٣) سورة يس: الآية ٢٨.

الوجه الثاني: أن الآية نفت نزول ملائكة للعذاب؛ لأن الباري عز وجل إذا أراد أن يهلك أمة يستحقر شأنهم فيكفيهم صيحة واحدة تهلكهم، وهذا هو الواقع، بل قال بعض المفسرين: إن تحريك ريشة واحدة من جناح ملك كافية لإهلاك العالم[1]، وأما ملائكة الرحمة والنصر والدفاع فيرسلهم لتعظيم المؤمنين وتثبيتهم، وهذا أمر تقتضية الحكمة والرحمة ولم تنفه الآية.

---

(١) مقتنيات الدرر: ج٩، ص٧٩؛ تفسير الرازي: ج٢٦، ص٦٢.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: أن الله سبحانه يدافع عن أوليائه سواء كانوا أنبياء أو صالحين أو علماء ربانيين، فإذا تصدى المجرمون لظلمهم وقتلهم وجب على الناس الدفاع عنهم ونصرتهم، فإن سكتوا كان من موجبات عذابهم، وربما يأتيهم فجأة ويفنيهم، فإن لم يفنهم بالصيحة يفنهم بالحرب والدمار والسيول والزلازل والأمراض الخطيرة ونحوها، وهذه كلها من مظاهر العذاب والنقمة.

وهذه القضية من الوعد الإلهي؛ لأنه وعد المؤمنين بالدفاع عنهم، وهو لا يخلف الميعاد.

فالناس كما هم مكلفون بالصلاة والصيام مكلفون بالمطالبة بحقوقهم، ومكلفون بالدفاع عن المظلومين والمحرومين، فإن لم يفعلوا ذلك وقع عليهم العذاب[1].

---

(١) انظر الآية ٧٥ من سورة النساء.

التعليم الثاني: وجوب الاعتماد على الله

إن الاتكال والاستناد في كل شيء يجب أن يكون على الله سبحانه، وهو القادر القاهر الوحيد في هذا الوجود. أما الاستناد إلى السلاح والجيوش والسلطة والمال والاعلام فهي قدرة زائفة تزول بأهون سبب، ولو كانت الأمة المسلمة وحكوماتها ودولها ترتبط بالله سبحانه وتوثق علاقتها به وتستند إلى قوته وقدرته لما احتاجوا إلى الارتباط بقوى الغرب والشرق أذلة، ولأنفقوا ثروات البلاد لأجل بناء مدارسه وجامعاته ومستشفياته وتنظيم مدنه وشوارعه لا لشراء الأسلحة وإرشاء ساسة الغرب والشرق وإرضائهم، أو شراء ذمم الإعلامين، فإن كل ما يدبر العالم ويجمع من قوى فإن صيحة واحدة تهلكه جميعاً، وقد مرت علينا أحداث طوفان تسونامي ولاحظ العالم ماذا صنع به من دمار، وقد لا حظنا أن قوة أنطاكية التي كانت مغرورة وتهدد وترجم وتعذب بصيحة واحدة فنيت، ولو وثق المسلمون شعوباً وحكومات بهذه الحقيقة وساروا على طريقها لاستطاعوا أن يكونوا أمة مستقلة عزيزة راقية.

التعليم الثالث: الصلاح بإتباع العلماء لا الساسة

إن الأمة المؤمنة بأفرادها وجماعاتها تكون آمنة مطمئنة وسعيدة إذا احترمت الصالحين وعلماءها الربانيين فاتبعت تعاليمهم وإرشاداتهم حتى يستطيعوا أن يصلحوا البلاد والعباد، ولو كانت الحكومات المخلصة بما فيها من نخب وساسة وإعلاميين يستنيرون بآراء المصلحين من علماء

ووجهاء لتمكنوا في مدة قريبة وبنفقات قليلة أن يصلحوا بلادهم، ولو اتبعت خصومها وهجرت مصلحيها وآذتهم وقتلتهم كأشخاص أو شخصيات تكون قد عجلت بعذابها.

يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم
مِن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِؤُونَ

يس/ ٣٠

تضمنت الآية المباركة إظهار اللطف والرحمة بعد النعمة ليشير إلى إن الأصل في سنن الله سبحانه الرحمة، والنقمة استثناء تقع بسبب العناد والمكابرة والتعدي على الأنبياء والرسل أشخاصاً أو شخصيات وتقصير الناس في الدفاع عنهم، ومن منطوق الآية تؤسس كبرى كلية مفادها:

أن الناس كلما جاء رسول يستهزئون به، وبهذا تشير إلى حقيقتين:

الأولى: أن جميع الرسل هتكت حرمتهم و لم يعرف الناس قدرهم فاستهزؤوا بهم، ومما يزيد عنادهم أن الناس كانوا يستهزئون بهم لا بأفكارهم أو مايدعون الناس إليه، فيدل على أن عداءهم وحقدهم كان عليهم أكثر.

الثانية: أن الآية قالت: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ**﴾ (من) جنسيَّة بقرينة تنكير (رسول) وهي للتكثير، فتفيد أن كل من يأتيهم وهو من جنس الرسل سواء كان نبياً أو ولياً أو هادياً مرشداً إلّا استهزؤوا به.

وصيغة المضارع تدل على استمرار هذه الظاهرة في كل جيل وزمان إلى أيام الناس هذه وما بعدها.

ومعرفة مفاد الآية ولطائفها وتعاليمها تقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأول: ﴿يَاحَسْرَةً﴾

الحسرة والتحسر على العباد بسبب استمرارهم على نهج الاستهزاء بالرسل، والحسرة هي أشد الندامة والاغتمام على ما فات ولا يمكن ارتجاعه[1]، ويصاحبها الغم لفوات فائدة، وتفترق عن الأسف لأنه اغتمام ملازم لغضب أو غيظ. يقال آسف للمغتم الغضبان على فوات الشيء.

وعلى هذا فإن الغم يلازم الحسرة والأسف، ولكن الحسرة تكون عن فوات النفع، وفي الأسف عن الغضب والحرقة[2]، وفي قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَـهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾[3] مثلوا للحسرة بالرجل يدع ماله لا يؤدي حقوق الله منه ولاينفقه في طاعته بخلاً ثم يموت فيدعه لمن ينتفع منه، فإن عمل فيه بطاعة الله رآه في ميزان غيره فرآه حسرة؛ لأن تعب جمعه

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٦٧، (حسر).

(٢) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٨٦، (٧٣٧).

(٣) سورة البقرة: الآية ١٦٧.

وادخاره كان عليه، ونفعه وصل لغيره، وإن عمل به في معصيته يكون قد قوّاه بذلك المال حتى عمل فيه بمعصية فيشاركه في الأثر[١].

والياء في قوله: ﴿يَاحَسْرَةً﴾ للغوث والندبة، وتضمنت النداء، وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿يَاحَسْرَةً﴾ ووجه الاختلاف يعود إلى أن المنادي المستغيث بقوله: ﴿يَاحَسْرَةً﴾ فإن كان الباري عزّ وجل فهو لا يليق بشأنه؛ لأنه سبحانه لا يندم على شيء، ولا يفوته شيء، وإن كان غيره فهو ينافي المنطوق، ومن هنا أوَّلَ المفسرون معنى الآية بتأويلات عديدة، وانقسموا على أقوال:

القول الأول: إن الآية في مقام الإخبار عن حالة العباد في الآخرة، وتخبر عن أنهم سوف يندمون بسبب استهزائهم بالرسل في الدنيا، وهو خلاف الظهور، وحمل المطلق على بعض مصاديقه بلا دليل استحسان باطل.

القول الثاني: إنها في مقام الإنشاء، ويراد بها الدعاء بالهلكة للمستهزئين، والمعنى ياويلاً لهم[٢]، وهو كسابقه، بل ظاهر الياء الندبة والنداء لا الدعاء.

القول الثالث: إنها نداء من الباري عز وجل للحسرة لتحضر في وقت الحساب؛ لأن في هذا الوقت يقضي الباري ويقدر لهم الهلكة والعذاب، ولو علموا به لندموا على ما فعلوا، وعليه يحمل النداء من باب إظهار أثر

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٦٧، (حسر).

(٢) البيان: ج٨، ص٣٤٤؛ تفسير عقود المرجان: ج٤، ص١٨٠.

الحسرة والندامة عليهم من باب خذ الغايات واترك المبادئ، نظير الرضا والغضب، فإنه سبحانه ليس محلاً للحوادث، والمراد إظهار أثر الرضا وأثر الغضب[١]، و هو لا بأس به، إلّا أنه يستدعي حمل اللفظ على المعنى المجازي، ولا يصار إليه إلّا إذا تعذر الحمل على المعنى الحقيقي وهو ممكن، ومن المفسرين من ذهب إلى أنّ القائل هو الباري عز وجل عن لسان حبيب النجار[٢]، وبعضهم قال: إن القائل هم القوم الهالكون من بعد أن أخمدتهم الصيحة ودخلوا البرزخ وعاينوا العذاب وأدركوا الحقيقة أظهروا ندمهم على تعذيبهم للرسل وعدم إيمانهم بهم، ولم تنفعهم الندامة[٣]، وهي كسابقاتها مخالفة للظهور، وتفتقر إلى دليل.

وهناك قول آخر هو أن الذين يتحسرون هم أهل المستهزئين الهالكين وأحبابهم حينما يرونهم هلكوا في العذاب؛ لأنهم هلكوا ولم يتداركوا أنفسهم بالإيمان فيتحسروا عليهم[٤]، وهو أيضاً يفتقر إلى الدليل، وهناك أقوال أخرى محتملة لا تهم ولا تضر بأصل المعنى؛ لأن الغاية هو بيان حقيقة، وهي الكبرى الكلية التي أفادت أن الناس ظلموا الرسل وآذوهم واستهزؤوا بهم، أي هم حرموا أنفسهم من نعمة الرسل، وساقوا أنفسهم

---

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٤٦.

(٢) البيان: ج٨، ص٣٤٤.

(٣) تفسير عقود المرجان: ج٤، ص١٨٠.

(٤) مقتنيات الدرر: ج٩، ص٨٠؛ تفسير عقود المرجان: ج٤، ص١٨٠؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢١٣.

للعذاب، وسوف يتحسرون على ما ضيّعوا على أنفسهم ولا تنفعهم الحسرة، ويتحسر عليهم أحباؤهم وأهلهم الصالحون؛ لأنهم حرموا من نعيم الله وفضله، وكل هذه الأقوال لا تنسجم مع قوله: ﴿**عَلَى الْعِبَادِ**﴾ الظاهر في أنّه قول لله سبحانه الباري عز وجل.

وتوضيح ذلك: ربما نقول إن الآية جملة خبرية كاشفة عن واقع الحال كما أن العقل والنقل توافقا على أن الباري عز وجل خلق العباد لأجل أن يرحمهم وينعمهم ويكملهم، ولما خلقهم واستدعاهم إلى الوجود معناه أنه يتكفل برزقهم؛ لأن من يستدعي أحداً ضيفاً لابد أن يعوله، و لا يعقل للباري أن يتكفل بغذاء أبدان عباده ولا يتكفل بغذاء أرواحهم، ولكن الفارق أنه سبحانه ضمن الرزق لعبادهِ، وأما الإيمان والعقيدة الصحيحة أوكلها لاختيارهم؛ لأجل أن يتم بها اختبارهم.

وجعل القيمة الحقيقية للإنسان بأفكاره ومعتقداته لا بطعامه وشرابه ولباسه، وأرسل له الرسل ليعلّموه كيف يكون عبداً لله ويكتمل في عقله وإنسانيته لأجل أن يعيش منعماً، فإذا خرج الإنسان عن هذا النهج القويم استدعى ملازمته للحسرة؛ لأنه يفوت مصلحته ونعمته بيده، وبهذا يكون قد وقع في واقع الحسرة والندامة، والباري يخبر عنها بقوله: ﴿**يَاحَسْرَةً**﴾ إخبار من الله عن واقع حال المستهزئين، ولعل مما يشهد له ما ورد في تفسير الصافي عن الجوامع عن السجاد من القراءة على الإضافة إلى العباد أي (ياحسرة العباد) لاختصاصها بهم[1].

---

(١) تفسير الصافي: ج٤، ص٢٥٢.

والخلاصة: أنّ الباري حيث كفل للبشر غذاءهم الجسدي وأرسل إليهم الأنبياء والرسل ليكفلوا لهم غذاءهم الروحي ويعلموهم طريق السعادة والفلاح ومع ذلك يؤذونهم ويرفضونهم ويقتلونهم، فإن هذا الفعل من دواعي الأسف والحسرة عليهم؛ لأنهم يحفرون قبورهم بأيديهم، ويوقعون أنفسهم في الندامة والغم وسوء المصير.

والتحسّر يتضمن دلالتين:

الأولى: كشف مستوى التضييع والخسارة التي يقع بها البشر بسبب الاستهزاء بالرسل.

الثانية: أنّ الاستهزاء بالرسل أمر قبيح مذموم، وهو مبغوض لله سبحانه، وسيعاقب العباد عليه، وبهذا يتضح أن الآية تتضمن الإخبار عن واقع الحال بلا حاجة إلى تأويل ولا مخالفة لظهور المنطوق (والياء) لا يراد بها النداء وإنما إظهار الندبة على حالهم.

المفردة الثانية: ﴿الْعِبَادِ﴾

جمع عبد مأخوذ من العبادة وهي الانقياد والخضوع والذل وتطلق على البشر باعتبارين:

أحدهما: العبودية التكوينية وتشمل المؤمنين والكافرين؛ لأن الجميع خاضع لربوبية الباري عزّ وجل تكويناً.

وثانيهما: العبودية التشريعية وتختص بالمؤمنين، والآية المباركة ناظرة إلى الأول.

والملفت في الآية أنها وصفت الذين يستهزئون بالرسول بالعباد وذلك يدل على أن جميع الناس هكذا يفعلون؛ لأنهم جميعاً عباد الله، فالخارج منهم الذي لا يستهزئ هم القلة. هذا هو المنصرف والمتبادر أولاً إلى الأذهان، على أن العباد يطلق على الملائكة والإنس والجن بل كل مخلوقاته سبحانه[١] إلّا أن القرينة الداخلية مانعة من شموله للملائكة والمخلوقات الأخرى[٢] عدا الجن والإنس، فالقول بشموله للاثنين بلا مانع لو لا الانصراف، ولا يقال إن العباد تطلق على المؤمنين؛ لأنها مأخوذة من العبودية.

فالجواب: أن إرادة المؤمنين تستدعي التقييد بالإضافة نظير: ﴿**عِبَادُ الرَّحْمَنِ**﴾[٣] أو: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾[٤] وبها يتميزون عن غيرهم. أما إطلاق العباد فيشمل الكل. والاثبات بعد النفي أي قوله: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون**﴾ يفيد أمرين هما: تأكد وقوع الاستهزاء واستمراريته. ولهذا أثر سنتعرض له في التعاليم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٤٣، (عبد).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٣٥٠، (١١٤٠١).

(٣) سورة الزخرف: الآية ١٩.

(٤) سورة الحجر: الآية ٤٢؛ سورة الإسراء: الآية ٦٥.

المفردة الثالثة: ﴿رَّسُولٍ﴾

وهو كل مبعوث سواء كان عن الله سبحانه مباشرة أو بالواسطة كالمبعوث من رسول الله، أو المبعوث عن دينه وأحكامه كالعالم الذي يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، والتنكير في قوله ﴿رَّسُولٍ﴾ يشهد لذلك، وفي القرآن أطلق الرسول على الأنبياء والملائكة والمبلغين والمرشدين[١]، ولو أريد الاختصاص بالأنبياء أضيف إلى الله فيقال (رسول الله) ويأتي بألف ولام التعريف مثل ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ وفي ذلك دلالة على أن المبلغين عن الله سبحانه غالباً ما يتعرضون إلى هتك الحرمة من الجاهلين والمخالفين قولاً أو عملاً، فلا ينبغي أن يتألموا لذلك؛ لأنهم جنود الله بين عباده، والطريق غير سهل، والصبر والاستقامة واجبة في هذا السبيل.

المفردة الرابعة: ﴿يَسْتَهْزِؤُون﴾

الاستهزاء السخرية والاستخفاف بالشيء، ويتعدى عادة بالباء فيقال هزأت به[٢]، وهو من المفاهيم العرفية التي يرجع في تحديد مفهومه ومصاديقه إلى العرف؛ لكونه ليس حقيقة شرعية أسسها الشرع، ولا حقيقة متشرعية أسسها الفقهاء، ولا هو حقيقة عقلية يحددها العقل وأهل المعقول، بل هو مفهوم عرفي يدركه الكل.

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٥٣، (رسل).

(٢) مجمع البحرين: ج١، ص٤٧٧، (هزا).

والآية المباركة لم تعبّر عن موقف الكفار بالسخرية؛ لأن الاستهزاء يتحقق بذات الشخص وإن لم يصدر منه فعل يكون سبباً للاستهزاء، بخلاف السخرية فإنها لا تكون إلّا في فعل يصدر منه يكون منشأً لها، فالاستهزاء متعلق بالذات، والسخرية تتعلق بالأفعال، وما يشهد له قضية نوح عليه السلام لما كان يصنع الفلك بقوله تعالى: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُم كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾[١] ولم يقل استهزؤوا به؛ لأنهم كانوا يسخرون منه بسبب صناعة الفلك؛ إذ كانوا آمنين مطمئنين، وأوضاعهم مستقرة ماكانوا يتوقعون أن الطوفان قادم وسيهلكهم أجمعين إلّا من ركب الفلك.

والغالب في الاستهزاء أنه يلازم تحقير المستهزأ به أو اعتاد تحقيره[٢]، والاستهزاء من العناوين القهرية الانطباقية فيتحقق وإن لم يقصده الشخص؛ لذا قال بعض أهل اللغة إنه يصدق على الإعراض والتهاون في الواجب، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللّهِ هُزُواً**﴾[٣] أي بالإعراض والتهاون بها[٤]، وآيات الله هنا حدوده وأحكامه[٥]، وقد كان بعضهم يطلّق زوجته ثم يقول كنت أمزح، والآخر يبيع داره ثم يقول ما كنت أقصد البيع.

---

(١) سورة هود: الآية ٣٨.

(٢) معجم الفروق اللغوي: ص٤٩٣، (١٩٩٠).

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٣١.

(٤) مجمع البحرين: ج١، ص٤٧٧، (هزا).

(٥) انظر فقه القرآن: ج٢، ص١٨٠.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: الإستهزاء بالقول وبالعمل

إن الاستهزاء بالرسل تارة يقع من الكفار وتارة من المؤمنين، وتوضيحه: يستدعي بيان مقدمتين:

المقدمة الأولى: أن الاستهزاء بالرسل يقع بنحوين:

أحدهما: مخالفتهم في العمل، فإن الذي يُحبُّ أحداً ويؤمن بصدقه يطيعه ويحترم مكانته، فإذا ادعى الحب والاعتقاد به و يخالف أوامره وتعاليمه يكون قد استهزأ به؛ فإن العقلاء يعدون مخالفة من يستحق الطاعة تصغيراً لشأنه، وهتكاً لحرمته قال تعالى على لسان الرسول: ﴿**إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّه فَاتَّبِعُونِي**﴾[1] فيدل على أن الاتباع علامة الحب، وبمقتضى مفهوم المخالفة يستفاد أن عدم الاتباع ينفي الحب.

ثانيهما: أن يطيعه طاعة ناقصة، بأن يأخذ منه ما يعجبه من الأحكام والتعاليم ويعرض عن الأخرى التي لاتعجبه. قد تجد بعض الناس يصوم

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

شهر رمضان ولا يصلي، أو يصلي ويصوم ولا يخمس، وبعض الناس لا يخمس فإذا جاءه وقت الحج وأراد الذهاب يخمس حرصاً منه على صحة حجّه، وبعضهم يخمس أموال الحج فقط وأما باقي أمواله لا، وبعض الناس يقول اجعل قلبك أبيض يحب الناس ولا يحقد عليهم ولا يهم بعد ذلك أن تصلي أو تصوم. وهذا يعني أنه يأخذ بتعاليم الرسول بما يريده هو لا مايريده الله والرسول، ولو طلب السلطان أو صاحب المكانة في المجتمع من خدمه أن يعملوا له عملاً فعمل بعضهم نصف العمل أو ربعه فهل يعد هذا طاعة كاملة، بل بحسب الموازين العقلانية لا يعد طاعة، بل معصية؛ لذا يحكم العقلاء بأن العبد الذي ينجز بعض العمل يستحق العقوبة، ومرجع نقصان الطاعة إلى هتك الحرمة، وهتك الحرمة يعني استصغار الشأن، وهو مساوق للاستهزاء، بل أن فلسفة المعصية تقوم على أساس التمرد والتجاوز على حرمة المولى وحقوقه، ولذا حرم بعض الأصوليين التجري لما فيه من هتك للحرمة.

المقدمة الثانية: أن الطاعة والمعصية لكل منهما مفهوم يدركه العقل والعقلاء، ولهما ضوابط في مقام العمل إذا لم تراع قد تنقلب الطاعة إلى معصية، أو تكون طاعة ناقصة، وهناك عنوان يسميه الأصوليون بوجوب مراعاة حال العبودية في الامتثال، فاذا خالفه يسمونه متلاعباً بالطاعة، ويحكمون بعصيانه واستحقاق العقوبة، وذلك بأن يأتي العبد بالواجب عليه ولكن بأسلوب يخرجه من عنوان الطاعة ويدخله في عنوان التلاعب والهزء بالطاعة.

وشواهده العرفية والشرعية كثيرة أذكر ثلاثة منها:

الشاهد الأول: قول النبي صلى الله عليه وآله: «لا ينال شفاعتي من استخف بصلاته، ولا يرد عليَّ الحوض لا والله»[1] وورد عن الصادق عليه السلام في آخر وصاياه لأهله وقرابته: «إن شفاعتنا لن تنال مستخفاً بالصلاة»[2] والنفي الجازم يفيد حتمية الوقوع، فلو انضم إليه القسم من رسول الله صلى الله عليه وآله أفاد التأبيد التام الذي لا رجعة فيه.

فالذي يستخف بصلاته يحرم من شفاعتهم حتماً ويقيناً، ومعنى ذلك أنهم يوكلونه إلى عمله، ونتيجة ذلك هلاكه يقيناً؛ لأن لا أحد من الناس يضمن صحة عمله واقعاً وقبوله عند ربه مهما بالغ في الطاعة، والنجاة الحقيقية في الآخرة بشفاعتهم حتى الأنبياء والأولياء يستشفعون بهم عليهم السلام، ومعنى ذلك أن من لم ينل شفاعتهم مصيره النار والهلاك. هذا ما يفيده الحديث، ويبقى الكلام في معنى المستخف بصلاته من هو؟

والجواب: أنه يشمل مصاديق عديدة:

الأول: الذي لا يصلي جحوداً.

الثاني: الذي لا يصلي عصياناً، وأمرهما ظاهر.

---

(١) المحاسن: ج١، ص٧٩، ح٥؛ الكافي: ج٦، ص٤٠٠، ح١٩؛ الأمالي (للصدوق): ص٥٧٢، ح٧٧٩؛ الفقيه: ج١، ص٢٠٦، ح٦١٨، وفيه: ((لا تنال بدل لن تنال)).

(٢) المحاسن: ج١، ص٨٠، ح٦.

الثالث: الذي يصلي ولكنه متهاون في أدائها كما تفيده الإضافة إلى الضمير (بصلاته) إما من حيث الوقت بأن يؤخر صلاته إلى آخر أوقاتها مع القدرة على أدائها في وقتها، أو في الوقت المناسب، وإما من حيث الهمة بأن يقوم إلى صلاته متثاقلاً، وكأنه يقوم إلى موته، وإما من حيث أدائها فلو وقف للصلاة لا يضبط قراءته، ولا يهتم للجهر والإخفات في مواضعهما، أو يركع نصف ركعة، أو يسجد نقراً، أو لا يهتم لطهارة المكان الذي يصلي فيه وهكذا.

هذه كلها من مصاديق الاستخفاف بالصلاة، ولو أراد أن يعرف نفسه أنه مستخف بها أم لا فليقايس الأمر مع غيرها. مثلاً لما ينهض لعمله أو وظيفته كيف يقوم؟ وكيف يراعي دقة الوقت وضبطه؟ وحينما يقوم للطعام والشراب كيف يقوم؟ وحينما يجلس على التلفاز أو الجوال كيف يطيل الجلوس والحديث والسؤال؟

ماذا يعني الاستخفاف بالصلاة؟

والجواب: يعني الهزء بها والتهاون بأمرها، ومنه نعرف أن المصلي وهو في أداء الصلاة ممكن أن يكون هازئاً، والصائم كذلك، والحاج كذلك، أي حتى في العبادة يمكن للإنسان أن يكون هازئاً، ومصير الهازئين بصلاتهم بحسب رواية الرسول صلى الله عليه وآله والصادق عليه السلام الحرمان من الشفاعة. هذا مصداق للتلاعب والهزء بالأحكام والطاعة، وهناك مصداق آخر.

الشاهد الثاني: الحجاب، فإن القرآن والرسول أمرا النساء بالحجاب، ووضعا معياراً للحجاب الشرعي ذكره الفقهاء في رسائلهم العملية يشمل غطاء تمام البدن ما عدا الوجه والكفين، واشترطوا فيه أن لا يكون مصحوباً بالزينة والتزين.

فإذا خرجت المرأة المسلمة المؤمنة إلى السوق أو الوظيفة أو ذهبت إلى الزيارة أراد الشرع لها أن تكون بهيئة تليق بشأنها كإنسانة لها قيمتها ومكانتها.

ولكن بعض النساء تلبس الحجاب وفي ظنها تحجبت وهي محبة لله والرسول وتُريد الطاعة ولا تُريد المعصية، ولكن في واقع الحال حجابها لا يغطي تمام رأسها فنصف شعرها خارج، والجبة ضيقة تبرز مفاتنها، أو ملونة بألوان زاهية جاذبة للنظر، أو تخرج متزينة بألوان الزينة، أو تخرج ماتلبسه من حلي. هذه كلها تجمل المرأة وتزينها، وقد أباح الشرع للمرأة أن تخرج بأجمل صورها لزوجها ومحارمها والنساء من أمثالها، لكنها تخرج بهذه الهيئة في الشارع والدائرة والسوق ماذا يعني؟

الجواب: يعني هذا طاعة ناقصة، فقد تهاونت في حكم الحجاب، ومرجعها إلى الاستهزاء بالطاعة وإن كانت هي لا تقصد الاستهزاء ولكن الاستهزاء، عند العرف يتحقق ولو لم يقصده الإنسان.

الشاهد الثالث: في الإفتاء بغير علم، لعل من أشد المنكرات التي حتم الباري عز وجل على فاعلها النار وحجز مكانه فيها قبل موته هو الإفتاء بغير علم، أي أن الإنسان الجاهل بالأحكام الشرعية ولا يعرفها ويحلل ويحرم لنفسه ولغيره من دون الرجوع إلى العلماء، وهو من أشنع المنكرات التي تتضمن القول والإفتراء على الله عزّ وجل.

ولما استهزأ الكفار برسول اللهﷺ ووصفوه تارة بأنه شاعر وتارة بأنه كاهن بيّن الباري عز وجل عظمة القول بغير علم، وتوصيف القرآن والنبي بأوصاف لا تليق بشأنهما، فقال سبحانه إنه: ﴿**تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ۝وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ۝لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ۝ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ۝فَمَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**﴾(١) وهو بلسان إياك أعني واسمعي ياجارة.

ومفاده: أن رسولنا لا يتقوّل علينا، ولو تقوّل علينا لأخذناه وذبحناه ولا يستطيع أحد أن ينجيه من الذبح، وفي ذلك يبيّن الباري عزّ وجل شدة غضبه على الذين يتقولون عليه وعلى دينه وكتابه حتى إذا كان رسوله فإنه يذبحه ولا ينجيه أحد ولا شك أن رسول الله معصوم لا يصدر منه ذلك، ولكن ليتعلم الناس كيف يكونون عباداً لله يسلِّمون لأوامره وأحكامه، ويأخذون الدين بأهوائهم، ويتلاعبون بأحكامه على حسب مشتهياتهم أو يفتون فيه من غير علم.

وورد في الأحاديث المتضافرة: ﴿من أفتى بغير علم فليتبوأ مقعده من النار﴾(٢) يتبوأ مقعدهُ كناية عن أن مكانه الذي سيجلس عليه في نار جهنم محجوز من وقت الإفتاء من غير علم. هذا الجزاء ربما لم يقله الباري لبعض الذنوب الكبيرة، لكنه قاله في الإفتاء بغير علم.

---

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤٣ ـ ٤٧.

(٢) انظر فقه الصادقعليه السلام: ج٥، ص٢١، الهامش.

وتجد بعض الناس في مقام الطاعة يفتي من غير علم، ويوقع نفسه وأصحابه وأهله في اضطراب نتيجة التقول على الدين، وكثيراً ما نتعرض إلى مسائل نجد أن الجاهلين بالدين يتدخلون ويعطون فتاوى وآراء في الدين وهم لا يعلمون. هم في ظنهم أن هذا طاعة، وأنهم في مقام الطاعة لكنهم في مقام العصيان، بل قد تجد البعض يستسهل أمر الدين أكثر من أي شيء، فهم في كل علم وفن ويرجعون إلى ذوي الاختصاص إلّا في الدين الكل يعطي آراء في الدين ولا يرجع إلى العلماء وأهل الاختصاص، وهذا لعب بالدين وبمصيرهم وعاقبتهم الأخروية.

فالاستهزاء بالرسل عنوان عام قد يصدر من الكافر، وقد يصدر من المؤمن، ويتميز استهزاء الكافر من المؤمن في أمرين:

أحدهما: أنه يقع بقصد الاستهزاء.

وثانيهما: أنه غالباً يكون في الأقوال لاسقاط شخصية النبي وتحطيم مكانته؛ لذا يكون ظاهراً وعدوانياً .

وأما استهزاء المؤمن فيقع منه لا بقصد الاستهزاء، ويكون بالعمل عبر الطاعة الناقصة، وإطلاق الحسرة في الآية المباركة يشمل الاثنين معاً؛ إذ لا فرق من حيث الأثر بين الاستهزاء القولي أو العملي. كلاهما تهاون واستخفاف بمكانة الرسل وتضييع لجهودهم.

اللطيفة الثانية: الإستهزاء بالمؤمن أشد

إن قوله: ﴿يَا حَسْرَةً﴾ تضمنت النداء والإخبار، فتكشف عن ملازمة الاستهزاء للندم والغم على التفويت والتضييع، فتدل على حرمة الاستهزاء من جهتين:

الأولى: القبح الشديد الذي يقضي به العقل؛ لملازمته لوجود الضرر والجفاء بالمنعم وعدم شكره.

والثانية: ملازمته لهتك حرمة الرسل، وهي حرمة مغلظة لاستبطانها الهتك للرسول والمرسل معاً.

بل الاستهزاء يتضمن عناوين محرمة كثيرة:

منها: الاحتقار والإذلال للآخرين، وكشف عيوبهم، واستغابتهم وبهتانهم والكذب عليهم وإشاعة الفتنة والاختلاف والتحريض على الانتقام ونحوها من عناوين كل واحد منها يكفي لوصول صاحبه للنار.

ومن هنا يمكن القول بأن استهزاء المؤمن أغلظ من استهزاء غير المؤمن. أولاً لأن استهزاءه بالعمل وذاك بالقول عادة، وثانياً لأن استهزاء العارف والمؤمن أكثر هتكاً واستخفافاً من الجاهل، فعلى المؤمنين أن ينتبهوا إلى أن المعصية منهم أو التهاون في أداء الواجبات فيها ظلم عظيم.

اللطيفة الثالثة: الاستخفاف بالرواية

إنّ الرسول يشمل القرآن والسنة؛ لأن الاثنين مبعوثان منه سبحانه. أحدهما بواسطة النبي، والثاني بواسطة النبي والعترة عليهم السلام، وقد أراد الباري عز وجل لهما أن يكونا محور حياة الناس، ومنهما يستقون المعارف والأفكار والأحكام والآداب، وقال النبي صلى الله عليه وآله: إنهما لن يفترقا حتى يردا الحوض[1]، فإن تمسكت بهما الأمة لن تضل أبداً، فاذا أعرض الناس عن ذلك وتهاونوا في أمرهما ولم يأخذوا عنهما يكونون قد استخفوا بهما وبالعلم، وسيصيب المتهاونين الضياع من جهات عديدة. منها ضياع العلم والمعرفة المودعة فيهما، فإن القرآن والسنة يهديان الإنسان إلى الأقوم في عقائده ومعارفه وقوانينه وأخلاقه، ويجعلان الإنسان كاملاً، فبالإعراض عنهما يبقى الإنسان في ضياع وجهل حقيقي وإن أخذ الشهادات العلمية، وتسمى بالعناوين المختلفة.

ومنها: ضياع النفس الذي سيعيبه في دنياه وآخرته نتيجة هتك حرمتها.

ومنها: ضياع النعمة الإلهية وحجودها، وفي هذه اللطيفة تنبيه لأهل العلم والفضل. ورد عن الامام الصادق عليه السلام في تطبيق الآية على بعض مصاديقها، وهي عن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿خبر تدريه خير من عشر ترويه. إنّ على كل حق حقيقة، ولكل صواب نوراً﴾.

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص٥٥، ح٦٨٦؛ كمال الدين: ص٦٤؛ مختصر بصائر الدرجات: ص٩٠.

ثم قال: ﴿إنا والله لا نعد الرجل من شيعتنا فقيهاً حتى يلحن له فيعرف اللحن. إن أمير المؤمنينعَلَيْهِ السَّلَامُ قال على منبر الكوفة: إن من ورائكم فتناً مظلمة عمياء منكسفة لا ينجو منها إلّا النومة. قيل: ياأمير المؤمنين! وما النومة؟ قال: الذي يعرف الناس ولا يعرفونه، واعلموا أن الأرض لا تخلو من حجه لله عزّ وجل، ولكن الله سيعمي خلقه عنها بظلمهم وجورهم وإسرافهم على أنفسهم، ولو خلت الأرض ساعة واحدة من حجة لله لساخت بأهلها، ولكن الحجة يعرف الناس ولا يعرفونه، كما كان يوسف يعرف الناس وهم له منكرون، ثم تلا: ﴿**يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ**﴾[(١)].

وفي الحديث دلالات وإشارات عديدة:

الأولى: أن دراية الحديث وفهمه وفقهه أهم من روايته و نقله.

الثانية: أن معرفة الحديث وصحته تعرف من متنه ومضمونه؛ لأن نور الحديث يتجلى على متنه لا على سنده، وينبغي أن تكون الإحاطة به عالية بحيث يعرف الحديث من غيره من لحنه، أي من منطوقه ومن مفرداته واستقامة بيانه ودقة اعرابه ونحو ذلك من علائم استقامة الكلام ولحنه[(٢)]. فإن الخبير المطلع قادر على تمييز كلام المعصوم من غيره، كما يقدر على تمييز القرآن عن غيره.

---

(١) الغيبة (للنعماني): ص١٤٤، ح٢؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٣٩٣؛ البحار: ج٥١، ص١١٢، ح٨، وفيه: ((عشرة بدل عشر)).

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٣٠٧، (لحن).

الثالثة: أن عدم الاعتناء بالحديث ودراسته والتفقه فيه هو نوع إعراض، ويندرج في الاستهزاء بالحديث الملازم للحسرة.

الرابعة: أن إخفاء الحجة على الناس ناشئ من أفعالهم ومواقفهم؛ لأنهم يستهزئون بها، والاستهزاء هنا لا يراد به القولي بل الإعراض العملي كما يفيده السياق والمنطوق العام.

الخامسة: أن الحجة تشمل العالم والمبلغ والمرشد؛ لذا وصفها الإمام عليه السلام بالنومة، وقوله (حجة لله) ولم يقل (حجة الله) شاهد على أن المراد منها الحجة العامة لا المعصوم عليه السلام، وقوله: «يعرف الناس ولا يعرفونه»[1] فيه توجيه للحجة في زمان الفتن المظلمة أنها إذا رأت الناس لا يبالون ولا يهتمون لأمرها أن تخفي نفسها عنهم، وحينئذ يكون النصح والتبليغ بالخفاء، وهذا يستدعي أن لا يتظاهر أحد بما يملكه من العلوم والمعارف حفظاً لمكانته وكرامته لكيلا يستهزئ به الجاهلون إلّا إذا زاحمه عنوان أهم.

---

(١) جاء في كتاب الغيبة (للنعماني): ص١٤٤، ح٢، أن أمير المؤمنين عليه السلام قال على منبر الكوفة: «إن من ورائكم فتناً مظلمة عمياء منكسفة لا ينجو منها إلّا النوَمة. قيل: يا أمير المؤمنين! وما النوَمة؟ قال: الذي يعرف الناس ولا يعرفونه....».

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: الثبات على رغم المستهزئين

أن التأريخ البشري حافل بالصراع بين أهل الحق وأهل الباطل، ويتجلى هذا الصراع في جهتين:

جهة تقوم على العلم والإيمان والعمل الصالح والدعوة إلى الحق وإصلاح العباد والبلاد، ويمثلها الأنبياء والأولياء والتابعون لهم، وجهة تقوم على الجهل والكفر والدعوة إلى الدنيا وشهواتها، ويمثلها أهل الدنيا بمختلف أصنافهم، وهذا الصراع متجذر في النفوس يرجع في جوهره إلى حرب الشيطان وعناده مع الرحمن، والاستهزاء بألوانه وأشكاله هو السلاح المستخدم في هذا الصراع؛ لذا كثر وروده في القرآن الكريم، فقد كان الكفار يستهزئون، والمنافقون وأهل الكتاب. هؤلاء كلهم مارسوا الاستهزاء والباري عز وجل ردهم وقال: ﴿**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥.

ولهذا استدل الإمامعليه السلام بالآية عليه، وقد تضافر عن الكثير من العلماء وأهل الفضل الذين انشغلوا بتحصيل العلوم والمعارف الإلهية من غير القرآن والسنة أنهم أظهروا أسفهم وندمهم بعد حين، وقصور اليد عن الجبران، وكفى رسوله المصطفى من المستهزئين في آيات أخرى، كما أعطى تعاليم مهمة للمسلمين تعرفهم حقيقة الاستهزاء ودوافعه وأساليب معالجته، ويتلخص في أن الاستهزاء هو عمل يسبقه موقف ويلحقه موقف آخر، فالمجموع ثلاثة يمكن تلخيصها في ثلاثة هي أساليب عامة تتبع في كل صراع بين الحق والباطل يتبعها المبطلون.

الأسلوب الأول: السعي لإفشال مبادئ الحق بالتضليل والخداع والتحريف الفكري وتشويه السمعة وهو يستبطن الكفر والجحود؛ لأن الاستهزاء يستبطن التكذيب.

الأسلوب الثاني: الاستهزاء والسخرية برجال هذا النهج ومبادئه وأفكاره لأجل إيقاع الهزيمة في نفوس أتباعه، وهو ما يعبر عنه بالحرب النفسية.

الأسلوب الثالث: التخلص من أهل الحق، ويتم بتصفية رجال هذا النهج ومبادئه بقتل الشخصية وهزيمتها، فإن لم ينفع فبقتل الأشخاص، ولذا نلاحظ أن الأنبياء والأولياء لم يموتوا بالموت العادي، بل أكثرهم قتلوا حتى رسول اللهصلى الله عليه وآله وهو خاتم الرسل يشير الباري عزّ وجل إلى أنه قتل في قوله عزّ وجل: ﴿**أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾[1] فقد

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

ذهب جمع من المفسرين وأهل البلاغة إلى أن (أو) في الآية ليست لعطف التردد، بل هي إضرابية تعني (بل) فتؤكد وقوع القتل، نظير قوله تعالى: ﴿لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[1] إذ حملها بعض المفسرين على الإضراب لاقتضاء القرينة العقلية ذلك؛ لكونه ارتقى من الاحتمال إلى اليقين بعد المشاهدة الحسية؛ لعدم تغيّر الطعام والشراب[2]، وقد مر في محاورة الرسل وحبيب النجار مع كفار أنطاكية مايشهد لهذه الحقيقة.

والآية الشريفة اكتفت ببيان القاعدة، وهي أن كل رسول تعرّض إلى الاستهزاء، والعادة قاضية أن ذلك يتم بعد فشل الحوار الفكري وانسداد بابه؛ بداهة أن كل مواجهة تبدأ أولاً بالحوار الفكري، فإن لم يصل إلى نتيجة يتحول الحوار إلى جهتين منقسمتين، وبعده يأتي دور الحرب النفسية بالسخرية والاستهزاء، ويلوح من بعيد إلى أن الاستهزاء هو الأسلوب الأسهل لهم، فإن لم يجدِ اتخذوا الأسلوب الثالث.

والسؤال ما هو موقف أهل الحق في مقابل ذلك؟ القرآن الكريم في آيات عديدة يحدد المنهج بموقفين ونتيجة. أما الموقفان فهما: الثبات والصبر على الحق وعدم التأثر بما يقولون، وعدم التراجع والتمايل للمستهزئين، أو توليهم خوفاً منهم أو طمعاً فيهم.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

(٢) انظر روح المعاني: ج٣، ص٣٢.

وأما النتيجة فهو بلوغ النصر عليهم في خاتمة الأمر. أما في الآخرة فواضح، وأما في الدنيا فلأنّ الباري عزّ وجل ينصر من نصره، وقد وعد بذلك، وجعلها سنـّة تجري مع الأجيال. كل ذلك قال عنه الباري في آيتين هما قوله عزّ وجل: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَيُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ۞وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَاكُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾(١) وهي دالة على أن النهج العام للظالمين هو الجحود بآيات الله مع الله سبحانه، وعبّر عن ذلك بالجحود للإشارة إلى أنهم ينفون ظاهراً ما هو في القلب ثابت، وقد كان أبو جهل يقول للنبيﷺ: إنّك عندنا لصادق ولكننا نكذب ما آتيتنا به(٢).

وفي آية أخرى ينهى الباري عزّ وجل عن اتخاذ المستهزئين أولياء(٣)، وأنهم كانوا إذا نادى المسلمون للصلاة يتخذونها هزواً ولعباً، ويصفهم بأنهم ﴿**قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾(٤) لأنهم لايدركون أبعاد الصلاة وحكمتها وآثارها على البشر في حياتهم الدنيوية والأخروية، ولايخفى ما في نفي

---

(١) سورة الأنعام: الايتان ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) أسباب النزول: ص١٤٥؛ تفسير القرطبي: ج٦، ص٤١٦؛ تفسير البيضاوي: ج٢، ص٤٠٤.

(٣) انظر سورة المائدة: الآية ٥٧.

(٤) سورة المائدة: الآية ٥٨.

العقل عنهم من إشارة إلى غلبة الشهوة والمصلحة على سلوكهم حتى صاروا لا يعقلون.

والنتيجة الحاصلة من هذا التعليم: أن المؤمن لا ينبغي أن يرفع يده عن دينه ومعتقده لأجل استهزاء المستهزئين، بل عليه أن يثبت ويستقيم ولا يبالي باستهزائهم حتى يبلغ النصر، فلو تراجع أصيب بالهزيمة والخذلان، وهذا ما يقضي به العقل؛ لأن المستهزئين فئتان: فئة عالمة بالحق وتستهزئ به فتكون جاحدة معادية، ولا ينبغي أن يستمع للعدو المخالف، وفئة جاهلة بالحق ويجب أن تهدى إلى الحقيقة بالحوار والمنطق حتى تهتدي، وعلى كل تقدير فإن التراجع عن الحق لأجل الاستهزاء نهج مهزوم لا يتوافق مع تعاليم القرآن والسنة.

التعليم الثاني: تحدي الاستهزاء

إنّ الاستهزاء صفة ذميمة تنم عن جهل المستهزئ وعجزه، وهي من أسباب الإيذاء الروحي، سواء وقع الاستهزاء باللسان أو العمل او الإشارات، فعلى الإنسان الذي يقع عليه الاستهزاء أن ينظر إلى نفسه بموضوعية، فإن وجد أن ما صار سبباً للاستهزاء به هو نقص فعليه أن يتجاوزه، ويتخذ من النقص طريقاً للكمال، وإن كان الأسلوب الذي اتبعه المنتقد معيباً، وهذا شأن عباد الله سبحانه، وإن كان عداء وليس نقصاً فلا يبالي بما قيل، وعليه أن ينظر إلى غايته ولا يعطي للمستهزئ غايته، فإن المستهزئ لماذا يستهزئ؟

الجواب: لسببين إما يريد الإيذاء والانتقام والتشفي، وإما يريد عرقلة المسيرة حسداً منه، وفي كلا الحالين التأثر به والاستجابة له فشل، ووقوع في مصيدته.

والعلاج الأوفق للاستهزاء هو عدم المبالاة به ومواصلة العمل حتى بلوغ الغاية، وقد وعد الباري عز وجل أن ينصر أصحاب الحق إذا واصلوا الطريق ونصروا، وهذه القضية عامة لاتختص بالشؤون الفردية أو الاجتماعية، بل تشمل حتى سياسات الدول، فإن المستهزئ مصيره الحسرة والندم.

التعليم الثالث: أشكال الاستهزاء

إنّ الاستهزاء له ثلاثه أشكال:

أحدها: الاستهزاء بالأشخاص بدوافع شخصية أو اجتماعية كالنسب او القومية أو الطبقة الاجتماعية، وقد حرّمه القرآن واعتبره من الصفات الذميمة التي تحط من المستوى الإنساني للبشر. قال تعالى: ﴿**لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ**﴾[1] والمراد بالقوم هنا مجتمع الرجال بقرينة مقابلة ذلك بالنساء، وقد ذكروا أن القوم يختص بالرجال فلا يشمل النساء، والنهي ناظر إلى التعالي القومي والنسبي والقبلي على الآخرين، وأكد ذكر النساء بعده لظهور هذه

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١١.

المنقصة فيهنّ أكثر، وقد تضافر في الأخبار أن بعض نساء النبي كن هكذا يسخرن من نسائه الأخريات، ويكثرن من الاستهزاء في مواقف عديدة رواها الخاصة والعامة.

فقد ورد أن السيدة أم سلمة كانت تتمتع بمزايا عالية في النساء، وكانت قصيرة، فكانت عائشة وحفصة تسخران من ذلك(١)، ومرة تكلمت عائشة على السيدة خديجة بكلام لاذع أرادت الاستهزاء بها عند النبي فردّها بجواب يظهر فيه فضل خديجة على سائر نسائه، وعلو درجاتها عنده وعند الله(٢)، والوقائع كثيرة(٣)، وفي الآية نكات لطيفة:

الأولى: أنه ذكر سخرية القوم من القوم والنساء من النساء ولم يذكر القوم من النساء أو النساء من القوم، والسبب أنه نادر الحصول، فالتحاسد والتهازؤ يقع في الجنس المماثل عادة لدواع جاهلية كالحسب والنسب والمال والجاه.

الثانية: أن النهي في الآية ورد بضمير الغائب ولم يوجه إلى جماعة خاصّين؛ للإشارة إلى أن القضية عامة تجري في جميع الأزمنة والأمكنة؛ لأنه من صفات الجاهلية، فإن الإسلام نفى التمايز بين البشر إلّا بالتقوى والعمل.

---

(١) نفحات الرحمن: ج٥، ص١٥؛ أسباب النزول: ص٢٢٤؛ تفسير الشعراوي: ج١٩، ص٤١٢.

(٢) انظر تفسير الشعراوي: ج١٩، ص٤١٥.

(٣) انظر تفسير القمي: ج٢، ص٣٢١.

الثالثة: أنه قال: ﴿**عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ**﴾[١] و: ﴿**عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ**﴾[٢] فإنّ عسى مع الفعل المضارع يفيدان احتمال انقلاب المعادلة فيصير الغني فقيراً، والفقير غنياً، والعالم جاهلاً، والجاهل عالماً، والرئيس مرؤوساً، والمرؤوس رئيساً وهكذا، فتقلب الأحوال بيد الباري عزّ وجل، وقابليات الناس وجهودهم تعطي لكل من يعمل ويجد حقه، فلذا لا يمكن لأي أحد أن يطمئن على حاله الذي هو فيه وأنه يستمر معه، بل كل شيء معرّض إلى زوال وتبدل وانقلاب، وفي ذلك يكون تحذير لكي يتأدب بعض الناس ولايرفعوا آنافهم على غيرهم بسبب غناهم أو علمهم أو نسبهم.

ثانيها: الاستهزاء السياسي، ويقع فيه غالباً أصحاب الأحزاب والتيارات الباطلة التي تتصور نفسها أنها فوق الناس، أو يستهزئون بعقائدهم وأفكارهم، وهذا نهج مستمر تقف وراءه تيارات سياسية عالمية ومحلية كان ولازال، وله مظاهر وألوان عديدة، وبعض الأشخاص يقعون في فخه جهلاً، وبعضهم عن علم وعمد، وهو مرض ينم عن فشل أصحاب هذه الأحزاب وعجزهم وعدم لياقتهم بمصالح الأمة؛ لأنّ السياسة هي إدارة البلاد والعباد، ولا يمكن للسياسي أن يوفق في ذلك بروح الأنفة والاستعلاء على الناس، ويقلد فرعون في دعواه أنا ربكم

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١١.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١١.

الأعلى، فإن الذي يمضي بهذا الطريق سيكون مصيره الحسرة والندامة الشديدة؛ لأن الناس ينفرونه ويقصونه عن خدمتهم.

ثالثها: الاستهزاء الفكري، ويقع فيه بعض الجاهلين لاسيّما بالفكر الديني أو المغرر بهم فيتخذون مواقف معادية للدين، ويستهزئون ببعض حدوده وتعاليمه من دون فهم ودراسة، وتجد بعض كتابهم وأعلامييهم يطلقون كلمات بعيدة عن الحقيقة كل البعد، وتكشف عن عدم مراعاتهم للياقة الفكر والإعلام، ولو كانوا يتحاورون مع أهل الاختصاص بالمعارف الدينية لعرفوا أنهم على فاصلة كبيرة من الحقيقة، ولكن بعضهم بسبب عناده يستمر على نهجه، وسيصاب بالحسرة يوم يجد نفسه كان متجاوزاً على الفكر والعلم والمعرفة، ويعيش في دوامة الجهل والتغرير.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ
يَرْجِعُونَ۞وَإِن كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ
لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ

يس/ ٣١-٣٢

الآيتان متكاملتان في المعنى والبحث فيهما يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآيتين

المفردة الأولى: ﴿أَلَمْ﴾

تفيد الاستفهام الاستنكاري جاء للدلالة على صدق الخبر، وأن القرون السابقة هلكت بسبب استخفافهم بالرسل وتضييعهم لحقوقهم.

وحتى يصح الاستفهام الاستنكاري لا بد وأن يكون المخاطبون قد علموا بحال القرون الماضية، واطلعوا على أخبارهم، وإلّا لما صح الاستنكار عليهم؛ بداهة أن الاستفهام الاستنكاري يتضمن الإقرار بالوقوع من قبل المخاطب، فهو من مصاديق سؤال العارف لأجل التنبيه والتقريع بالمسؤول، وهذا شاهد آخر يدل على أن القوم المخاطبين من أهل أنطاكية ومن قريش، وعموم من بلغه الخطاب كانوا يعلمون بوجود الأنبياء والرسل ونزول الرسالات السماوية، والأذى والظلم الذي عاشه الأنبياء من أقوامهم حتى انتقم الله عز وجل لرسله، وأهلك المعاندين، فيؤكد ماذكرناه غير مرة أن أكثر الكفر هو كفر الشرك لا الإلحاد؛ لأن الإقرار بالخالق الواحد قضية يقرها العقل والفطرة، وأثبتها الأنبياء من جهة، ومن جهة أخرى أنّ الشيطان الذي يعمي قلوب الناس ويلبس عليهم الحقائق لايعاند الخالق في خالقيته ووحدانيته، وإنما يلبس عليهم في العبادة

والعبودية؛ لأنها مشكلته الحقيقية التي أردته وجعلته في أسفل السافلين؛ لذا تعهد بأنه يقعد لعباد الله في الصراط المستقيم، وهو طريق عبادة الله وطاعته، ولم يتعهد بتضليلهم عن الاعتقاد بوجوده أو بوحدانيته أو خالقيته وإن كان ربما أوهمهم في حقيقة الخالقية والوحدانية، ولعل ذلك يعود لأسباب ثلاثة:

السبب الأول: أن خديعة البشر في وجود الخالق وخالقيته وربوبيته متعذرة؛ لأنها راسخة في الفطر، وتقرها العقول.

السبب الثاني: أنها قضية باطنية تستقر في قلوب الناس وضمائرهم، وهي مودعة في جميع الخلق بما فيهم الشيطان نفسه، وقد تحدث القرآن الكريم عن محاورات إبليس مع ربه، وفي جميعها يقر إبليس بحقانية الخالق ووحدانيته وعظمته وقدرته وعزته، والذي أرداه هو تكبره على العبودية والاستجابة لأمر الله سبحانه في السجود لآدم.

السبب الثالث: أن جهة الضعف في بني آدم التي منها يتسلل ابليس وجنوده إليهم فيغريهم ويخدعهم هي الشهوات والملذات وحب الدنيا. هذه هي التي تخرجهم من مسار طاعة الله إلى عصيانه ومن طريق رضاه إلى غضبه، فيستغل الميل الذاتي عند البشر للذة، ويحثه أكثر ليصيِّر المقتضي فيه علة تامة لارتكاب المعصية.

وتوضيح ذلك: أن وجود الشهوة في بني آدم إلى الدنيا وملذاتها ليست علة تامة لارتكابه للمعصية؛ لأن النفس الإنسانية متعادلة في الخلق

والتكوين والباري عزّ وجل ألهمها فجورها وتقواها، وإلالهام إلقاء الشيء في الروع ويختص بما كان من جهة الله والملأ الأعلى، والمعنى أنه عرّفها ما تأتي وما تترك، فيكشف عن وجود المقتضي لهما في النفس، وعبّر عن ذلك بالإلهام للإشارة إلى أنّ ذلك إبداع في التكوين، والعقل أيضاً يمسك بميزان التعادل بينهما، ويتحكم في سلوك البشر لو حكَّم الإنسان عقله على شهوته[1]؛ لذا يكون ميل الإنسان للذة بنحو المقتضي لفعل ما يلذ، والذي يجعله علة تامة هو الشيطان والعقل، ففي المعاصي الشيطان يغريه ويزين له اللذة فيرتكبها فيكون بمنزلة الجزء الأخير من العلة على قول أهل المعقول، وفي الطاعات العقل يحثه على فعلها واجتناب المعصية، ففعل الإنسان للطاعة و العصيان يرجع في المحصلة إلى إرادته، وهو الذي يمشي خلف الشيطان في إغرائه، أو خلف العقل في منعه، ومن هنا سمي العقل عقلاً لأنه يحبس الإنسان ويمنعه من فعل القبيح.

فالإنسان فاعل مختار في الطاعات والمعاصي، وبيده يصنع سعادته وشقاءه، ولذا قلنا بأن الهالكين بسبب أفعالهم يهلكون، ومنشأ هلكتهم ليس إنكار وجود الخالق ولا إنكار خالقية الخالق أو وحدانيته، وإنما إنكار عبوديته، فإن البشر يتخذ لنفسه أرباباً من دون الله يعبدونهم ويتخذونهم واسطة بينهم وبين الله.

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٤٨، (لهم)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص١٧٠، (لهم).

فالجاهليون كانوا يتخذون الأصنام، وقوم إبراهيم يتخذون الكواكب، وقوم فرعون اتخذوا فروعون رباً وهكذا، لكن الباري عز وجل أرسل لهم الأنبياء ليعلموهم بأن من يعبدون من دون الله لايستحقون العبادة، وهم عاجزون قاصرون، والذي يستحق العبادة والعبودية هو من خلق وأنعم وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وقد ورد عن لسان الأنبياء ﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾[1] لكنهم كانوا يصرون على الكفران فيعرضون عن عبادة من يستحق العبادة، ويعبدون من لا يستحق، فوقعوا بالنتيجة في جريمتين كل واحدة منهما تستحق الهلاك:

الأولى: ظلم الخالق المنعم بعدم القيام بحقه والتجرؤ عليه.

الثانية: الاستخفاف به بتفضيل غيره عليه.

وهذا الظلم و العدوان هو الذي وقعت به الأمم، فكان الهلاك هو المصير الذي لاقته.

المفردة الثانية: ﴿يَرَوْا﴾

من الرؤية وهي المشاهدة وتقع تارة بحاسة البصر، وتارة ببصيرة العقل وبهذا الاعتبار يقال للفكرة رأي واعتقاد، ومقام الاستفهام الاستنكاري يقتضي أن يكونوا قد رأوا ذلك إما بالحواس لاطلاعهم على أحوال الأمم السابقة، أو علمهم بذلك عبر النقل الحسي جيلاً بعد جيل، أو عبر التأمل والتدبر في آثارهم. ويستفاد من ذلك أن أهل أنطاكية وقريش وعموم

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٩.

المخاطبين في الآية يعلمون بذلك ويعرفونه؛ لذا قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ﴾[1] ولو لم يكونوا يعلمون ذلك لم يكن وجه لأن يقول ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ نعم يبقى السؤال كيف رأوا ذلك ؟ هذا ما سنأتي للإجابة عليه، واليوم نحن نرى أن المشكلة العظمى التي يعاني منها البشر هي عبادة المادة والماديات. هذا هو المعبود العام لهم الذي خالفوا لأجله تعاليم الأديان السماوية، وخرجوا عن مناهج الأنبياء، وداسوا القيم والمقدسات، وتجاوزوا إنسانيتهم. هو مقصود واحد ولكن له مظاهر وأشكال، فالاستعمار أحد مظاهر عبودية المادة، والحروب مظهر آخر، والمنافسات الاقتصادية والتجارية السلبية مظهر آخر، والتقنية الحديثة ووسائل التواصل إذا خرجت عن ميزانها الصحيح مظهر آخر، والألعاب الرياضية وانفاق ترليونات الأموال لأجلها مظهر آخر وهكذا. مع أن الذين يقومون بهذا يؤمنون بالخالق ووحدانيته ولكنهم أعرضوا عن عبادته، وعبدوا المادة أو استعبدتهم.

ولو تسأل الذين يقودون الحروب ويسببونها ويشاركون فيها من أجل ماذا تحاربون؟

لا شك أن المصالح المادية بألوانها وأصنافها، وقد نشرت بعض التقارير أن بعض الأوبئة والأمراض مصطنعة. ينشرون المرض لكي يبيعوا الدواء، كما يصنعون الحروب ليبيعوا الأسلحة.

---

(١) سورة يس: الآية ٣١.

وما هي خسائر الحروب والأمراض؟

الجواب: قتل البشر وتحطيم أفكاره وأجياله، فأي شريعة سماوية أو إنسانية تبيح قتل البشر و تحطيم أفكاره وعقوله؟ لا توجد. إذاً الشرائع تحرم والسياسة تعمل فماذا يعني هذا؟

يعني أنهم أعرضوا عن طاعة الله، واستخفوا بتعاليم الأنبياء الذين يؤمنون بهم، وعملوا بشهواتهم ومصالحهم، وذلك يعني أنهم عبدوا غير الله في نفس الوقت الذي هم يعتقدون به.

وهكذا الموظف حينما يأخذ الرشوة والتاجر حينما يأخذ الربا أو يبيع المحرمات، وشارب الخمر حينما يشرب الخمر. كل واحد منهم بدوره في هذا المجال هو عابد لغير الله مادام يعصيه ويخالفه ويتبع شيطانه وشهوته. هذا يعبر عنه الباري عزّ وجل بأنه اتخذ إلهه هواه(١)، والاتخاذ يعني بإرادته واختياره واتباعه.

ووجه التسمية بالإله هو أنهم جعلوه اسماً لكل معبود. مأخوذ من أله أي عبد، وقيل مأخوذ من أله أي تحيرّ وقيل مأخوذ من وله أي حب وعشق واشتاق(٢)، والكل صحيح بلا مانع؛ لأن التحيّر والحب يوجبان الانشغال والانقطاع للشيء حتى يكون معبوداً، فالذي كل همه وفكره وتخطيطه وعمله يدور حول ما يشتهيه ويهواه يكون قد عبده.

---

(١) سورة هود: الآيات ٥٠، ٦١، ٨٤.

(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص ٨٢ ـ ٨٣، (أله)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٣٣٩، (أله).

المفردة الثالثة: ﴿أَهْلَكْنَا﴾

أي أمتنا وضمير الجمع يدل على أن الاهلاك تم بواسطة العلل التوسيطية كالصيحة التي نزلت بواسطة الملائكة كما مر بيانه.

والهلاك يطلق عرفاً على العطب الشديد الذي يقرب من الموت أو يكون بحكمه ويطلق على بقايا الشيء الهالك كجيفته[١]، وعلى هذا المعنى تفيد أن القوم الذين خاطبتهم الآية قد رأوا بقايا الاقوام الهالكة كعظامهم ونحوها مما يبقى بعد الموت.

ولا يقال: فكيف تفسرون قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾[٢]؟ والجواب أن المراد بوجهه خلفاؤه في عباده وهم محمد وآل محمد عليهم السلام كما ورد عن الصادق عليه السلام فهم لا يذوقون الموت إلّا الموتة الأولى وكل ما سواهم يهلك وقد تاه المخالفون في ذلك وتقولوا على الله بما لا يقبله عقل ولا منطق إذ فسروا الآية بمعناها الظاهر وقالوا بأنه – والعياذ بالله – يهلك إلّا وجهه[٣].

---

(١) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٩٢، (هلك).

(٢) سورة القصص: الآية ٨٨.

(٣) انظر الكافي: ج١، ص١١٥، ح٥.

المفردة الرابعة: ﴿الْقُرُونِ﴾

جمع قرن، وهم أهل زمان واحد فيهم نبي أو هاد[1] سموا بذلك لاقترانهم مع بعضهم واقترانهم بالحجة الإلهية وبه يقترن النور ويتميز عن الظلمة، والإيمان عن الكفر.

فإذا كان في زمان فترة وغلبة جهل لا يسمى قرناً وفي ذلك تعظيم للعلم والهدى[2] ويراد بالقرون في الآية الأقوام السابقة الذين تمردوا على الرسل وكابروا فأهلكهم الله عزّ وجل بذنوبهم وسيأتي مزيد بيان.

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٥٥٦، (قرن)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٣٠، (قرن).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٤٢٧، (١٧١٦).

المبحث الثاني: في لطائف الآيتين

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: لماذا انتقل الخطاب إلى الحوار؟

إنّ الخطاب في الآيتين المباركتين تبدل من لسان العطوفة والتحسر على تضييع الناس لمصالحهم إلى لسان الحوار والفطنة والتنبيه، فدعتهم إلى النظر والاعتبار بالسابقين عليهم في الأقوام وما جرى عليهم من الهلاك، والغاية من ذلك هو تحفيزهم إلى الإذعان والإيمان، فإن القلوب القاسية عادة ما تتهيأ للإصغاء إذا لاحظت سوء المصير والعاقبة، واتخذت لهذه الدعوة شاهدين: أحدهما حسي والثاني خبري حدسي.

أما الأول فهو أنهم يجدون في وجدان كل واحد منهم أن الذين ذهبوا وهلكوا لا يرجعون، وهذا الإدراك لا يتفاوت فيه عالم وجاهل وكبير وصغير، والهالكون هم معروفون لديهم، فهم من جهة استخبروا حالهم وعلموا بما جرى عليهم؛ لأنّ أخبار الماضين تتناقل في الأجيال، وعلمهم دليل على صدق ما يخبر به القرآن وحجة عليهم، ومن جهة أخرى يجدون أن سبيل الاتصال بهم منقطع لا الذين هلكوا يعودون إلى الدنيا لأن مدة اختبارهم انتهت، ولا أهل الدنيا يتصلون بهم؛ لأنهم في عالم غير عالمهم،

وحيث إنهم علموا أن هلاك هؤلاء كان سبب استخفافهم بالأنبياء وعدم اتباعهم لهم يجب أن يكون لهم عظة وعبرة لكيلا يتبعوهم في العمل فيكونوا مثلهم في المصير. هذا النحو من الاستدلال يلامس وجدان كل إنسان عاقل يبصر ويرى الأشياء بوجدانه، ويدعوه إلى الحذر والإيمان.

وأما الثاني فهو الإخبار عن واقع الحال في المستقبل، وهو أن الذين لا يعودون في عالم الدنيا بعد هلاكهم - لأنهم عاجزون عن ذلك، ولا يملكون خياراً - سيعودون في يوم جميعاً قهراً وجبراً.

وهذا وإن كان إخباراً عن أمر غيبي إلّا أنه يصح أن يكون شاهداً ودليلاً؛ لأن العقل يقضي به، فإن العقل السليم يقضي بوجوب وجود يوم يحضر فيه جميع الخلق عند الله سبحانه ولسببين:

السبب الأول: لأجل تحقيق الغاية الإلهية في التكوين، فإن الحكيم لا يخلق الخلق ويفنيهم ولايبقي الصالحين منهم لاستلزامه العبثية من الإيجاد، والظلم في عدم الإبقاء؛ إذ لو أراد الباري عز وجل أن لا يبقي الصالحين من العباد ويفيض عليهم نعمه فلماذا خلقهم إذاً؟ وهذا مفاد قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿خلقتم ... للبقاء لا للفناء﴾[1].

فالعقل يقضي بأن إيجاد الخلق يستدعي بقاءه، وإلّا كان الإيجاد عبثياً، وهو ينافي حكمة الحكيم، ولو أراد أن يفنيهم - جدلاً - لأنه قادر على كل

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص١٧٤؛ الأمالي (للطوسي): ص٢١٦، ح٣٧٩، وفيه: ﴿إنا خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء﴾.

شيء فإن أفنى الصالح والطالح معاً لزم إفناء من لايستحق الإفناء وهو ظلم بحقه، والعقل يقضي بامتناعه؛ لذا يؤكد القرآن الكريم أن الصالحين من الخالدين في الجنة والنعيم، والطالحين من الخالدين في النار والجحيم، وهناك بحث بين أهل المعقول في أن الخلود في النار أبدي أم لا، ومحل بحثه في علم الكلام.

السبب الثاني: لأجل تحقيق الغاية الإلهية في التشريع، فإن البشر فيهم الظالم والمظلوم، وفيهم المطيع والعاصي، وفي الغالب أن أهل الدنيا والظلمة هم المتحكمون بالدنيا وأهلها، وعاثوا في الأرض وأهل الأرض فساداً؛ لأنهم لا يتقيدون بقيم أو مبادئ أو أخلاق إنسانية، وهذا ما لا يرتضيه الباري، وقد نهى عنه، وأرسل الأنبياء والرسل، وأنزل الكتب لمنعه، إلّا أن العناد والمكابرة والاستهزاء منعت من ذلك، فلا بد من وجود يوم يقتص فيه الباري من الظالم، وينتصف للمظلوم، ولا بد وأن يعوِّض المظلوم كما يعوِّض المؤمن على طاعته وعلى ما لا قاه في دار الدنيا من البلايا والابتلاءات، وإلّا كان التشريع متناقضاً، بل كان وجوده لغواً؛ لذا يحكم العقل بضرورة وجود يوم يرجع فيه الناس إلى الله قهراً لا اختياراً لتطبيق العدالة وإعطاء كل ذي حق حقه.

والخلاصة: أن لسان الآية الكريمة انتقل من العطف إلى التنبيه بما وقع على الأمم السابقة من جزاء لأعمالهم ومواقفهم ليقود الناس إلى الإصغاء والاستماع ثم الاعتبار.

اللطيفة الثانية: فرق الموت عن الهلاك

إن الآية المباركة قالت: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ولم تقل (أمتنا) مثلاً، والسبب في ذلك أن الهلاك يقال للموت في إحدى حالتين:

الأولى: أن يكون الموت بسبب عطب نازل(١). يقال هلك الشيء أي عطب فمات ولم يمت حتف أنفه.

الثانية: أن يكون بسبب نعمة إلهية تنزل به، وأما الموت فينزل بسبب الأجل أو الخلاص من الأذى والمرض، وهو رحمة، ولذا عبّر الباري عز وجل عن الأمم السابقة التي أفناها بسبب أعمالها بالهلاك، ولم يعبر بالموت أو الأجل، ولا يشترط اجتماعهما، بل يكفي تحقق أحدهما لصدق الهلاك، إلّا أن الأول يشمل المؤمن وغيره، والثاني يختص بغير المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾(٢) في باب الميراث يحمل على صورة العطب بعرض أو مرض، فلا تصلح لنقض ماذكرنا، ومثله يقال في وصفه لموت يوسف عليه السلام بأنه ﴿هَلَكَ﴾(٣)؛ لأنه مات بسبب أذاهم وتكذيبهم وشكوكهم التي تعطب الأرواح والقلوب.

وكيف كان، فإن الآية دلت على أن الأقوام السابقة نزل بهم عذاب الاستئصال وانقطعوا عن الدنيا.

---

(١) انظر مجمع البحرين: ج٥، ص٢٩٨، (هلك).

(٢) سورة النساء: الآية ١٧٦.

(٣) انظر سورة غافر: الآية ٣٤.

اللطيفة الثالثة: ما معنى المعاد الجسماني؟

في قوله تعالى: ﴿**أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ**﴾[١] على من يعود الضمير؟

الجواب: فيه احتمالان:

أحدهما: على الهالكين؛ لأنهم لا يعودون إلى الدنيا[٢].

وثانيهما: على أهل الدنيا، وربما يقال بالاثنين للإطلاق المنطبق عليهما، لاسيّما على القول بجواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى، إلّا أن الظاهر هو الأول[٣]. والمعنى هو انقطاع العلاقة بينهما، فلا أهل الدنيا يرجعون إلى الهالكين، ولا هؤلاء يرجعون إلى أهل الدنيا، وانقطاعهم يحتمل عدة معان:

الأول: انقطاع أخبارهم، فلا هؤلاء يطلعون على أخبار أهل الدنيا ولا أهل الدنيا يطلعون على أخبارهم، وهو ضعيف؛ لأن القرآن والحديث تحدثا عن أحوال الهالكين في البرزخ والآخرة، واطلع عليها أهل الدنيا، وهؤلاء أيضاً يخبرون عما يجري على أهل الدنيا، فإن الأخبار الحاكية عن عالم البرزخ تقسِّم أهله إلى ثلاثة أصناف: المؤمنون الذين يعيشون في رياض الجنة، والمجرمون الذين يعيشون في حفر النار، والهمّل وهم الذين تساوت حسناتهم وسيآتهم يكونون هملاً كالمخدّر الذي لا يحس ولا

---

(١) سورة يس: الآية ٣١.

(٢) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥٣؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٨١؛ تفسير الميزان: ج١٧، ص٨١.

(٣) انظر نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٦٥؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٤٦.

يدرك، والمؤمنون والمجرمون كل منهم يطلع على أحوال أهل الدنيا. أما المؤمنون فيخبرونهم الملائكة بالأخبار الطيبة لمسرتهم، والمجرمون يخبرون بالأخبار السيئة لعذابهم، وبالنتيجة أن الاثنين مطلعون على أحوال أهل الدنيا فلا انقطاع بينهم.

الثاني: انقطاع أهل الدنيا عن عالم البرزخ فلا يرجعون إلى أهل البرزخ، وانقطاع أهل البرزخ فلا يرجعون إلى الدنيا، وهو باطل؛ لأن الأول مستحيل الوقوع؛ لأن الموت والبرزخ من العوالم المحتومة على جميع الخلق ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ**﴾[1] والثاني معلوم لا يحتاج إلى تنبيه وإلفات، فلو قصد في الآية كان من تحصيل الحاصل وهو ممتنع على الحكيم.

الثالث: انقطاع النسبة بينهم، ولعله أنسب المعاني؛ لأن الهالكين استئصلوا واجتثوا فلم يبق منهم أحد حتى يتناسلوا، فالباقون في الدنيا لا ينتمون إلى الهالكين لا بنسب ولا بحسب، والمراد بالثاني الانتماء إلى نهجهم وسيرتهم، ويعزز هذه الحقيقة الواقع الخارجي، فإن الأقوام التي هلكت من أمثال قوم عاد وثمود ولوط لم يبق منهم أحد حتى يكون لهم أولاد، وقد قال عنهم الباري عزّ وجل بعد أن أهلك جماعة منهم بالصيحة وجماعة بالريح العاتية ووصفهم وهم هلكى بأنهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية؛ لأن قوم عاد مثلاً كانوا طوال القامة، فكان الواحد منهم مصروعاً على الأرض منخوراً جوفه كجذع النخلة الخاوي كجزاء وفاق لخواء عقولهم ونفوسهم

(١) سورة الزمر: الآية ٣٠.

التي أوقعتهم بهذا المصير. قال سبحانه: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾[١] فلا يوجد أحد من بعدهم ينسب إليهم لا في نسب ولا في نهج وحسب، كما لا يوجد لهم أثر، والسر في إفنائهم وعدم إبقائهم يعود لأمرين:

أحدهما: لكيلا يتوارث أبناؤهم صفاتهم في العناد و المكابرة فيشيدوا صرح الكفر والشرك، أو يكون للأبناء العذر في اتباع الآباء بالجبر؛ لأن الأمزجة و الطباع قهرية، و بهذا يسقط عنهم العذر.

ثانيهما: لكيلا يكون جرم الآباء وصمة على الأبناء، فإن الكفر و الشرك و النفاق ومعاداة الأنبياء والرسل و الهلاك بالنقمة الإلهية من القضايا التي يندى لها الجبين، ويندم عليها أبناء آدم، ولا يرتضيها أحد، فلو وقع بها الآباء أصيب الأبناء بالحرج منها، ولأجل الرحمة الإلهية بالأبناء والحجة عليهم لا يبقي لهم صلة بالهالكين ليعيشوا هم اختبارهم ويختاروا طريقهم بأنفسهم، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾[٢] وقد ذكروا له معنى إلّا أنه يكون ناظراً إلى إخفاء المنسوب إليهم بالولادة نفسه وعدم إظهارها حرجاً، فإن الحس بالشيء لا يكون إلّا في الوجود، ولكن لخفائه لا يحس، والركز هو الصوت الخفي[٣]، والمعنى أنك لا تراهم بالعين ولا تسمع لهم صوتاً ولو خفياً هنا وهناك؛ لأنهم أضاعوا أنفسهم بين الخلق، وصاروا كالغائبين أو الأموات

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٨.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٨.

(٣) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٢٨٣.

الذين لا يعرفهم أحد من شدة الحرج، وهذا ما يؤكده الواقع الخارجي أيضاً، فأين بنو أمية من الشجرة الملعونة في القرآن؟ وأين بنو العباس؟ وأين الذين سبقوهم وعصوا الرسول وظلموا عترته الطاهرة واغتصبوا حقوقهم؟ هل يعرف لهم أحد من المنسوبين إليهم؟ لم يبق منهم إلّا الذكرى والعبرة والخزي والعذاب الدائم.

والخلاصة: أن الآية المباركة تعلم وتنذر في وقت واحد، بل هي جملة خبرية في مقام الإنشاء لكي يتنبّه الناس ويلتفتوا إلى أن الاستخفاف بالأنبياء والتعاليم سيجعل مصيرهم كمصير السابقين، ويهلكون بالنقمة الإلهية في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة، ويصيرون هم خبراً لمن بعدهم، كما أن السابقين عليهم صاروا خبراً لهم.

اللطيفة الرابعة: لماذا وصفت الأمم بالقرون؟

وصفت الآية المباركة الأمم الهالكة بالقرون، وقد تكرر هذا الإطلاق في آيات عديدة فلماذا؟

والجواب: أن القرن له معان عديدة عمدتها معنيان:

الأول: الجماعة من الناس المتقارنة في الزمان يقال لهم قرن؛ لأنهم يعيشون في زمان واحد، وهو مأخوذ من قرن الشيء بالشيء أي وصله به، وأهل الزمان الواحد متصلون في أعمارهم ومعيشتهم وعاداتهم[١].

---

(١) معجم مقايس اللغة: ص٨٥٢، (قرن)؛ التبيان: ج٨، ص٣٤٦؛ وانظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٤٦.

الثاني: التسمية، فإن القرن اسم من أسماء الأزمنة مثل اليوم والشهر والسنة والعقد، فاليوم يحصل بلحاظ الساعات، والشهر بلحاظ الأيام، والسنة بلحاظ الشهور، والعقد بلحاظ عشر سنوات، والقرن يقدر بثلاثين وقيل بسبعين سنة[١]، وقيل بثمانين[٢]، وقيل مائة سنة، ويسمى بذلك لأنه يقرن أهله ببعضهم، وذكروا له معاني أخرى نوكلها لمحلها وبعضها تقدم.

والظاهر أن الاعتبارين مآلهما واحد، وإنما يختلفان باللحاظ، فإن أصل القرن من الاقتران، فاذا لوحظ اقتران الناس ببعضهم في مدة من الزمان يقال لهم قرن، وإذا لوحظ أنه مدة الزمان التي يقترن فيه الناس يقال له قرن، ولا أثر مهم للفرق بينهما، والأهم من ذلك هو لماذا يسمي القرآن هؤلاء بالقرن ولم يسمهم بالقوم أو الأمة؟

الجواب عن الأول: لأن القوم يطلق على جماعة الرجال كما قال بعض أهل اللغة[٣]، فلا يشمل النساء، مع أن الهلكى يشمل الاثنين، أو لأن القوم يطلق عليهما إلّا أن القوم أعم من القرن؛ لأن القوم يشمل الأسلاف والأحفاد وليس بالضرورة مقترنون في زمان.

والجواب عن الثاني: أن الأمة تطلق على الجماعة من الناس الذين

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٤٢٧، (١٧١٦).

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٢٩٨، (قرن).

(٣) معجم مقاييس اللغة: ص٨٣٩، (قوم)؛ انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٩٣، (قوم).

يجمعهم أمر واحد أو غرض واحد، والكفار الهلكى ليسوا كذلك؛ لأنهم متفرقون في المبادئ والأعراف كما هو شأن أهل الدنيا، فإن جامعهم المصلحة، وهي متفرقة وتوجب التفرق، ويشهد له قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**﴾[1] أي كانوا على نهج واحد هو الضلالة والكفر، ولما بعث الأنبياء فيهم اختلفوا وصاروا أمتين: أمة موحدة وأخرى كافرة، أو كانوا على الفطرة وبعث النبيين لبيان التفاصيل وإقامة الحجة، ومثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾[2] وسماها أمماً باعتبار اختلاف أسلوبها ونهجها في نظام معيشتها، ولكنها بالقياس إلى أصنافها كل صنف منها أمة، والتعبير بأمثالكم لبيان التشابه بين المجتمع البشري والحيواني إلّا ببعض الخصائص الخاصة، وهو أدق من التعبير بالشبيه والمساوي والشكل؛ لأن الشبه يقال للمشارك في الكيفية، والمساوي يقال للمشارك في الكمية، والشكل يقال للمشارك في القدر والمساحة.

فالأمة تطلق على الجماعة المتشاركة في الغرض، وأما إذا تفرقت أغراضها صارت قرناً، كما أن الأمة أعم من القرن؛ لأنها تشمل الكفار وغيرهم والسابقين واللاحقين، فالتعبير بالقرن هو الأنسب لحصر المعنى بالقوم الهالكين؛ لأنهم اقترنوا في الزمان و في العذاب.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٨.

اللطيفة الخامسة: لماذا عبرّ بالرؤية دون العلم؟

إن الآية قالت: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾[(١)] وفيها سؤلان:

السؤال الأول: كيف يرون وهم هلكى أو سيهلكون؟

والسؤال الثاني: كيف يرون والفاصلة الزمنية بينهم كبيرة، والهلاك قطع آثارهم؟

والجواب عن السؤال الأول من وجوه:

أحدها: أن الخطاب وإن كان للهلكى ولكن ليسوا هم المقصودين به، بل غيرهم من أهل الدنيا لأجل أن يتعظوا ويعتبروا، فيكون خطاب الآية من باب إياك اعني واسمعي ياجارة.

ثانيها: أن الخطاب موجه للهلكى قبل هلاكهم حتى يعرفوا سبب هلاكهم، وفي عين الحال ليكون عبرة.

ثالثها: أن الخطاب موجه للاعم وهو الأوجه، ولامانع عند أهل البلاغة والأدب من إطلاق لفظ الخاص وإرادة العام به كالآيات التي تخاطب النبي وتريد عموم المسلمين، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾[(٢)] مع أن الجهاد أعم، أو تخاطب المسلمين في زمانه

---

(١) سورة يس: الآية ٣١.

(٢) سورة التحريم: الآية ٩.

وتريد غيرهم أيضاً كقوله : ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ**﴾[1].

والجواب عن السؤال الثاني: أن الرؤية تطلق على كل نظر وإبصار سواء وقع بالعين أو بالقلب والبصيرة[2]، وبناء على أن الرؤية العلمية ترجع إليه لذا قال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وآله: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾[3] مع أنه صلى الله عليه وآله لم يكن حاضراً، ولم ير الحادثة بعينه، إلّا أنّه كان يعلم بها إما بإخبار الله له أو إخبار قومه له، وإنما عبر بالرؤية دون العلم لسببين:

السبب الأول: لأن الرؤية تتعلق بالأمر الموجود بينما العلم فيتعلق بالموجود والمعدوم[4].

السبب الثاني: أن الرؤية بالبصيرة لها رتبتان هما العلم والظن بمراتبهما، ولاتشمل الشك والوهم كقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ۝ وَنَرَاهُ قَرِيباً**﴾[5] فإن القوم يرون أمر الآخرة بعيداً أي يظنونه كذلك، وأما نحن فنعلمه أنه قريب، وعلى هذا تنطبق رؤية الأمور الموجودة بالرؤية الحسية أو بالنقل المتواتر، والنقل بالآحاد الذي يحتف بالقرائن فيفيد العلم، كما ينطبق على

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٤١٥، (رأى).

(٣) سورة الفيل: الآية ١.

(٤) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٢٦٣، (١٠٣٦).

(٥) سورة المعارج: الآيتان ٦-٧.

أخبار الآحاد وروايات المؤرخين ونحوهما، وحيث إن الموضوع يتعلق بالماضي وبيان مصير الأقوام السابقة فإنه قد يكون خبرهم معلوماً أو مظنوناً بحسب درجة النقل، وقد يكون بالنظر إلى واقعهم وآثارهم نظير بدن فرعون الذي أبقاه الباري عز وجل آية لازالت موجودة ينظرها الناس فتكون الرؤية حسية.

ونلاحظ أن التعبير بالرؤية هنا يشمل الرؤية بأقسامها وأصنافها، وكلها تجتمع في غاية واحدة وهو الاتعاظ والاعتبار بأحوال الأمم السابقة التي نزل بها الهلاك نتيجة أفعالهم، وبذلك يعرف السر في عدم التعبير بالنظر، ولم يقل (ألم ينظروا كم أهلكنا) لأن النظر يختص بالرؤية الحسية.

والاستفهام الاستنكاري يدل على وقوع الهلاك للأقوام السابقة بكثرة؛ لدلالة (كم) عليه، وأنهم كانوا قد علموا بذلك بالحس أو بالنقل.

اللطيفة السادسة: في قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَمَّا﴾[1] اختلف المفسرون في (إن) أنّها توكيدية مخففة من الثقيلة أو نافية تقوم مقام ما، وفي (لَمّا) هل هي حينية استقبالية تفيد الوقت كقول القائل (لما جاءك النصر) أي حين أو هي بمعنى (إلّا)، وبناء على النفي و الاستثناء يكون المعنى وما كل إلّا جميع لدينا محضرون، وبناء على المخففة والحينية يكون المعنى (وإنهم جميع لدينا لمحضرون)[2]، وهناك

---

(١) سورة يس: الآية ٣٢.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٧١.

آراء أخرى لا يهم ذكرها[١]، والقول الأول بعيد عن المنطوق، وفيه تكلف، وإن كانا من حيث النتيجة مشتركين؛ إذ كلا القولين يؤكدان حتمية وقوع الحضور عند الله سبحانه.

والمحصلة: أن الآية الأولى تحث الناس على النظر في هلاك السابقين، والثانية تؤكد حضورهم ثانية إلى ربهم، فكما أن حدوثهم لم يكن باختيارهم فكذلك هلاكهم وعودتهم، بل كل ذلك كان برحمة الله وحكمته وقدرته؛ إذ لايوجد عبث ولا جزافية في تقلبات الوجود وتبدلات نشآته.

---

(١) انظر روح المعاني: ج٢٣، ص٩-١٠.

المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين الكريمتين

وهي عديدة:

التعليم الأول: نقصان نظرية الطبيعيين والحكماء

إن الآية الأولى تدل على حجية الرؤية الحسية والنقلية سواء كانت علمية أو ظنية، فلا فرق بين مايراه الإنسان بباصرته أويراه بقلبه أو ينقل إليه وبه ينقطع العذر، ويصح الاحتجاج به سواء أفاد النقل العلم أو الظن العقلائي، وظاهر المنطوق أن الحجية تدور على الرؤية فلا تتوقف حجيتها على حصول الظن بصدق الخبر، وبذلك يندرج تحت الحجية الخبر المتواتر والمستفيض والواحد المحتف بالقرينة، وكذا المجرد عنها؛ لأن الجميع داخل ضمن الرؤية عرفاً، ويرجع إلى الوثوق النفسي.

وبذلك يتضح أن أصول العلم وقواعده تقوم على اعتبار الحس والعقل والنقل، وما لا يدركه الحس قد يدركه العقل، وما لا يدركه العقل قد يثبته النقل، فنظرية الطبيعيين والحكماء ناقصة علمياً؛ لأن الأولى تعتمد على الحس والثانية على العقل، وكلاهما لا يوصلان إلى المطلوب دائما فلابد من النقل المستند إلى المعصوم عليه السلام.

التعليم الثاني: دراسة التأريخ واجبة

إن حوادث الأيام ووقائعها متشابهة في الجوهر ومختلفة بالمظهر، وكذلك المصائر، فيجب معرفة الحاضر والمستقبل من الماضي، وقديماً قالوا أنّ الأمة التي لا تأريخ لها لا يمكن أن تكون متجذرة في الحضارة، وعلى هذا فإن الأمة إذا أرادت التقدم و الارتقاء أو أرادت أن تحصن نفسها من الأعداء لابد أن تقرأ التأريخ، وتعرف ما جرى من حوادث، ودراسة التأريخ تتم من ثلاثة جوانب:

الأول: معرفة الحوادث والوقائع و أسبابها.

الثاني: فقه التأريخ، فإن التأريخ يعلّم، ولحوادثه أحكام وآثار ونتائج.

الثالث: فلسفة التأريخ، ويراد بها الروح العامة الجامعة بين حوادثه وأحداثه، فلو لوحظ مثلاً أن الباري عز وجل أهلك بعض الأقوام السابقة وبعضها أهلكها بالريح وبعضها بالصيحة وبعضها بالزلزال فإن هذه الحوادث متفرقة في ظاهرها إلّا أنّ لها حقيقة مشتركة لو لوحظت تعلم الإنسان منها في الحاضر والمستقبل، وهذه الحقيقة المشتركة هي السبب الذي أدى إلى هلاك هذه الأقوام وإن كان لكل واقعة بعض الخصوصيات والمزايا، وهذا هو الفارق الأساس بين الباحث والمحلل والفيلسوف وبين المؤرخ، فإن المؤرخ يدّون الحوادث فقط، وأما الباحث والمحلل فيلخص العناصر المشتركة بينها ليستنتج منها كبرى كلية تطبق في الموارد المشابهة.

وكمثال على ذلك هداية الأرض والإنسان وفساده يدور بين نهجين: نهج الأنبياء والأولياء ونهج الحكام والسلاطين وأهل الدنيا، وجميع الأنبياء يشتركون في هدف واحد هو الروح العامة وهو إنقاذ الإنسان من الجهل والظلم والفساد، وإصلاح الأرض بالعلم والنور، وهذة هي غاية الدين، وأما الملوك والسلاطين فجامعهم المشترك هو السيطرة على الإنسان واستعباده واستغلال خيرات الأرض لمصالحهم الخاصة، فالأول طريق النور، والثاني طريق الظلام، ولذا دام الصراع بينهم على طول التأريخ ولازال، ومظاهر هذا الصراع متعددة لكن جوهره واحد، و هذا ما يجب أن يعرفه الناس حتى يتعلموا ويتعظوا من التأريخ، ولما يغفل الناس عن هذه الحقيقة قال سبحانه: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ**﴾[1] وورد في بعض الأخبار: ﴿سر في ديارهم واعتبر آثارهم﴾[2] فإن الرؤية هنا تشير إلى أمرين:

الأول: معرفة الحدث الواقع.

الثاني: معرفة سببه ونتيجته حتى يتعلم منه.

---

(١) سورة يس: الآية ٣١.

(٢) البحار : ج٧٤، ص٢٠٠، ح١؛ كشف المحجة: ص١٦٠؛ مستدرك سفينة البحار: ج١٠، ص٢٧٨.

التعليم الثالث: حرمة تتبع العثرات

إن الحياة الدنيا وراءها نهاية، فإن كانت حياة الإنسان في الدنيا طيبة كانت نهايته كذلك، وإن كانت سيئة كانت نهايته كذلك؛ لذا ورد في الأحاديث: ﴿صنائع المعروف تقي مصارع السوء﴾[1] أي من يصنع المعروف - بأي مصداق تحقق المعروف - يضمن النهاية الطيبة، كما يضمن حياة برزخيه طيبة.

وصيغة الجمع في صنائع تفيد لزوم المواصلة عليها، وبعكس ذلك تكون عاقبة المسيئين، وإن من أبشع الإساءات التي تفرض عاقبة سيئة على أهلها هي التعالي والاستهزاء والاستخفاف بالمقدسات وما يستحق أن يعظَّم، وهو سلسة متواصلة من المقدسات من أعلاها وهو الباري عزّ وجل إلى أدنى مراحلها وهو الإنسان العادي فإنه كريم على الله وعزيز، ولا سيما إذا كان مؤمناً، فإن حرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمة الكعبة المشرفة[2]، فكيف إذا كان المؤمن من العلماء الأجلاء أو من أهل البر والتقوى، فليحذر الذين ينتهكون حرمات الناس بالغيبة والبهتان وتتبع عثراتهم والاستخفاف بهم لاسيما العلماء، فإن المصير سيكون الهلاك

---

(١) الكافي: ج٤، ص٢٩، ح١؛ الأمالي (للصدوق): ص٣٢٦، ح٣٨٣؛ تحف العقول: ص٥٦.

(٢) مستدرك سفينة البحار: ج٢، ص٢٧١؛ وفيات الأعيان: ج٣، ص٢٨٨، وفيه: ((حرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة)).

والعاقبة السيئة، وقد تضافر في الأدلة أن الذي يعيب على مؤمن شيئاً يصاب به، ومن تتبع عثرات الناس تتبعت عثراته.

التعليم الرابع: إبطال نظرية الطبيعيين والحكماء في المعاد

إن من لطف الدلالة في الآية الثانية أنها ذكرت أن الهلاك وفناء الهالكين وانقطاعهم يختص بالنشأة الدنيوية، وسيعودون ويحضرون عند الباري عزّ وجل، ولكن لم تحدد في أي وقت ومكان، أي لم تحدد المعاد الذي يتم به الحضور، وفي ذلك دلالة على حقيقة هامة طالما وقع الاختلاف فيها بين جماعتين:

الجماعة الأولى: الطبيعيون الذين ينفون وجود المعاد؛ لأنهم ينفون المبدأ أيضاً، أو يقرون بالمبدأ وينفون المعاد؛ لأنهم بنفون وجود عدل وقضاء، كما ينفون عن المبدأ الذي أوجد العالم صفات الكمال والجلال، والآية تركز على دعواهم، وتثبت وجود هذه الحقيقة، والعاقل يجب أن يصدق الآية ويكذب دعوى هؤلاء لسببين:

أحدهما: أن ما يقوله القرآن هو ما يقضي به العقل كما تقدم تفصيله، وقد ذكر أهل المعقول أدلة عقلية كثيرة لإثبات المعاد.

ثانيهما: أن المعاد من الحقائق الغيبية التي لا يمكن للطبيعي والملحد أن ينفيها؛ لأنه يؤمن بوجود المحسوس فقط، وينفي وجود غير المحسوس، فيجب الرجوع فيه إلى من يملك أمر المعاد ويطلع على أحواله، ويصدق فيما يخبر ويقول، والطبيعيون لا يمكنهم أن ينفوا صحة الأخبار الواردة عن

عالم الغيب؛ لأنهم يؤمنون بالتأريخ والوقائع التأريخية، وقد صدقوا فيها المؤرخين، ولايمكنهم أن يكذبوهم ماداموا لا يعلمون بكذبهم، مع أن الماضي بالنسبة إليهم غيب، وفي عين الحال يصدقون المعلمين والمرشدين حينما ينقلون المعلومات في مختلف العلوم والمعارف كالقضاء والفلك والفيزياء والكيمياء وعلوم الأحياء ونحوها، وبعضها تخبر عن وقائع مستقبلية، وهذه كلها يصدقونها ويرتبون عليها الأثر، ولايمكنهم أن ينكروها، فيجب عليهم أن يصدقوا مايخبره الله والنبي عن عالم الغيب، ولا يكذبونه، فلو كذبوا ما يقوله الدين وصدقوا ما يقوله المؤرخون والعلماء في العلوم وقعوا في تناقض من جهتين: هما التناقض والخلف؛ لأنهم صدقوا الأخبار عن بعض الأمور الغيبية التي لا تدرك بالحس وكذبوا غيرها وهو تناقض، لأن سبب تكذيبهم للمعاد إن كان لكونه أمراً غيبياً فكذلك الإخبار عن الماضي والإخبار عن الحقائق العلمية، فلماذا يفرقون بين غيب وغيب و بين مخبر ومخبر؟ وإن كان سبب تكذيبهم هو كونه إخباراً من الله والرسول كشف عن عدم موضوعيتهم في النظرية والاستدلال، وأن آراءهم مبنية على عداء للدين وليس عن قناعة علمية، وهو خلف.

فالطبيعون والملاحدة لو اعتمدوا المنطق والاستدلال العلمي فليس أمامهم إلّا أحد خيارين إما أن يكذبوا التأريخ والعلوم المختلفة التي تتحدث عن عوالم غيبية غير محسوسة أو يصدقوا بما يخبر به القرآن والسنة فيؤمنوا.

الجماعة الثانية: الإلهيون الذين يؤمنون بالمبدأ والمعاد ولكنهم كالحكماء ينفون أن يكون المعاد في الآخرة جسمانياً، أي بالجسد الدنيوي، وإنما

يقولون إن المعاد روحي فقط، أو يقولون تحل الأرواح في أبدان مثالية تناسب الأرواح ويكون الحشر بها في الآخرة على تفصيل ذكر في علم المعقول وهم أيضاً وقعوا في تناقض لسببين:

السبب الأول: أنهم آمنوا بوجود خالق عظيم قادر على كل شيء ومريد عليم وأن كل ماسواه مقدور له، فلو أخبر أنه سبحانه سيعيد الخلق ويحضرهم بأجسادهم إليه وأجسامهم لماذا ينكرون ذلك مع أن القادر واحد، والقدرة المطلقة موجودة، وقد أخبر أنه سيعيد الخلق كما بدأه أول مرة؟

فإن قيل لايعيدهم بأجسادهم لاستحالة الإعادة؛ لأنَّ الموت يفني الجسد تماماً فإعادته نفسه في الزمان الثاني ممتنع؛ لأن الجسد الثاني غير الأول؛ لأن الزمان يميز بينهما، ففيه أجوبة:

الجواب الأول: أن هذا الإشكال لا يستقيم على مبانيهم؛ لأنهم قالوا بأن الزمان لا حقيقة له، وإنّما هو أمر اعتباري نحن نفترضه من الحركة الحاصلة في الأفلاك، والأمر الاعتباري لا يمكن أن يميز بين أمرين حقيقيين.

الجواب الثاني: أن القول بأن الأجساد تفنى بمعنى تنعدم غير صحيح؛ لأن بعض الأجسام تبقى على ما هي في قبورها كما تضافرت به الأدلة وأقره الواقع المتواتر، فهو أخص. **هذا أولاً**.

وثانياً: أن الأجساد تتحلل إلى عناصرها الأولية ولا تفنى، ويمكن أن يعاد جمعها ثانية، كما يحلل الكيمياوي الشيء إلى عناصره الأولية ثم يركبها.

الجواب الثالث: أن بعض الجسد وهو أصله لا يفنى ولا يتحلل يبقى في القبر، وهو الذي يعيده الباري عز وجل في الآخرة؛ لأنه أصل شخصية الجسد، وأما الأشياء الفانية الزائلة فهي عوارض تحدث وتزول، نظير الألوان التي تطلي الشيء وتزول، إلّا أن لب الشيء باق.

وللكلام تفاصيل كثيرة حققناها في علم الكلام يمكن مراجعة كتابنا الحقائق والدقائق فيه(١)، ونلاحظ أن الحكماء بإنكارهم للمعاد الجسماني وقعوا في تناقض من جهة إقرارهم بعموم القدرة وإقرارهم باعتبارية الزمان وفي عين الحال نفوها.

السبب الثاني: أنهم حيث آمنوا بالخالق العظيم وأنه يجل عن الخطأ والكذب والاشتباه وأنه لا يخبر إلّا عن الواقع وجب تصديقه فيما يخبر وإن رأى الإنسان بمقتضى عقله أن ما أخبر به على خلاف الواقع؛ لأن العقل لا يدرك إلّا ما كان في حيطة علمه وإدراكه، والغيب ليس منه. نعم يبقى الإشكال الذي ذكره الحكماء وهو استلزام المعاد الجسماني إعادة المعدوم وهو مستحيل فينبغي أن ترفع اليد عنه.

أولاً: لأن من أخبر به حكيم وعالم بما يستحيل وما لا يستحيل، ولو كان مستحيلاً لم يخبر عنه، فيكون دليلاً على توهم الاستحالة وإن كنا نجهل جهة العدم.

---

(١) الحقائق والدقائق: ج٧، ص٣٠.

وثانياً: أن كل ما يقضي به عقل الحكماء هو ظن وليس بقطع ويقين؛ لأن ما حكموا به مبني على افتراض فناء الجسد وانعدامه، وهذا ليس يقينياً، وماليس بيقين ترفع اليد عنه مقابل إخبار الصادق المعصوم، وإلّا لزم نسبة النقص إليه وهو ممتنع.

ونلاحظ أن الآية المباركة حيث أثبتت وجود يوم يحضر فيه جميع عند الله سبحانه ابطلت نظرية الطبيعيين والحكماء والإلهيين، ولذا قال العلامة المجلسيقدس سره: إن القول بالمعاد الجسماني مما اتفق عليه جميع المليين، وهو من ضروريات الدين، ومنكره خارج عن عداد المسلمين، والآيات الكريمة في ذلك ناصة لا يعقل تأويلها، والأخبار فيه متواترة(١).

إن قلت: الآية أثبتت حضور الخلق ولم تثبت حضورهم بأجسادهم؟

فالجواب: أن الحضور لغة وعرفاً يعني الشهود بعد الغياب. يقال أحضر القاضي الشهود أي جلبهم عنده أي بأشخاصهم، ومنه الاحتضار يقال للموت؛ لأنه غائب ثم يحضر، ويقال ذهبت لمحضر العالم أي شهدته وكنت عنده(٢).

وفي قوله عز وجل: ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً**﴾(٣) أي شاهداً، والمحاضرة يقال لها محاضرة لأن المتحدث والمتحدث معه

(١) البحار: ج٧، ص٤٧، تذنيب؛ مستدرك سفينة البحار: ج٧، ص٤٦٧.

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٧٢ـ ٢٧٣؛ معجم مقاييس اللغة: ص٢٥١، (حضر).

(٣) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

يجتمعون ويشاهدون بعضها، وتحضر أقوالهم وحججهم في الكلام[١]، فحضور الخلق تعني شهودهم بعد غيابهم، وهو لا يكون إلّا لعين الغائب لا غيره أي جسده وروحه، والآية عبرت عن ذلك بالحضور ولم تعبر بالشهود فقالت: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾[٢] ولم تقل (يشهدون) لأن الشهادة تكون مع العلم، والحضور أعم، وليس جميع من سيعادون يعلمون، بل بعضهم يبقون على جهلهم؛ لأنهم هُمّل كما تقدم بيانه[٣].

كما أن الشهود يتضمن الاختيار في الحضور، بخلاف الحضور، وصيغة اسم المفعول تدل على أن الحضور قهري وشامل للجميع، إلّا أن النكتة اللطيفة أنها قالت: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للإشارة إلى أنه إخبار عن واقع سيحصل في المستقبل، وستأتي الآية (٥٣) وتنص على فعلية حضورهم، فما يتوهمه البعض من أن (لما) زائدة على خلاف التحقيق، و(إن) تأكيدية، (وجميع وكل) كلاهما من أدوات العموم إلّا أنهما حيث اجتمعتا فإن الكل باعتبار حضور جميع الأمم والجماعات، وجميع للدلالة على حضور كل فرد منها، فهناك حضور جماعي وفردي للمحشر، و﴿لَدَيْنَا﴾ تدل على أمرين:

أحدهما: أن الحضور يكون عند الباري عز وجل وضمير الجمع للتعظيم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٤٢، (حضر).

(٢) سورة يس: الآية ٣٢.

(٣) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٢٩١، (١١٦٤).

ثانيهما: وجود الوسائط في الإحضار وفي المحاسبة وهم محمد وآل محمد عليهم السلام، فإن إياب الخلق إليهم وحسابهم عليهم؛ لأنهم خلفاء الله سبحانه وحججه على خلقه.

التعليم الخامس: زمان الرجعة وغايته

إن الآية المباركة أكدت الحضور عند الله سبحانه ولم تفصل وقته وكيفيته إلّا أن مفردة الحضور فضلاً عن الآيات والروايات المعتبرة تدل على وجود حضورين:

أحدهما: الحضور في الآخرة، و هذا واضح ولا اختلاف فيه.

وثانيهما: الحضور في الرجعة، وهو زمان خاص يتوسط عالم الدينا والآخرة هو نهاية زمان الدنيا وبداية عالم الآخرة. يرجع فيه المؤمنون الصالحون الذين محضوا الإيمان محضاً، والكافرون الطالحون الذين محضوا الكفر محضاً[(١)]، وسيكون ذلك في زمان ظهور حجة الزمان صلوات الله عليه وعجل فرجه، وذلك لغايتين:

الغاية الأولى: اقتصاص المؤمنين من الكافرين الظالمين وأخذ حقوقهم منهم، وهذا من الوعد الإلهي للمؤمنين الذي لا يختلف ولا يتخلف؛ إذ وعد الباري عز وجل المؤمنين بأنهم سيرثون الأرض ومن عليها، وأن الفتح وعاقبة الأمور ستكون إليهم وإن تجبّر الكفار والظلمة واستولوا على مصائر العباد والبلاد في مدة.

---

(١) انظر سفينة البحار: ج٦، ص٥٣٦.

والغاية الثانية: تصفية العوالق والمتبقيات من شؤونهم الدنيوية وإتمام الحجج عليهم قبل الانتقال للآخرة.

إن قلت: أليست الآخرة مكان القصاص والاقتصاص؟

الجواب: الآخرة مكان الحساب والعقاب والثواب، وهي محكمة يقضى فيها للمظلوم على الظالم، ويحاسب الناس على مافرطوا من حقوق الله سبحانه، إلّا أن الرجعة محل الاقتصاص وإقامة العدل الإلهي على الأرض، والاعتقاد بالرجعة ليس من العقائد الثابتة التي تواترت فيها الأدلة فقط، بل لعلها من أكثر الحقائق والمفاهيم الواردة في الأدعية والزيارات المعتبرة، وقد فصل البحث فيها علماؤنا في مباحثهم الكلامية، كما فصلنا فيها في كتاب الحقائق والدقائق(١)، وهي من مختصات عقائد الشيعة، وعليها إجماعهم(٢)، وقد أشكل بعض مفسري العامة على ذلك وقال بأن الشيعة يستدلون بالآية المذكورة على الرجعة وهو باطل، واستدل برواية ابن عباس التي لا تصلح دليلاً علينا؛ لأن ابن عباس راوٍ، وقول الراوي لا حجة له، كما لاحجة لقول الصحابي عندنا، كما أن مضمونها ضعيف من وجوه عديدة(٣)، ونكتفي في مناقشته ببيان أمرين:

---

(١) الحقائق والدقائق: ج٧، ص٣٤٠.

(٢) رسائل المرتضى: ج١، ص١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) انظر روح المعاني: ج٢٣، ص١٠؛ روح البيان: ج٧، ص٣٩٠.

الأمر الأول: أن الآية المباركة نصت على حضور الناس لدى رب العالمين ولم تحدد الوقت والمكان، فالإطلاق يشمل الرجعة ويشمل الآخرة، فحمل المطلق على أحد معانيه دون دليل بعيد عن التحقيق.

إن قلت: الدليل على العودة في الآخرة موجود. قلنا وكذلك الدليل على الرجعة موجود، فلماذا خصص المعنى بالأول؟

دلائل الرجعة عقلاً ونقلاً

الأمر الثاني: أن أصل الرجعة والعود إلى الدنيا بعد الموت أمر لا يحكم العقل بامتناعه، بل يحكم بإمكانه؛ لوجود المقتضي وانعدام المانع. أما المقتضي فلأن الباري عز وجل قادر على إرجاع الموتى لعالم الدنيا قبل الحشر، ولا يلزم من إرجاعهم محذور.

يبقى الكلام في وقوع الرجوع وعدمه، وهذا ليس من شأن العقل، بل يرجع فيه إلى النقل، وحيث تضافرت الآيات والروايات على وقوعه وجب التصديق والإيمان به كما هو الحال في سائر الأمور الغيبية التي نصدقها بعد أن أخبر القرآن الكريم بوقوعها كالرجل الذي مر على قرية فوجدها ميتة خاوية وقال: كيف يحييها الله سبحانه بعد موتها؟ فأماته الله مئة عام ثم أحياه مرة أخرى.

وفي الروايات الشريفة أنّه عُزير وكان نبياً وكلامه كان لأجل اليقين بكيفية الخلق لا اليقين بالقدرة[١]. يقول تعالى: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إلى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[٢] و﴿**أَنَّى**﴾ قد يراد بها الظرفية الزمانية والمكانية، أو تتضمن السؤال عن الكيفية فتكون بمعنى كيف، والأولى يعني في أي زمن سيعيدها الباري، والثانية يعني بعد أن تفنى الأجساد من أين يعيدها؟ والثالث بمعنى كيف يعيدها؟ وهذا هو المعنى في الآية؛ لأن السائل ليس بجاهل، بل هو نبي من الأنبياء، ومنطوق الآية وقرائنها الحالية والعقلية تدل على أن المقصود بالقرية ليس ذات الحيطان والدور والمزارع، بل أهلها؛ لوضوح أن الحيطان تبنى والبيوت تعمر والأشجار تحيا وهو امر يشهده الجميع وغير خفي، إلّا أن ما يخفى هو الإنسان إذا مات كيف يحيا؟ هذا هو العجب؛ لأن الأبدان تحللت والعظام نخرت وصارت رميماً.

ويعزّز ذلك أنّ الباري عز وجل لم يحي له أهل القرية؛ لأن مدتهم في الدنيا انتهت وقد دخلوا عالم البرزخ، ومن سننه أن الداخل في البرزخ لا

---

(١) انظر تفسير العياشي: ج١، ص١٤٠، ح٤٦٦ من سورة البقرة.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

يعود، ولكن السائل لازال أجله باقياً في الدنيا، فأراد الباري أن يثبت له الحقيقة فأماته ثم أحياه، وفي ذلك دلالة على أن له شأناً ومنزلة عند الله حتى كلّمه وأراه كيف يحيي الموتى؟ وأراه ذلك في نفسه ليكون على يقين جازم، ولم يحيه فوراً لكي يثبت كيفية عودة الجسد بعد تحلله، وفي عين الحال لا يدعي مدّع أنه كان مغمى عليه، أو كان مخدراً وروحه باقية، بل أماته حتى تحلل جسده وفني، وكذلك حماره، ثم أحياه من جديد ليكون آية وحجة له ولغيره، وهم ثلاث جماعات: الذين ينكرون المعاد، والذين ينكرون المعاد الجسماني، والذين ينكرون الرجعة، والآية دالة على أن إحياء الحمار تم بعد إحيائه؛ لذا قال له: ﴿**انْظُرْ إلى حِمَارِكَ**﴾ ثم قال: ﴿**وَانْظُرْ إلى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً**﴾ أي ليرى مراحل الإعادة والتكوين كيف تحصل.

وفي الآية دلائل على معان كثيرة نكتفي بما يهمنا في البحث:

منها: أن الإنسان بعد العود إلى الدنيا يبقى على فهمه وشعوره ودركه.

ومنها: أن الطعام والشراب يمكن أن يبقى مائة عام فلا يتسنه ولا يتلف بإذن الله، وفي الأخبار أن طعامه كان اللبن، وشرابه العصير، ومن عادتهما سرعة التغير، ومعنى لم يتسنه أنه لم يفسد ولم ينقص منه شيء، أي لم تبخره الشمس، ولم تشرب منه الحيوانات، ولم تأكله الديدان والأجساد أولى، وكذلك حال بعض الأجساد في القبور، فضلاً عن الأحياء في الدنيا يمكن أن تطول أعمارهم فلا يموتون.

ومنها: أن نشوز العظام يعني ارتفاعها وقيامها من التراب ثم التحاقها ببعضها من الهيكل العظمي، فإعادة تكوين العظام من التراب ثم تركيبها ثم إكساؤها باللحم هي لا تخلو من إعادة المعدوم أو إيجاد المعدوم.

وواضح أن القاعدة تقضي بأن الوقوع أدل دليل على الإمكان، وعلى أمكان الوقوع مرة أخرى؛ لأن الأمثال حكمها واحد، ومادامت القضية تتعلق بإرادة الله وقدرته وقد أخبر الصادق بها وجب تصديقها، فنفيها والحال هذه مكابرة وعناد على العلم والحقائق العلمية، وعلى التصديق بالشرع، لا سيما وقد وردت روايات كثيرة جداً من طرق الفريقين تثبت هذه الحقيقة، ولا يسعنا المجال لذكرها هنا[١].

ويتحصل: أن منطوق الآية وإطلاقه يشمل الرجعة، فنفيها يفتقر إلى دليل وهو مفقود، بل الآيات الكريمة تدل على وجود رجعات عديدة ذكرها القرآن في مواطن عديدة بعضها جماعية. منهم جماعة خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت والجهاد في سبيل الله بحجة مرض الطاعون فأماتهم الله ثم أحياهم كما في سورة البقرة[٢]، ومنهم جماعة من قوم موسى صعقهم الباري ثم أحياهم[٣]، ومنهم بعض من أحياهم السيد المسيح وكانت معجزته أنه يحيي الموتى بإذن الله[٤]، إلى غير ذلك من الشواهد الواقعة في أزمنة مختلفة وقضايا متعددة لتكون دلالة عامة على جميع الخلق وفي جميع الأديان السماوية[٥].

---

(١) انظر الكلام الإسلامي المعاصر: ج٣، ص٣٨٨ ومابعدها.

(٢) انظر سورة البقرة: الآية ٢٤٣.

(٣) انظر سورة البقرة: الآيتان ٥٥-٥٦.

(٤) انظر بصائر الدرجات: ص٦٧، ح١٥؛ الكافي: ج١، ص٢٢٦، ح٧.

(٥) انظر سفينة البحار: ج٢، ص٥١٨-٥٢٠، (إحياء).

إن قال قائل: إنّ ماذكرتم دال على وقوع الرجعة لبعض الناس بالإعجاز الإلهي فما الدليل على وقوعها للعموم؟

والجواب من وجهين:

أولاً: أن الدليل المذكور وإن كان خاصاً ولكنه ينفي الاستحالة العقلية والاستحالة الوقوعية، وحينئذ يكفي للتصديق بها دلالة النصوص وهي كثيرة، بل كثيرة الوقوع، وتنوعه وتعدده كاشف عن عموميته.

ثانياً: أنّ الدليل على العموم متضافر في القرآن والسنّة.

منها: مايستفاد من حاصل الجمع الدلالي بين قوله تعالى: ﴿**وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يوزَعُونَ**﴾[٢] فإنه لولا الجمع بحمل الأولى على حشر القيامة والثانية على حشر الرجعة لزم التناقض.

وبيان ذلك: أنّ الآية الأولى تنص على أن جميع الخلق يحشرون ولا يستثنى منهم أحد، والآية الثانية تنص على أن جماعة من كل أمة يحشرون وليسوا جميعهم وصفتهم أنهم مكذبون بآيات الله سبحانه، وحشر البعض ينفي حشر الكل، فإن نقيض الموجبة الكلية سالبة جزئية، والتعامل مع هذا التناقض يوجب اختيار أحد حلول أربعة:

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٧.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٣.

الأول: أن يحكم بوقوع التناقض في الآيتين وهو باطل.

الثاني: أن يحكم بترجيح إحدى الآيتين على الأخرى وهو باطل. أولاً لأنه بلا مرجح، وثانياً لاتفاق الكلمة على عدم الترجيح بين الآيات؛ لأنها مقطوعة السند، ولا تنطبق عليها قواعد الترجيح الجارية في الروايات.

الثالث: أن يحكم بعدم العمل بالآيتين معاً كما هو مسلك جمع من الأصوليين لدى التعارض بين الأمارتين وهو باطل؛ لأنه لا ينطبق في الآيات، على أن مسلك التساقط في نفسه غير تام؛ لاستلزمه العلم بالمخالفة بسبب ترك الحجتين.

الرابع: أن يحكم بالجمع الدلالي بينهما، وهذا مايقضي به العقل ويعمل به العرف العقلائي، ومقتضى الجمع أن نعمل بالآيتين معاً، ونحمل كلاً منهما على نصها، فالأولى ظاهرة في حشر القيامة؛ لأنه مجعول لحساب جميع الخلق بالضرورة العقلية والشرعية، والثانية ظاهرة في حشر المكذبين من كل أمة فقط، وهو حشر خاص، ويجب أن يسبق القيامة؛ لأن احتمال أن يكون في القيامة أو بعدها لغو فثبت المطلوب، ويعزز ذلك الروايات العديدة التي فسرت الآية بالرجعة[١].

إن قال قائل: هذا تام ولكن الآية التي يدور عليها البحث لسانها عاماً ولم تحدد أن الراجعين بعض الناس لا جميعهم، والجواب من جهتين:

---

(١) انظر تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٢٩٩ ـ ٣٠١، الاحاديث ١١١ ـ ١١٩.

الأولى: أن سياق الآية دال على البعض؛ لأنها في معرض الحديث عن القوم المستهزئين الذين أهلكهم الباري عزّ وجل، وبعدها قال: ﴿**وَإِن كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾[1] فيفيد أن الراجعين هم الهالكون؛ لأنهم ممن محظوا الكفر، ولذا استأصلهم العذاب.

الثانية: فليكن لسانها عام إلّا أن آية حشر الأفواج الدالة على حشر البعض في الرجعة تكون خاصة أو مبينة، والقاعدة تقضي الأخذ بالمخصص والمبيِّن.

ويتحصل من كل ما تقدم: أن إنكار العامة للرجعة لا يستند إلى أساس صحيح؛ لأن المسألة تتعلق بقدرة الله وإرادته وحكمته وعدله، فالمقتضي لها موجود والمانع مفقود، فوجب أن تقع، وقد أخبر الصادق بوقوعها، ويجب تصديقه.

وأما الإنكار المبني على الاستبعاد أو الظن فهو نظير إنكار أهل الجاهلية للمعاد، وقد بان أنه لم يقم على منطق أو علم.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٢.

وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ
أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ

يس/ ٣٣

ودلالة هذه الآية تكمل دلالة الآيتين السابقتين والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾

الآية هي العلامة وعبّر عنها بالآية لأنها تتميز عن العلامة بميزتين:

إحداهما: أنّها تختص بما يدل على الباري عز وجل وأسماء جماله وجلاله، وبهذا الاعتبار يطلق على جمل القرآن الكريم بالآيات؛ لذا ورد في بعض الأخبار: ﴿لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون﴾(١) ويقول أهل المعرفة إن تلاوة القرآن بتدبر تزيد في الإيمان واليقين الذي هو غاية الأنبياء والأولياء، وقال: هي آية لهم لتكون دلائل لعموم الخلق في البعث والرجعة فضلاً عن الإيجاد.

ثانيتهما: أن الآية العلامة في المعنويات والماديات؛ لذا يقال علامات الطريق لا آياته. قال تعالى: ﴿وَعَلاَمَاتٍ وِبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾(٢) وكانت

---

(١) عوالي اللآلئ: ج٤، ص١١٦، ح١٨١؛ وانظر البحار: ج٨٩، ص١٠٧، ح٢؛ مفتاح الفلاح: ص٣٧٢.

(٢) سورة النحل: الآية ١٦.

علاماتهم في النهار الجبل والمنهل، وفي الليل النجم، وكان جماعة يشمّون التراب ويعرفون البلاد[١] بينما يقال لكل ما فيه دلالة على معنى فيه عبرة وتعليم أو ما يتعجب منه آية. قال تعالى: ﴿**ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ**﴾[٢] قيل هي شهادة الصبي والقميص المخرّق من دبر واستباقها الباب حتى سمع مجاذبتها إيّاه على الباب[٣].

وهنا فرق جوهري بينهما في كيفية الدلالة، فإن العلامة تدل على المعلم بالوضع؛ لذا تحدث وتزول بالوضع كعلامة الطريق، فانها إذا وضعت لهذا الغرض كانت دالة، ولو أزيلت زالت علامتها، بخلاف الآية فإنّها تدل على الشيء بالاقتضاء الناشئ من الذات سواء قصدت دلالتها أو لم تقصد، وإليه يشير قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ما لله آية أكبر منّي﴾[٤] لأنّ وجوده المبارك بما له من جمال وجلال رباني يدل على الله وعظمته سواء قصدت الدلالة أم لا، وهكذا القرآن الكريم وكل ما يحدث في الوجود من حوادث بأمر الله وإذنه هي آياته تبارك وتعالى وتدل عليه وإن لم يقصد الدلالة، ومنها إحياء الأرض وإخراج الحب والأكل، فهي دلائل على قدرة الله وحياته وعلمه وجوده وكرمه وسائر صفات كماله وجلاله.

---

(١) نفحات الرحمن : ج٣، ص٥٦٩.

(٢) سورة يوسف: الآية ٣٥.

(٣) انظر مجمع البحرين: ج١، ص٣٩، (آيا).

(٤) البحار: ج٢٣، ص٢٠٦.

وقد وردت هذه الآية المباركة بلسان العطف على ماقبلها، والغاية منه هو تطبيق الكبرى الكلية التي تعرضت لها الآيات السابقة من إحياء الموتى وإحضارهم على بعض مصاديقها وهي ثلاثة:

١ـ إحياء الأرض الميتة.

٢ـ إخراج الحب منها.

٣ـ الأكل .

وذلك ليكون بياناً للأمر غير المحسوس بالأمر المحسوس، فإن إحياء الأرض وخروج الحب منها وأكله لا يخفى على أحد، فالبصير يرى بعينه ذلك، والكفيف يدركه بالأكل، فلا يتطلب التصديق بقدرة الله سبحانه على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم إلّا الالتفات إلى ما يحصل في الأرض من إحياء بعد الموت؛ لأن الوجدان يشهد بأن حياة الأرض ونبات الحب فيها لم ينشأ من نفسه، وعمل الإنسان في الأرض ليس هو سبب الإحياء، بل هو مُعد ومهيء للظروف الملائمة للإنبات، وما عليه هو الحرث والبذر، وأما المطر والماء فليس من نفسه، كما أن الأرض في مجموعها مزروعة بالنباتات والحشائش والأعشاب، وهذه لم تنبت من عمل الإنسان فمن أنبتها وأحياها؟

فلو تأمل الإنسان في ذلك ستكون له الدليل القاطع على قدرة الله على الخلق والإعادة والبعث، وذلك غاية في اللطف لأنه سبحانه لا يؤاخذ العباد إلّا بعد إقامة الدليل والحجة عليهم.

المفردة الثانية: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾

أي الأرض الميتة، هي الجرداء اليابسة التي لا نبات فيها ولا حياة، والإحياء يتم بإعطائها الحياة بواسطة القوة النامية فيها فتكتسب الحس والحركة والنمو واللون، فتجمع عناصر الغذاء من جنبات الأرض، ولعل سائلاً يسأل أنّ إحياء الأرض يتم بإخراج الحب فلماذا كرر ذكره؟

الجواب: أنّ إحياء الأرض لا ينحصر بجانب واحد، وإخراج الحب أحد مظاهر الإحياء، وهناك إحياء للأرض بنباتات ليست طعاماً للإنسان، ولكن له منها الدواء والمنافع الأخرى كالأعشاب والحشائش، وبعضها تكون حطباً لناره، وسقفاً لداره، وطعاماً للحيوانات والطيور، وبعضها للإنسان فيها الجمال والصحة؛ لأن النبات رئة الطبيعة تُطيّب له الهواء وتنقيه من المفاسد، ومن النباتات ما يكسو الأرض فتحميها من الحشرات والرمال والأتربة، وهذا كله إحياء، ومن الإحياء بناء البيوت وتعبيد الشوارع والمصانع، وهو أعم من إخراج الحب، فلذا اقتضى الأمر أولاً بيان العام؛ لأنه دليل ظاهر يدركه كل أحد، ثم العطف بذكر الخاص، وهو ما يحتاجه الإنسان بالضرورة وهو الطعام.

المفردة الثالثة: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾

الحب هو الحنطة والشعير والعدس والأرز وكل ما يقال له حب، وقالت الآية أخرجنا ولم تقل أنبتنا؛ لأن الإخراج يكون بإحيائها داخل الأرض ثم إخراجها منها، وبهذا يشبه إخراج الإنسان من الأرض، وقد وردت الأخبار بأن السماء تمطر على القبور حتى يتكوّن طينها، ومنها يبعث الأموات.

وأما الإنبات فيكون من الخارج؛ لذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً﴾[١] لأن تكوين الإنسان إنبات في داخل الرحم، ولأن النابت هو النطفة وتكوينها من طعامه وشرابه، وهما من الأرض. قال أنبتكم من الأرض ولم يقل في الأرض.

ولما ينبت يأخذ صفات النبات من الثبات في الرحم، ثم النمو والتفرّع حتى يكون بشراً، وذلك كله في الأرض، فإن أرحام النساء حرث، والحرث الأرض المهيئة للإنبات والزرع، وشبهت المرأة بذلك لأن بها زرع ما فيه نبات الإنسان وبقاؤه[٢]. هذا كله في النشأة الأولى، ولمّا يولد يسميه القرآن خروجاً ﴿أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾[٣] لأن الخروج يكون من الداخل إلى الخارج، وفي الحشر لما يبعثهم من قبورهم أيضاً يسميه خروجاً.

---

(١) سورة نوح: الآية ١٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٢٦، (حرث).

(٣) سورة النحل: الآية ٧٨.

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾(١) لأن التكوين يكون في القبور ثم منها يُبعث الناس إلى الحساب.

وتدل الآية على أن طعام الإنسان يخرج من الأرض كما أن الإنسان نفسه يخرج منها، وخروج الحب مشهود للجميع، فينبغي أن يكون دليلاً على خروج الإنسان كذلك في الرجعة والآخرة؛ لأن القانون والسبب واحد، كما يكون دليلاً على أن الرجعة والمعاد تكون بالأجسام الدنيوية؛ لأن الحب أيضاً كذلك، فإن الحب يؤكل ويدخل كجزء من تكوين البشر والحيوان ثم يعود إلى الأرض، ثم تجتمع عناصره مرة أخرى، ويتكون كذلك بدن الإنسان بتجمع عناصره ويخرج، وبه تبطل شبهة الآكل والمأكول التي ذكرها الحكماء كإشكال على نفي المعاد الجسماني.

المفردة الرابعة: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾

وتشير إلى أمرين:

الأول: أن ذات الأكل آية من آيات الله؛ لان الإنسان عاجز عن الأكل لو لا الباري عزّ وجل، فإن الأكل عملية عظمى تبدأ بتناول الحب، ثم طحنه، ثم تجهيزه للأكل، ثم تناوله باليد ووضعه في الفم ومضغه وبلعه حتى يدخل الجوف، وبعدها يفقد السلطة عليه، وهو يأخذ طريقه إلى دمه وخلاياه بالجبر، وفي كل هذا تتدخل عناصر كثيرة وأعمال كبيرة لإنجازه ابتداء من وجوده إلى إيجاد القابلية فيه لأن يؤكل، ولم يكن كالحصا أو الرمل

(١) سورة نوح: الآية ١٨.

وكذا توفر وسائل الأكل والامتصاص داخل الجسد حتى يحلل الطعام إلى العناصر الأولية، ثم التغذية عليها. هذه كلها ملايين الخلايا والطاقات تعمل فيها. أين قدرة الإنسان في ذلك؟ ليس له قدرة على شيء منه، وإنما كله يعمل بأمر الله سبحانه، وقد ذكر بعض المفسرين أن لقمة الخبز الواحدة التي يلتهمها الإنسان يشارك في تكوينها ثلاثمائة وستون صانعاً إلهياً من الملائكة التي يصفها القرآن بالمدبرات والمقسّمات ابتداءً من ملائكة الماء والهواء والشمس حتى الخباز منهم والنار وأعضاء الأكل. هذه كلها من الله سبحانه مسخرة له[1]، ويد الإنسان وفعله عناصر مساعدة، فقوله: ﴿**فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**﴾[2] يتعلق بصدر الآية: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ**﴾ فالآية ليس إحياء الأرض وإخراج الحب فقط بل حتى أكله هو آية.

الثاني: أن ﴿**مِنْهُ**﴾ تفيد التبعيض؛ لأن الإنسان يأكل قسماً من الحب، وقسم يدخره للزرع، وقسم آخر يطعمه للحيوانات، وفي ذلك تعليم وإرشاد أيضاً إلى أن ما يجنيه الإنسان يجب أن يقسّم ويوزع بحسب الموارد والحاجات، ولايستهلك كل ماعنده، ولذا فرض الشرع في أموال الأغنياء وزراعتهم ومواشيهم الحقوق، فألزمهم بالإنفاق على أنفسهم وعيالهم أولاً، وحبّب له السعة في المؤونة، وأوجب عليه أن يخرج الخمس والزكاة لفقراء الناس وأن يدخر الباقي لعزه وجاهه.

---

(١) روح البيان: ج١١، ص٣٥٠.

(٢) سورة يس: الآية ٣٣.

فنهى الشرع عن الإنفاق غير الموزون، ولذا حرم الإسراف والتبذير، وفي عين الحال نهى عن إنفاق الأموال في سبيل الله إلى درجة يقعد بعدها ملوماً محسوراً، كما حرَّم أن لا يعطي الحقوق الشرعية الواجبة في ماله، فالتوازن والاعتدال في الطعام والشراب والمؤونة أمر مطلوب.

ونلاحظ أن الآية بحرف الجر مع الضمير (منه) تدلنا على حقيقة اقتصادية هامة تعلّمنا كيفية التوزيع والتنظيم في الثروة والخير لكي نعيش الكرامة الاقتصادية، وهذا أيضاً من معاني الآية التي قال سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾[1] فالآية هنا تضمنت بيان أمر تكويني هو الإحياء والإخراج والأكل، وأمر تشريعي وتنظيمي يرشد الناس إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم.

المفردة الخامسة: ضمير الجمع (نا)

فإنه يشير إلى أمرين:

أحدهما: العلل التوسيطيّة في الإحياء والإخراج.

وثانيهما: أن الإحياء والإخراج ينشآن من جمعية الصفات الإلهية؛ لذا يتجلى في ذلك العلم والقدرة والحياة والحكمة والرحمة والقوة والرزق، وسائر صفات الجمال والجلال تتجلى في إحياء الأرض وإنبات الحب، وكل فعل من أفعاله سبحانه هو علامة على كمالات الخالق عزّ وجل، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، وبهذا البيان يبطل الباري نظرية الطبيعيين والملاحدة

---

(١) سورة يس: الآية ٣٣.

المنكرين للمبدأ والمعاد بدليل حسي يدركة الكل، ويستدل لهم بها يؤمنون ويذعنون له، وهو الدليل الحسي على الخلق والإحياء في المبدأ ثم المعاد؛ لأنهم إذا أقروا بالقدرة على الإيجاد لابد وأن يسلموا بالقدرة على الإعادة؛ لأن الضابطة واحدة.

كما يبطل نظرية الحكماء والعامة بذات الدليل ليكون أتم وأقوى حجة عليهم في المعاد الجسماني والرجعة، لأن الدليل الحسي أوثق من العقلي والنقلي لما عرفت من أن العقل قد يقع في الشبهة والالتباس بسبب صحة المقدمات، أو تنظيمها، والدليل النقلي قد يبتلى بالتكذيب والخطأ والاشتباه في النقل، إلّا أن الدليل الحسي يعتمد على الحس المفيد لليقين، ويثبت في الوجدان الذي هو موطن اليقين.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: كيف يصل العارفون إلى اليقين؟

في قولة تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾[1] يعود الضمير إلى الكفار المعاندين الذين يعرضون أنفسهم للعذاب، ويشمل الشاكّين وضعفاء الإيمان بالملاك ووحدة الموقف، ولايشمل المؤمن الكامل في إيمانه لسببين:

الأول: أن المؤمن الكامل يؤمن بالمبدأ والمعاد وقدرة الخالق عزّ وجل على الإيجاد والإعادة بكافة صنوفها بفطرته، أو بعقله؛ لأن فطرته سليمة ومجردة عن الحجب والموانع كالشهوة والشك، وعقله نيّر لايلتبس عليه فيوصلانه إلى المطلوب .

الثاني: أنّه يصدّق بالقرآن والسنّة فيما يخبران من عالم الغيب تصديق إذعان ويقين، بل كلما ازداد المؤمن إيماناً صدّق مايأتيه من الغيب أكثر من عقله وفطرته؛ ليقينه بأن المخبر عالم وصادق ومعصوم ويريد له الخير، فلا يحتمل في إخباراته الخلل، بخلاف الفطرة والعقل فإنهما وإن كانا بدرجة

---

(١) سورة يس: الآية ٣٣.

عالية من النقاء والسلامة إلّا أنهما لا يؤمنان من الخطأ وتلبس إبليس؛ لذا يقول تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[١] والأولوية هنا لها معان منها معنيان: التدبير والقيادة، فما دام النبي بين الناس لا خيار لهم في حكم أو تدبير إلّا بأمره وإذنه، ولو تعارض تدبير الناس مع تدبيره فهو أولى بهم من أنفسهم.

والأولوية في العلم، فلو عقل الإنسان شيئاً واعتقده وأيقن به والرسول صلى الله عليه وآله أبطله أو كذبه وجب أن يتخلى عما اعتقده، ويتبع الرسول فيما يقول؛ لأن علم الإنسان يختلط بالجهل المركب، وكم من عالم نحرير يقصر علمه عن بلوغ الواقع، ويكون علمه جهلاً، بخلاف قول الرسول صلى الله عليه وآله فإنه ملازم للصواب، ولا يوجد فيه احتمال الغفلة والجهل، ولذا أمر الباري عزّ وجل بالأخذ بما جاء به النبي مطلقاً، والانتهاء عما نهى عنه كذلك، فقال سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٢] لأن كل ما يأتي به النبي صلى الله عليه وآله وينهى عنه هو مطابق للواقع، ومنَّزه عن الخطأ والخداع والمصالح الدنيوية، بخلاف علم الإنسان فإنه قد يكون خطأ، وقد يكون أسيراً للمصالح فيخرج عن الأمانة والواقع العلمي.

أن العالم اليوم وفي الكثير من المجالات لاسيما العلوم التي تتعلق بالقوة والقدرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية يشهد بخروج العلم عن

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

موازينه القويمة، وصيرورته أداة بيد السياسة، فكيف يمكن للإنسان أن يصدق بما يتوصل هو إليه ويكذب ما يقوله القرآن والسنّة؟ فالمؤمن قوي الإيمان يشك بعقله وعلمه ولايشك بالقرآن والسنّة؛ لذا لا يحتاج إلى دليل يثبت له الرجعة والمعاد وغيرهما من الأمور الغيبية؛ لأنه يصدق بالوحي عن يقين يفوق العلم والدليل.

نعم ربما يطلب المؤمن دليلاً حسياً لسببين:

أحدهما: لأجل زيادة المعرفة بعالم الغيب ليس لأجل الإيمان به أو الشك في قدرة الله، بل لأجل صيرورة علمه ويقينه اطمئنانا نفسياً، وهي مرحلة من التكامل يطلبها كل عاقل، ولذا طلب إبراهيمعليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، كما سأل عزير عن كيفية إحياء أهل القرية، وذلك كان لأجل زيادة اليقين واستقراره؛ لأنَّ الرؤية الحسية تفيد الاطمئنان أكثر، ولذا لما سأل إبراهيم ربه أن يريه إحياء الموتى قال له الباري عز وجل: ﴿**أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾[١] وكان سؤال المولى عزّ وجل من باب الاستفهام التقريري الذي يرجع إلى سؤال العارف، إلّا أنه لأجل أن يتضح مقصود إبراهيمعليه السلام ويكون قدوة لأهل القلوب والطالبين للمعارف الإلهية، ويدلهم على أن اليقين والكمالات المعرفية لا نهاية لها، وهي في زيادة مستمرة، وأن اطمئنان القلب لا يكون لمجرد العلم والدراية،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

بل إذا صارت الحقيقة العلمية مشاهدة بالحس استقرت في النفس وقرَّ عليها القلب، وفي الآية دلائل كثيرة لايسعنا مجالها.

ويكفي أن نقول في هذه الآية إنَّ الباري يكشف عن سر من الأسرار الغيبية لأهل المعرفة واليقين، وهو أن اليقين يحصل بالمشاهدة الحسية، وهي تتوقف على الدعاء والمناجاة والتوسل، والدعاء يحتاج إلى الإجابة، والإجابة تحتاج إلى قابلية في الداعي واستعداد نفسي وقلبي، والقابلية تتوقف على التخلية من القبائح والذنوب، وبهذا يعرف أحد أسباب الإسراء والمعراج وأحد أسباب الأدعية والمناجاة لأولياء الله، والسر الذي يدعو العلماء الربانيين إلى التوسل والدعاء للوصول إلى حل الألغاز العلمية والأسرار الغيبية.

ثانيهما: أن يطلب دليلاً لأجل محاورة الآخرين وهدايتهم إلى الحق التي هي من مهامه، فإن ضعيف الإيمان لايرى الحقائق إلّا عبر الدليل، وهذا من نظرت إليه الآية؛ لذا قالت: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا**﴾[1] أي للذين لم يبلغوا درجات الإيمان الفطري ولم ترشدهم عقولهم إلى الحقيقة فاحتاجوا إلى الدليل الحسي.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٣.

اللطيفة الثانية: أقسام الروح وبطلان الداروينية

قوله تعالى: ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ يفيد أن الإحياء يتعلق بذات الأرض ومن دون واسطة، وفي ذلك إشارة إلى أن حياة الأرض يكون بترابها، والتراب يشتمل على خصوصيات الحياة فيعطي الحياة، بخلاف غيرها فإنه يكون حياً بها كالحب؛ لذا قال: ﴿أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً﴾[1] بناء على أن (من) نشوية وليست لابتداء الغاية.

ومن هنا توصف الأرض بالميتة يعني ترابها لا يحمل خصائص الحياة، فلا يعطي الزرع من نفسه إلّا إذا أجريت عليه عمليات إعداد وتحفيز، وكيف كان فإن تعلق الحياة بذات الأرض في قوله ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ كاشف عن أمرين:

الأول: أن الأصل في الأرض الموت والحياة حالة طارئة عليها، ولا تحدث من نفسها؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، بل بالإحياء من الحي بذاته.

والثاني: أن الحياة قسمان بسيطة ومركبة، والحياة البسيطة ماتنشأ من الأرض كالنبات، وأما الحياة المركبة فتنشأ من نتاج الأرض كالحيوان فإنه حاصل ما تنتجه الأرض ليكون نطفة، وأما حياة الإنسان فهي مركبة من عناصر ثلاثة، فالجسد والروح النباتية والحيوانية مكونة من الأرض، وأما

---

(١) سورة يس: الآية ٣٣.

الروح الإنسانية فهي مفاضة من الله سبحانه على هذا المركب: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾(١) وبهذه التراكيب الثلاثة تتكون شخصية الإنسان، فشخصيته المادية مكونه من الروح النباتية والحيوانية المودعة في جسده، وكلها من الأرض وحياة الأرض، والأولى منشأ النمو فيه، والثانية منشأ الحس والحركة، وأما الروح الإنسانية فهي مفاضة من الباري عز وجل ومن أمره، وهي منشأ الفكر والعقل والاخلاق، وحياتها مكتسبة من الملأ الأعلى وليس من التراب.

وبذلك يتضح بطلان النظرية الداروينية في أصل الأنواع والنشوء والارتقاء المبنية على أساس الحدوث للخلية البسيطة، ثم حدوث الارتقاء والتكامل بالصدفة، فإن الآية تثبت أن لا توجد صدفة، وأن الإحياء تم من محي على النهج القويم لكل شيء بحسبه، فالنبات والحيوان والإنسان خلقه الباري وأعطاه الحياة في نفسه وليس ارتقاء عن خلية بسيطة.

اللطيفة الثالثة: أن الآية المباركة استدلت بإحياء الأرض وإخراج الحب على المعاد، ووجه الدلالة ناشئ من وجود الشبه الكبير بين الأمرين، فإن الأرض تراب وجسد الإنسان كذلك تراب، فالجسد من الأرض وليس غريباً عنها، والزرع علامة حياة الأرض، والروح تحيي تراب الجسد.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٩.

ونبات الأرض الحب الذي فيه الحياة والأثر، وكذلك تراب الجسد له حب وهو النطفة، وفيها الروحان النباتية والحيوانية، وفيه الروح الإنسانية، وهي ثمرته ومنشأ حياته وأثره.

ونلاحظ أن التشابه كبير بين الأمرين، فإحياء البشر وإخراجهم من القبور وبعثهم يكون كإحياء الأرض الميتة إذا تفتقت عن الحب الخارج من جوفها بلا فرق إلّا في المظهر، وإحياء الأرض قضية محسوسة، وبها يعرف كيفية الإحياء والبعث للإنسان التي هي قضية غير محسوسة، فلا معنى بعد ذلك للشك والإنكار.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

التعليم الأول: أصول المحاججة المثمرة

أن الدليل في المحاججات يجب أن يكون بسيطاً ويدركه من يراد الاحتجاج عليه ليسهل فهمه، ويكون حجة دامغة؛ لذا استدل القرآن الكريم بالأمور المحسوسة كإحياء الأرض وإخراج الحب على المعاد، وهو أمر غيبي غير محسوس، وإذا لوحظ في بعض الاحتجاجات والمحاورات عدم الوصول إلى الغاية فذلك راجع إلى أسباب: منها غموض الاستدلال أو استناده إلى مقدمات لا يسلِّمها الطرف الآخر ولايرتضيها فكيف تكون حجة عليه؟ والذي يتابع شواهد احتجاجات الأنبياء والأئمة عليهم السلام يجد ذلك ماثلاً وبوضوح، ولعل من أسرعها وصولاً إلى الغاية محاورة إبراهيم عليه السلام مع نمرود الذي جاء يدعي ما ليس له. قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

ونلاحظ أن الطاغي نمرود بماله وسلطانه ادعى أنه يحيي ويميت، وأتى بدليل فيه مغالطة وخداع ليضلل به العامة، فأمر بالإتيان بسجينين فقتل أحدهما وأطلق الآخر فقال: هذا دليل على أنّي أحيي من أشاء وأميت من أريد، ومثل هذا التلبيس يضلل الجاهلين والمعاندين ولا يضلل أهل الفطنة والمعرفة، لكن في الغالب لايتبع الملوك والسلاطين إلّا الجهال وأصحاب المصالح، ولولاهم لم يبق ظالم، ولا طاغ ولا طغيان، ولا حيّال ولا مضل، إلّا أن هؤلاء حيث يتبعونهم يصيّرون لهم مكانة وشجاعة التعدي والتضليل؛ لذا لم يطل إبراهيمعَلَيْهِ السَّلَامُ معه الحوار، وجاء بحجة تنقض كل ما ادعاه، وتثبت للناس أنه قاصر وعاجز فقال: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾[1] ومثل هذه لايقدر عليها أحد لاملك ولاغير ملك إلّا الله سبحانه، وإنّما ذكر الشمس لأنّها كانت أعظم معبوداتهم وأكبرها، فدلّهم على أنّ هذا الذي تعبدونه هو مسخَّر لإرادة الله سبحانه وقدرته وليس له قدرة في نفسه، ولا أنتم لكم قدرة على التصرف فيه، وهذا دليل حسي وجداني بسيط يدركه الكل؛ لذا بهت الذي كفر، وانقطعت حجته، وبطلت مدعياته.

ونلاحظ أن القرآن الكريم يعلّمنا الطريق القويم: ﴿**يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[2] الذي يبطل مدعيات المبطلين والمعاندين، وذلك يقوم على ثلاثة أركان:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩.

الأول: الحذر من تضليلاتهم، فلابد للمحاور من امتلاك القدرة على كشفها.

الثاني: الاستناد على الأجوبة والحجج النقضية لإبطال مدعياتهم؛ لأن المعاند لا ينفع معه ألف دليل حلي ولا تجديه الأدلة العقلية والنقلية، بل النقض على حججه.

الثالث: اختصار المحاورات وعدم تطويلها؛ لأن التطويل لا يجدي معهم، وربما يعطيهم فرصة للتضليل والخداع أكثر.

وهذا النحو من الاحتجاج ورد كثيراً في محاورات الأئمةعليهم السلام. أضرب له مثالين: أحدهما في التوحيد والآخر في الإمامة، والأول ورد في رواية الفضل بن شاذان قال: سأل رجل من الثنوية أبا الحسن علي بن موسى الرضاعليه السلام وأنا حاضر فقال له: إنّي أقول: إنّ صانع العالم اثنان - لأنه يعتقد بوجود إلهين أحدهما للخير فإليه تعود الخيرات، والآخر للشر فإليه تعود الشرور - فما الدليل على أنه واحد؟ فقالعليه السلام: «قولك: إنّه اثنان دليل على أنه واحد؛ لأنك لم تدع الثاني إلّا بعد إثباتك الواحد، فالواحد مجمع عليه، وأكثر من واحد مختلف فيه»[1] وفي استدلال الإمامعليه السلام تأسيس لقاعدتين في الحوار:

الأولى: الانطلاق من إقرار المخالف وإلزامه بما يقر به.

(١) التوحيد: ص٢٧٠.

الثانية: الانطلاق من القضايا المجمع عليها، وأما المسائل المختلف فيها فتفتقر إلى دليل.

وهذه القاعدة تجري في علم الكلام وفن المناظرة كما يطبقها الفقهاء والأصوليون في الفتوى؛ إذ يأخذون بالقدر المتيقن وينفون الأمر المشكوك بالأصل حتى يقوم عليه دليل مثبت.

والمثال الثاني رواه الطبرسيقدس سره في الاحتجاج عن سعيد بن أبي الخضيب قال: دخلت أنا وابن أبي ليلى المدينة، فبينما نحن في مسجد الرسولصلى الله عليه وآله إذ دخل جعفر بن محمدعليه السلام فقمنا إليه، فسألني عن نفسي وأهلي، ثم قال: ﴿من هذا معك؟﴾.

فقلت: ابن أبي ليلى قاضي المسلمين، فقال: ﴿نعم﴾ ثم قال له: ﴿أتأخذ مال هذا فتعطيه هذا وتفرّق بين المرء وزوجه ولا تخاف في هذا أحداً؟﴾ قال: نعم. قال: ﴿فبأي شيء تقضي؟﴾.

قال: بما بلغني عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وعن أبي بكر وعمر.

قال: ﴿فبلغك أن رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: أقضاكم علي بعدي﴾.

قال: نعم. قال: ﴿فكيف تقضي بغير قضاء عليعليه السلام وقد بلغك هذا؟﴾

قال: فاصفر وجه ابن أبي ليلى ثم قال: ألتمس مثلاً لنفسك - أي زميلاً- فوالله لا أكلمك من رأسي كلمه أبداً[1].

---

(١) الاحتجاج: ج٢، ص١٠٢.

ونلاحظ أن المحاجة ابتدأها الصادقعليه السلام وبدأ في الحوار بعد أن انتزع الإقرار من الطرف الآخر فأتم عليه الحجة، والرواية تكشف عن شدة عناد هؤلاء المخالفين وإصرارهم على الخلاف، ولو كانوا جاهلين وليسوا بمعاندين لكانت الحجة ليس بالنقض بل ببيان الحقيقة وشرحها.

التعليم الثاني: أن القاعدة العقلية الشرعية تقضي بأن المؤاخذة تكون بعد إتمام الحجة وإقامة الدليل، فلا معنى لمؤأخذة الجاهل الغافل والمضطر ولذا أرسل الباري عزّ وجل الأنبياء، وأنزل الكتب لتكون للناس حجة وشريعة في وقت واحد، وهذا مايؤكد حقيقة الملازمة بين القرآن والسنة واجتمعا كلاهما في الإمام؛ لذا صار الدين والطاعة والعبودية منوطة بمعرفة الإمام وطاعته.

التعليم الثالث: اكتسبوا العلم يكسبكم الحياة

أن الأرض تحيا بالزرع، والأجساد تحيا بالأرواح، والأرواح تحيى بالعلم والمعرفة والأخلاق، فلاحياة إلّا لأهل العلم والمعرفة والأخلاق، وهذا ما يؤكده قول أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿بالعلم تكون الحياة﴾[1] ﴿اكتسبوا العلم يكسبكم الحياة﴾[2] وإطلاق الحياة يشمل معنيين:

---

(١) عيون الحكم والمواعظ: ص١٨٧.

(٢) غرر الحكم: ص١٥٠؛ عيون الحكم والمواعظ: ٩٢، وفيه ((اكتسبوا العلم يكسبكم الجاه)).

الأول: الحياة المادية، وهو ظاهر؛ لأن العلم هو الذي يقود البشر إلى مصالحهم، ومن دون علم تكون حياة الناس تخبطاً وضياعاً، وهذا العلم يختص بأجسادهم كالطب مثلاً.

الثاني: الحياة المعنوية، أي حياة الأرواح والقلوب، وهذا العلم ليس من قبيل العلوم المادية، بل علوم المعنى كالعقائد والفقه والأخلاق.

ولو أردنا المناظرة بين العلمين فإن علوم المعنويات أرقى من علوم الماديات؛ لأنها تشتمل على فوائد تلك العلوم وأكثر، والذي يقوّم حقيقة الإنسان وسعادته هو روحه وقلبه لا جسده.

فإن علوم المعنويات تحقق للإنسان ما تعجز عن تحقيقه العلوم المادية؛ لذا نلاحظ بالوجدان بعض الأمراض يعجز الطب عن علاجها فيلجأ الناس فيها إلى الدعاء والتوسل فيحصلون على العلاج.

وبعض الأرزاق تعجز العلوم المادية عن تحقيقها إلّا أنّ بعض الأذكار والأعمال الصالحة تفتح أبواب الرزق، وفي القرآن الكريم إشارات إلى هذه الحقيقة قال تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً**﴾[١] وفي الآية المباركة إشارة إلى أربعة أقسام من الحياة التي هي أهم ما يطلبه البشر:

---

(١) سورة نوح: الآيات ١٠- ١٢.

الأول: الحياة المعنوية في الجنان العالية، وتتحقق بالغفران.

الثاني: حياة الرزق والخير والغنى والثروة، وتتحقق بالمطر الوفير ﴿**يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً**﴾(١).

الثالث: حياة الامتداد والبقاء بالأولاد ﴿**وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**﴾(٢).

الرابع: حياة المجتمع المتحضر والمدينة المزدهرة بالطبيعة الخلابة والمجتمع المسالم المتعاون السعيد ﴿**وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً**﴾(٣).

فلو صارت البلاد جنات والأنهار تجري في أراضيها صارت حياتهم الاجتماعية مرفهة وسعيدة، وعلاقاتهم الإنسانية راقية، فتحاكي الحياة التي يعيشها الناس في الجنة.

كل هذا يتحقق بماذا؟ ليس بالعلوم الدنيوية، بل بعلم معنوي هو (الاستغفار) بمعنييه الدفعي أي العمل الصالح والرفعي أي التوبة من الذنوب، وهذا من الوعد الإلهي الذي يتضمن أمرين:

الأول: الكشف عن حقيقة واقعية تدل على الملازمة بين صلاح الإنسان وتجنبه للخطايا والمعاصي والجرائم وصلاح حياته وسعادتها الفردية والاجتماعية، وهو سبب طبيعي لو تعامل به الناس حسنت أحوالهم.

---

(١) سورة نوح: الآية ١١.

(٢) سورة نوح: الآية ١٢.

(٣) سورة نوح: الآية ١٢.

الثاني: ضمان إلهي للناس في أنهم إذا أصلحوا حالهم يضمن لهم ربهم الحياة الطيبة، وهو لا يخلف الميعاد، فالحياة الطيبة مادياً ومعنوياً تتكفلها العلوم المعنوية.

أما العلوم المادية فيمكن أن توفر للإنسان حياة مرفهة مادياً لكنها لا تضمن له حياة روحية سعيدة في الدنيا والآخرة، والشاهد عليه ما تقرّه الأبحاث والدراسات عن المجتمعات الغربية التي تسمى بالمتحضرة، وتحظى بمدن نظيفة وطبيعة جميلة وغابات وحقول ومزارع فيها الكثير من أسباب الرفاه المادي إلّا أنها تعاني من الكآبة والشقاء الروحي والانعزال والوحدة والعطش إلى الروح الإنسانية.

فالحياة التي تحققها التعاليم الدينية والعلوم الإلهية حياة حقيقية توفر السعادة للبشر في جميع أبعادها لو أخذ بها الناس واتبعوها؛ لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اكتسبوا العلم يكسبكم الحياة»[1] والاكتساب يتحقق بتحصيل العلوم والعمل بها، والآية ذكرت أن من أسباب ذلك الاستغفار، والمراد به ليس مجرد القول، بل العمل به دفعاً ورفعاً.

والعمل به يقوم على ثلاثة أركان:

الأول: العقيدة الصحيحة بالله سبحانه؛ لأن العقيدة الخاطئة ظلم بحقه فتمنع الناس من الرحمة، والعقيدة الصحيحة لاتؤخذ من غير القرآن والعترة الطاهرة، ومايؤخذ من غيرهما مشوب بالأخطاء الكثيرة.

---

(١) غرر الحكم: ص١٥٠؛ وانظر عيون الحكم والمواعظ: ص٩٢، وفيه: «اكتسبو العلم يكسبكم الجاه».

الثاني: التطبع بالاستغفار في التعامل مع الناس ليكون الغفران والتسامح سجية في نفوسهم يتعامل بها الآباء مع الأبناء والأصدقاء والأرحام وجميع المجتمع؛ لذا الآية وردت بصيغة الجمع فقالت: ﴿اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ للدلالة على أن القضية يجب أن تكون جماعية وثقافة عامة.

الثالث: التخلي عن موجبات الاستغفار كالحقد والحسد والعداوات واجتناب المعاصي، ولذا تضافر في النصوص أن الاستغفار لا يتحقق إلّا بالندم على المعصية والعزم على عدم العود إليها وأداء حقوق الناس وحقوق الله سبحانه[(١)]، ومعلوم أن هذا الطريق الذي يشير إليه القرآن لأجل الحياة الأفضل لا يوجد في العلوم المادية، بل في العلوم الإلهية الربانية.

ويتحصل: أن الأرض تحيا بالزرع والنبات، والأجساد وتحيا بالأرواح، و الأرواح تحيا بالعلم والمعرفة والحكمة، والمراد بالعلم ما يتعلق بالشأن الإلهي وقد لخصته بعض الروايات بثلاثة أمور:

هي طاعة الله سبحانه ومعرفة الإمام عليه السلام والتفقه في الدين، فكما أن الزرع سبب حياة الأرض فإن هذه الثلاثة سبب حياة الروح، وبها يعيش الإنسان في الدنيا وفي القبر وفي الآخرة، وهذا المعنى يدركه أهل

---

(١) انظر نهج البلاغة: قصار الحكم، ٤١٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٨، ص٨، ح٩.

المعرفة والبصيرة، وقد ورد أن الإسكندر سئل: فقيل له: أمعلّمك أكرم عليك أم أبوك؟ قال: بل معلمي لأنه سبب حياتي الباقية، ووالدي سبب حياتي الفانية[١].

وقد ورد في الأخبار الحث الأكيد على الحضور عند العلماء و الاشتراك في مجالسهم لأن بها الحياة الحقيقية.

وفي الحديث النبوي الذي رواه أبو ذر رضوان الله عليه: ﴿حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة، وعيادة ألف مريض، وشهود ألف جنازة، فقيل: يا رسول الله ومن قراءة القرآن؟ فقال: وهل ينفع القرآن إلّا بالعلم﴾[٢].

وفي حديث آخر: ﴿من زار عالماً فكأنّما زارني، ومن صافح عالماً فكأنّما صافحني، ومن جالس عالماً فكأنّما جالسني، ومن جالسني في الدنيا أجلسه الله معي يوم القيامة﴾[٣].

والمقصود بالعالم العالم الرباني الذي يهدي الإنسان ويعلمه الحياة الحقيقية لروحه وجسده.

---

(١) سفينة البحار: ج٦، ص٣٥٦.

(٢) تذكرة الموضوعات: ص٢٠؛ مقتنيات الدرر: ج٦، ص١١٦.

(٣) إعانة الطالبين: ج١، ص٢٣؛ كشف اللثام: ج١١، ص٥٣٦.

التعليم الرابع: الخبز من آيات الله

إن ما يخرجه الباري من الأرض لقوت الإنسان كالحب يدل على تكريم الباري عز وجل للإنسان وإعطائه ما يستحقه؛ لأن الحب هو قوته الضروري الذي لا يستغني عنه كطعام له، بخلاف غيره كالفواكه والخضر فإنّها أغذية تكميلية لا أساسية؛ لذا يمكن للإنسان أن يعيش صحيحاً سالماً دون خضر وفواكه، لكنه لا يقدر أن يعيش دون حبوب، ولاسيّما الخبز، سواء خبز الحنطة أو الشعير، وحيث أن الخبز آية لله سبحانه وفيه تتجلى أسماؤه الجمالية والجلالية وهو النعمة العظمى على الإنسان، وجب تعظيمه وتكريمه وشكره، وهو من مظاهر شكر الله وتعظيمه.

ولذا تضافر في الأخبار الشريفة وفي سيرة الأنبياء والأئمة الحث على إكرام الخبز وإجلاله، ففي دعاء النبي المصطفى صلى الله عليه وآله: «اللهم بارك لنا في الخبز، ولاتفرِّق بيننا وبينه، فلولا الخبز ما صمنا ولا صلينا، ولا أدينا فرائض ربنا»[١] والحصر يدل على أحد معان:

الأول: أنه لولا أن الله سبحانه يطعمنا الخبز ويشبع بطوننا لانشغل الناس بطعامهم بما لا يبقى معهم مجال للعبادة.

الثاني: أنه سبحانه إذا لم يشبع بطوننا لما أمرنا بالعبادة؛ لأنه سبحانه قال: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ**﴾[٢].

---

(١) المحاسن: ج٢، ص٥٨٦، ح٨٣؛ الكافي: ج٦، ص٢٨٧، ح٦؛ الوسائل: ج٢٤، الباب ٤٢ من أبواب آداب المائدة، ص٣٢٣، ح٣٠٦٦٢.

(٢) سورة قريش: الآية ٣-٤.

الثالث: أن الخبز هو الذي يشبع الإنسان ويعطيه الطاقة على العمل وإنجاز الوظائف، ولولاه يبقى ضعيفاً معتلاً لا يقدر على العمل، و لامانع من الجمع لعدم التنافي بين المعاني، والأبحاث العلمية تؤكد أهمية الخبز في غذاء البشر.

وقد وردت في الأخبار تعاليم على وجوب احترام الخبز وإكرامه. منها: أن لا يوضع تحت الصحون والقصع[١]، ومنها: إذا حضر في المائدة فلا ينتظر به غيره[٢]؛ لأن انتظار غيره كاشف عن عدم احترامه، ومنها: أن لا يقطع بالسكين[٣]، وأنه إذا وجد مطروحاً على الأرض أن يمسح أو يغسل ويؤكل[٤]، وفي بعض الأخبار أن خبز الشعير قوت الأنبياء وطعام الأبرار، وما من نبي إلّا وقد دعا لأكل الشعير وبارك عليه، وأنه ما دخل جوفاً إلّا وأخرج كل داء فيه[٥].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: ﴿أطعموا المبطون خبز الأرز، فما دخل جوف المبطون شيء أنفع منه﴾[٦].

---

(١) انظر البحار: ج٥٩، ص٢٧٩؛ الجواهر: ج١٢، ص١٣٠.

(٢) البحار: ج٥٩، ص٢٧٩؛ مكارم الأخلاق: ص١٥٤.

(٣) الكافي: ج٦، ص٣٠٤، ح١٤؛ الجواهر: ج١٢، ص١٣٠؛ البحار: ج٥٩، ص٢٧٩.

(٤) انظر الكافي: ج٦، ص٣٠٠، ح٥.

(٥) مكارم الأخلاق: ص١٥٤؛ الكافي: ج٦، ص٣٠٤، ح١؛ البحار: ج٥٩، ص٢٧٩.

(٦) الوسائل: ج١٧، الباب ٣ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٥، ح٣؛ وانظر مستدرك سفينة البحار: ج٥، ص١٠٥، (خبز) وفيه: ((المسلول بدل المبطون)).

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ
وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ
الْعُيُونِ۝لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا
عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ

يس/ ٣٤-٣٥

الآيتان بحكم آية واحدة تضمنتا بيان النعمة وغايتها، وقد وردتا بلسان العطف على الآية السابقة لاتمام غايتها وحجتها؛ ولذا يقع البحث فيهما معاً وينتظم في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآيتين

وعمدتها ثلاث هي: الزرع، والعيون، وما يعمله الناس بأيديهم، معانيها اللغوية ظاهرة وجميعها يشير إلى ثلاثة مظاهر لإحياء الأرض غير الحب والزرع هما البساتين والعيون وما يعمله الناس في الأرض من حقول ومصانع ومدارس وبيوت وشوارع وأنهار ونحو ذلك، بناء على أن العطف في قوله تعالى: ﴿**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾ يعود على قوله (وجعلنا) ووجه نسبة الجعل إليه سبحانه مع أن العامل هو الناس يعود إلى تهيئة المقتضيات ورفع الموانع من تسخير الأشياء للإنسان وإعطائه العقل وقوة الإرادة والفعل، فإنه لولا أن يجعل الباري الأرض مهداً ولها قابلية الزرع لما تمكن الإنسان من زرعها، ولو جعلها صخرية صلدة لما تمكن من حفر نهر فيها، ولولا أن يجعل في مواد البناء قابلية الانحلال والتماسك والاندماج لما تمكن من البناء وهكذا.

وأما لو كان العطف على الأكل لآفادت الأكل مما عملته أيديهم من الزراعات وثمار الأشجار، والظهور فضلاً عن القاعدة في العطف يفيد الثاني لا الأول، ويمكن الجمع بينهما لعدم التنافي بينهما؛ بداهة أن ما يعمله الناس من الزراعات والثمار يعود في جوهره إلى فعل الله سبحانه وفضله في توفير المقتضيات ورفع الموانع.

وكيف كان، فإن في الآيتين دلالة على أربعة أمور:

الأول: المعاد والرجعة بإحياء الأرض الميتة بالبساتين وبعيون الماء، بل تتضمن إشارة لطيفة إلى أن عمل الإنسان نفسه قادر على إحياء الأرض بعمله فيكون قادراً على إحياء جسده؛ لأن العمل والأكل كلاهما يحييان الجسد. العمل بالنشاط، والأكل بالغذاء، كما يكون قادراً على إحياء روحه بالتعلم والتفقه في الدين لاندراجه تحت عنوان ما عملته يداه.

الثاني: أنّ كل ما يحدث في الوجود هو من جعل الباري عز وجل بعلله التوسيطية وجمعية صفاته الجمالية والجلالية كما يفيده ضمير الجمع في قوله (وجعلنا) فتدل على توحيد الأفعال والصفات والذات بالملازمة.

الثالث: وجوب تخصيص العبادة والعبودية لله سبحانه؛ لكونه المنعم الحقيقي، والعقل والعقلاء يحكمان بوجوب شكره، ووجوب الشكر يثبت أمرين آخرين:

أحدهما: وجوب معرفة المنعم.

ثانيهما: وجوب شكره من الطريق الذي يرتضيه هو؛ إذ ليس كل ما يتصوره العبد شكراً يليق بمقام المشكور، فإن قصور العبد قد يحثه على فعل ما لا يرتضيه المشكور فيكون متجاوزاً على حقوقه وهو لا يعلم، ولذا أرسل الباري الأنبياء، وأنزل الكتب، وقرر الأحكام والتعاليم، وأمر بالتمسك بها وطاعتها لكي يكون العبد مطيعاً شاكراً، وحرم عليه الارتجال في العبادة والاستحسان في الأحكام والعمل بظنونه الشخصية، بل عد

ذلك من المحرمات المغلظة؛ لأنه ينافي العبودية، وينِّزل العبد منزلة السيِّد، ويصيِّر الشكر ظلماً وعدواناً على حقوق الخالق تبارك وتعالى.

فالعبادة لا تكون عبادة لله إلّا عن الطريق الذي عينه هو، وكل طريق لم يعينه فهو افتراء وابتداع محرم، وبهذا يتضح بعض السر في توقف قبول الإيمان والأعمال على الولاية والتمسك بالقرآن والعترة عليهما السلام، وأن العبادة التي لا ترجع إليهما يتوهم العبد أنها عبادة، والحال أنها اتباع للهوى والظنون الخاصة في الدين؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾[١].

ومما آتانا به التمسك بالثقلين باتفاق الكلمة، وفسرهما صلى الله عليه وآله بالكتاب والعترة الطيبة من أهل بيته، وقال إنهما متلازمان، وإن التمسك بهما مساوق للهداية والعبودية لله، والتفرق عنهما أو عن أحدهما مساوق للضلالة والخروج عن العبودية، والنتيجة أن قوله تعالى بعد بيان النعم ﴿**أَفَلَا يَشْكُرُونَ**﴾[٢] يدل على وجوب العبادة وتوحيدها بنهج واحد، ولا مجال لتعدد طرق العبادة أو تعدد مناهجها، وقول البعض أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق إن أريد به تعدد طرق معرفته سبحانه أو عبادته فهو باطل، وما يقال من أن الدين يؤخذ من غير الكتاب والعترة هو أيضاً باطل؛ لأن الدين واحد، وطريقه واحد هو القرآن والعترة.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) سورة يس: الآية ٣٥.

الرابع: أن الإنسان فاعل بالقصد والإرادة والاختيار ليس مجبراً على الفعل، ولا مفوضاً إليه الفعل بأن يفعل من ذاته واستقلاله عن إرادة الله سبحانه وقدرته، بل هو الذي جعل له القدرة على الفعل، وهو الذي أوجد المقتضيات ورفع الموانع فيما يفعل؛ لذا فرَّع قوله: ﴿**أَفَلاَ يَشْكُرُونَ**﴾(١) على ما يفعل الباري عز وجل مباشرة في الأشجار والثمار ومايعمله الإنسان بيده؛ لأن ما يعمله الإنسان هو أيضاً من مجعولات الله سبحانه؛ بداهة أن الذي يجعل الأصل يجعل الفرع بالتبع.

فالآية بهذا المنطوق والمدلول تطابق ما ورد عن الأئمة الأطهار عليهم السلام في الأمر بين الأمرين، وتبطل نظرية الجبر التي يقول بها الأشاعرة، ونظرية التفويض التي يقول بها المعتزلة، بل الإنسان في أصل تكوينه وقدرته على الفعل مجبور؛ لأنه سبحانه هكذا أوجده وأوجد له القابلية في الأشياء على الخضوع لفعله وإرادته، لكنه في الفعل وتحديد نوعه وكيفيته مختار، فهو لا مجبور على فعله ولامفوض إليه دون أثر لقدرة الله وفعله.

---

(١) سورة يس: الآية٣٥.

المبحث الثاني: في لطائف الآيتين

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: فرق الجعل عن الخلق والإخراج

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾[1] عطف على إحياء الأرض وإخراج الحب، ويرد فيه سؤالان:

السؤال الأول: لماذا قال (جعلنا) ولم يقل (خلقنا) أو (أخرجنا)؟

والسؤال الثاني: أن ما يتقوَّت به الإنسان ثلاثة أصناف هي الحبوب والفواكه والخضر لكنه ذكر الأولين ولم يذكر الخضر فلماذا؟

والجواب عن الأول: أن الأنسب هو التعبير بالجعل لا الخلق ولا الإخراج، فإن الخلق يعني التقدير والإبداع من غير أصل أو اقتداء[2]، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[3] أي أبدعهما، وهو أخص من

---

(١) سورة يس: الآية ٣٤.

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٢٢٤، (٨٧٤)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩٦، (خلق).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١.

الجعل؛ لأن الجعل يطلق على كل فعل في الماديات أو المعنويات، وهو أعم من صنع وفعل وخلق وأخرج[١]، ولذا قسّموه إلى بسيط ومركب، والجعل البسيط يعني إيجاد الشيء وخلقه نظير خلق الأرض، والمركب يعني تصيير الشيء شيئاً آخر نظير تصيير الأرض بستاناً، أو بإعطائه كيفية خاصة.

كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً﴾[٢] أي أعطى للأرض كيفية تصلح بها أن تكون فراشاً للمشي والجلوس والنوم، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[٣] أي القرآن الذي هو حقيقة نورية أعطاه كيفية خاصة في الحروف والكلمات حتى صار مقروءاً ومكتوباً، وعبَّر عن الجنات ذات الأشجار والفواكة بالجعل لسببين:

السبب الأول: لأن الجنات والأشجار على قسمين بعضها يوجدها الباري بالجعل البسيط، أي يخلقها إبداعاً لدى إحياء الأرض كالغابات، وبعضها بالجعل المركب لأنه يصيِّر الحب والنوى والتراب شجراً.

السبب الثاني: أن الجنة يجعلها بالأشجار العالية التي تتشابك أغصانها فتكون جنة بناءً على إن (من) بمعنى الباء، والمعنى أنه جعل الجنات

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٩٦، (جعل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٣٣٨، (جعل).

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٣.

بالنخيل والأعناب، ولولاهما لم تكن جنة، بل مزرعة، فإن المزرعة ما تختص بالخضر، ولا يقال لها جنة إلّا إذا كثرت فيها الأشجار العالية، فإن الزرع ما ينبت من غير ساق، والشجر ماله ساق وأغصان ويبقى صيفاً وشتاء، والنبات يعم الجميع[1].

ويتحصل: أن الجعل أدق من الخلق في بيان المعنى، كما أنه أدق من الإخراج؛ لأن الإخراج يطلق على النبت الذي يتكوَّن في باطن الأرض ثم يفتق التراب ويخرج، ولا يشمل النبت الذي يغرس، بخلاف الجعل فإنه يشمل الاثنين، والأشجار ينبت بعضه بالتكوين الباطني وبعضه بالغرس والشتال.

وأما السؤال الثاني: فجوابه من وجوه:

الوجه الأول: لأن قوله تعالى: ﴿**الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا**﴾[2] في الآية السابقة يدل على الخضر، لأن إحياء الأرض يتم بزرعها، وأظهر مصاديق الزرع هو الخضار؛ لأنه ينبت بالمطر، ولا يحتاج إلى مزيد مؤونة كما هو حال الفواكه والشجر.

الوجه الثاني: لدلالة الحب عليه؛ لأن أصل الخضر بذور وهو نوع من الحبوب.

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٦٦، (١٠٤٦).

(٢) سورة يس: الآية ٣٣.

الوجه الثالث: لدلالة قوله تعالى: ﴿**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾[1] عليه، فإن الخضر التي يتقوت بها الإنسان نتاج عمله؛ لتوقفها على حرث ونثر البذور والسقي.

وعلى كل تقدير فإن الجعل في الآية المباركة يدل على أن كل حياة وموت بيد الله سبحانه، وكل نمو وحركة وإنبات وإثمار راجع إليه، فكذلك الإنسان في حياته وموته ورجوعه ومعاده كالحب والزرع والشجر أمره بيد الله سبحانه بدءاً وعوداً وإثماراً.

اللطيفة الثانية: لماذا خص العنب والتمر بالذكر؟

أن الجعل تعلَّق بالجنات ولم يتعلَّق بالأشجار؛ إذ لم تقل «جعلنا أشجاراً أو نخيلاً أو أعناباً» لأن موضوع الحديث إحياء الأرض، والجنة هي الأرض المحياة بالزرع والشجر، وفي اللغة هي البستان من النخل والشجر سميت بذلك لأنها تستر الثمار والأرض لكثافتها والتفاف أغصانها مأخوذة من الجن بالفتح أي الستر.

وفي المفردات الجنة: كل بستان ذي شجر يستر الأرض[2].

والجنة قسمان دنيوية وأخروية، والدنيوية هي البساتين وبينها مراتب، والأخروية مسكن المؤمنين، وإلى الأول يشير قوله تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَاآدَمُ**

---

(١) سورة يس: الآية ٣٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٠٤، (جن).

اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[(١)] و قد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن جنة آدم أمن جنان الدنيا كانت أم من جنات الآخرة؟ فقال عليه السلام: «كانت من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنات الآخرة لم يدخلها إبليس، وما خرج منها آدم أبداً»[(٢)] وهنا سؤالان :

السؤال الأول: أن الجنة تحيا بمطلق الأشجار فلماذا خصص النخل والعنب بالذكر؟

والسؤال الثاني: أنه ذكر النخل كشجر فقال (من نخيل) أما العنب فذكره (بالثمر) فقال (وأعناب) لماذا؟

والجواب عن الأول من وجوه:

أحدها: أن النخل والعنب أهم الفواكه وأقربها من القوت الضروري الذي لا يستغني عنه البشر؛ لأنهما قوت وفاكهة معاً، ويدخران كطعام طول السنة.

ثانيها: لأنهما أظهر الأشجار. أما النخيل فبسبب علوها وظهور ثمرها وباقي الأشجار تستظل به، والناظر من بعيد يرى النخل ولا يرى الأشجار المستظلة به، ومثله العنب لأنه يتسلق ويرتفع للأعلى وثماره مميزة عن باقي الفواكه؛ لأنه متدلي كالقناديل فتكون ظاهرة للعيان.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٥.

(٢) مجمع البحرين: ج١، ص٤١٣، (جنن)؛ وانظر علل الشرائع: ج٢، ص٦٠٠، وفيه: ((جنة من جنات الدنيا تطلع عليه فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنات الخلد ما خرج منها أبداً)).

وثالثها: لأن الآية واردة بشأن القوم الذين كذَّبوا الرسل من أهل أنطاكية، وأريد بها ضرب المثل لقريش وغيرهم ممن كذَّبوا رسول الله ﷺ، وأهم أشجارهم كانت النخيل والأعناب.

وأما جواب السؤال الثاني فمن وجوه أيضاً:

أولها: أن العرف يطلق العنب على الشجر كما يطلقه على الثمرة، وبقرينة السياق تحمل الاعناب على الأشجار أيضاً كالنخل، ويطلق على شجر العنب لفظ الكرم لكنه منهي عنه في أخبارنا، فقد ورد عن النبي ﷺ: ﴿لا تسموا العنب الكرم، فإن المؤمن هو الكرم﴾[1] وعلل بعضهم النهي هو أن تسمية العنب بالكرم من باب الأثر؛ لأن الخمر المتخذ من العنب يحث على السخاء فكرهه الشارع إسقاطاً لها عن هذه الرتبة، وتأكيداً لحرمتها، وهذا وجه آخر لذكر العنب بالثمرة دون الشجرة.

ثانيها: أن النخيل لها ثمار كثيرة ولا تنحصر ثمرتها بالتمر، بخلاف الكرم فإن ثمرته واحدة وهي العنب، فإذا ذكر النخيل فيكون قد ذكر جميع ثمارها، وقد ذكروا أن النخلة لا يرمى منها شيء لعدم الانتفاع به، فالجذع والجريد والخوص حتى الليف ينفع في الأبنية والأغطية والأفرشة والطبخ، والليف يحشون به أفخم أنواع الصالونات، وحتى بعد الموت يستحب أن يؤبط الميت بجريدتين من النخل خضراوين، ولهما أثر بالغ في رفع عذاب

---

(١) المحاسن: ج٢، ص٥٤٦، ح٨٦١؛ علل الشرائع: ج٢، ص٥٨٣؛ الوسائل: ج٥، الباب ١٠ من أبواب أحكام المساكن، ص٣١٩، ح٦٦٦٤.

القبر أو تخفيفه أو تأجيله، كما أن ثمره يؤكل في جميع أحواله، ويصنع دبساً وخلاً. أما شجرة العنب فلو أخذ ثمرها لا يبقى إلّا عودها الملتوي الذي في شكله جاف يابس، ولا ينفع في شيء مما ذكر. نعم لثمرة العنب فوائد جمة وكثيرة، ويؤكل في جميع أحواله، ويصنع دبساً وخلاً.

شباهة النخل بالإنسان

ثالثها: أن النخل يشبه الإنسان في خصائصه وصفاته، فإنّها أول شجرة أنبتها الباري عز وجل في الأرض مع آدم، وفي الخبر عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله أنها خلقت من فاضل طينة آدم[١]، ولذا ورد في بعض الأخبار الأمر بإكرامها ووصفت بأنها عمتنا[٢]. **هذا أولاً**.

وثانياً: لأنها تشبه الإنسان من حيث استقامة القد والطول، وأنها تنتج باللقاح بين الذكر والانثى، وأن رائحة طلعها الذي هو لقاحها كرائحة مني الإنسان، ولطلعها غلاف كالمشيمة التي يكون فيها الولد، ولا تموت النخلة بالإخلال بساقها أو سعفها أو جذرها وإنما بقطع رأسها، كما لها مخ وقلب

---

(١) انظر مستدرك الوسائل: ج١٦، الباب ٥٨ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٣٩١، ح٢٠٢٨٣؛ مكارم الأخلاق: ص١٧٤، وفيه: ((خلقت النخلة والرمان والعنب من فضل طينة آدم)).

(٢) الفقيه: ج٤، ص٣٢٧، الهامش؛ مستدرك الوسائل: ج١٦، الباب ٥٨ من أبواب الأطعمة المباحة، ص٣٩١، ح٢٠٢٨٣.

وهو الجمّار، وإذا قورب بين ذكورها وإناثها حملت حملاً كثيراً، لأنها تستأنس بالمجاورة، وإذا كانت ذكورها بين إناثها لقّحتها بالرياح، وربما حزنت النخلة بسبب انقطاع ذكورها فلا تحمل للفراق وتمرض[١]، وقد ورد في الأخبار أن النخل يحس ويتكلم ويتولى أولياء الله[٢].

ولأن النخل على أنواع كثيرة جداً وكذلك العنب يتميز في الحجم والطعم واللون والخصوصيات ذكرتهما الآية بصيغة الجمع (نخيل وأعناب) ولطف الثمرتين أنهما يتشابهان في الشكل حين الولادة والنمو، فالتمرة في أولها كالعنبة لكن إحداهما حلوة والأخرى حامضة، وإنهما يحملان غذاء كاملاً؛ لذا يدخلان في القوت والمؤونة، ولو بلغا النصاب تعلقت بهما الزكاة، فهما طعام وشراب وغذاء ودواء في جميع حالاتهما، وقد ذكروا للعنب خواص، وقد وصف بأنه ربيع لأمة النبي صلى الله عليه وآله[٣]، وأنَّ أكل الأسود منه يرفع الغم، ويقوّي القلب، ويدفع السكتات، وأن زبيبه يشد العصب، ويذهب الوصب، ويطفئ الغضب، ويطيب النكهة، ويذهب البلغم ويصفي اللون[٤].

---

(١) انظر روح البيان: ج١١، ص٣٥١.

(٢) انظر مستدرك الوسائل: ج١٦، الباب ٥٢ من أبواب الأطعمة والمباحة، ص٣٨١، ح٢٠٢٥٨.

(٣) مكارم الأخلاق: ص١٧٤؛ مستدرك الوسائل: ج١٦، الباب ٦١ من أبواب الاطعمة المباحة، ص٣٩٢، ح٢٠٢٩٠، وفيهما: ((ربيع أمتي العنب والبطيخ)).

(٤) روح البيان: ج٢٢، ص٣٥١؛ مكارم الأخلاق: ص١٧٤-١٧٥؛ الكافي: ج٦، ص٣٥٠، باب العنب.

والتمر ينفع جسد الإنسان وروحه، فالذي يأكل التمر لا يقربه الجن، وليفه أفضل منظف للبشرة ويحميها من الأمراض الجلدية، ولو غلي وشرب يفرح القلب، وهو أفضل غذاء يأكله المقاتل في الحرب، وينشط لديه بعض الغدد بما يجعله مقداماً شجاعاً لا يهاب الموت.

والتكحل بمسحوق نواته ينبت الرموش ويقويها ويطيلها، ويحد البصر، ويسود العين ولو خلط مع زيت الزيتون يقوي الشعر، ويدر الحليب، وهو قوت العامة لوفرته وقلة سعره وكثرة فائدته[1]، وبهذا يتضح أنه حيث ذكر النخل والعنب كأنه ذكر جميع الفواكه والأشجار؛ لأنهما يشتملان على خصائصها، فما تفرق في الأشجار والثمار الأخرى من خصوصيات اجتمعت في التمر والعنب؛ لذا خصهما بالذكر.

اللطيفة الثالثة: لماذا ذكر العيون دون المطر؟

أن عطف قوله سبحانه: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾[2] على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾[3] من باب المقابلة، فإن الثمرة هي عين الشجرة في الهواء، والعيون ثمرة الأرض في الأرض، فكما أن العيون تحيي الشجر والنبات وبها تعتدل الأرض وتخرج من

---

(١) انظر الغذاء لا الدواء: ص١١٩؛ الكافي: ج٦، ص٣٤٥، باب التمر؛ المحاسن: ج٢، ص٥٢٨، باب التمر.

(٢) سورة يس: الآية ٣٤.

(٣) سورة يس: الآية ٣٤.

اليبورة إلى الخصبة كذلك الثمار تحيي الإنسان؛ لأنه الغذاء الأساس لاستقامة صحته واعتدال مزاجه.

والنكتة اللطيفة أن الآية ذكرت العيون ولم تذكر المطر مع أن الأرض تحيا بالمطر أيضاً.

والجواب: لأن الحديث عن الشجر والفاكهة، وأشجار الفاكهة تحيا بمياه العيون لا الأمطار؛ لأنها تحتاج إلى سقي دائم ومتوازن مع الحاجة، والمطر ليس كذلك دائماً؛ لذا تكثر الحبوب والأعشاب في مواطن المطر، وتكثر الأشجار في مواطن العيون والأنهار. **هذا اولاً**.

وثانياً: لأن العيون من أسباب المطر، وذكر العلة أولى من ذكر المعلول، وربما يقال لماذا ذكر العيون ولم يذكر الآبار أو الأنهار؟

والجواب: لأن الآية في مقام الامتنان وبيان النعم الإلهية على البشر، وذلك يستدعي ذكر ما جعله الباري عز وجل من النعم مباشرة ولم يتدخل فيه الإنسان، والعيون كذلك فإنها تنبع من باطن الأرض بنفسها من دون عمل الإنسان، وتكون في الغالب في المناطق الوعرة والصعبة التي يعجز الإنسان عن بلوغها أو العمل فيها كقمم الجبال، أو بطونها، وتكون صافية نقية صالحة للحياة، وتغذي الأنهار والوديان.

بخلاف الآبار فإنها تكون بعمل البشر، ولا تسقي الأرض بنفسها، بل بالنزح ونحوه، وقد تكون مالحة أو مجَّة فلا تصلح للحياة دائماً، وتكون في المناطق المنخفضة من الأرض.

فالأنسب بموضوع الحديث هو العيون لا الآبار ولا الأنهار؛ لأنها أيضاً قد تكون بعمل الإنسان، ومياهها نابعة من العيون لا من نفسها، ولذا ختم الباري عز وجل ذلك بقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[1] وبذلك يعرف أمران:

أحدهما: وجه المناسبة بين ذكر العيون وبين المعاد؛ بداهة أن العيون أصل حياة الأشجار والفاكهة كما أن الماء سيغمر القبور، ومنها يبعث أهلها ويقومون كما تقوم الأشجار من الأرض.

ثانيهما: أن النخيل والعنب من الأشجار والتي نبتت أولاً بفعل الباري عزّ وجل، فهي من بدائع المصنوعات، ولم يتدخل الإنسان في وجودها كبعض الأشجار والفواكهة التي ربما تدخل يد الإنسان في زراعتها أو تكوينها بالتركيب والتهجين.

اللطيفة الرابعة: اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾[2] على أقوال، فنسب إلى المشهور القول بأن المرجع هو الله سبحانه، والمعنى ليأكلوا من ثمر الله سبحانه[3]، ووجهه ظاهر؛ بداهة أن الأشجار وثمارها والعيون وأنهارها والزرع وحبوبها وكل شيء يعود إليه سبحانه، وهو ثمار فعله وإرادته وفضله وإحسانه، وذهب البعض إلى أنه

(١) سورة يس: الآية ٣٥.

(٢) سورة يس: الآية ٣٥.

(٣) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص٦٣.

النخيل[١]، وأما الأعناب فيشترك مع النخل في الأثر فلا داعي لذكره، وذهب آخر إلى أن المرجع هو الاثنان ولم يثن الضمير لأنه عائد على المعهود الذكري[٢] وهو الجنات[٣]، أو ما جعلناه[٤]، وذهب البعض إلى أن المرجع هو تفجير العيون؛ لأن فوائد الأرض وأشجارها ناشئة من تفجير العيون، ورجحه على غيره استناداً إلى قاعدة رجوع الضمير إلى أقرب المراجع[٥]، وهناك أقوال أخرى بعيدة عن الظهور والقرائن الداخلية والحالية[٦].

والحق أن الجنات والنخيل والأعناب واحد لمكان (من) النشوية أو الجنسية، ومفادها أن الجنات مصنوعة من النخيل والأعناب فيتفق القول، وإرجاعها إلى العيون فيه تكلف ينافي الظهور، على أن ثمار العيون لا تنحصر بالمأكول، وحمله على النخيل دون الأعناب بلا مرجح، بل مناف للقاعدة، وحمله على القول الأول بعيد عن الظهور ومنقوض بالحب؛ فإنه أيضاً من ثمار فعله سبحانه، وربما يقوَّى القول الثالث ويقال إن المراد

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٢؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٨١.

(٢) بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٧؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٦٣.

(٣) التبيان: ج٨، ص٣٤٦؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥٤؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٣٣؛ روح البيان: ج١١، ص٣٥٣.

(٤) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٧٤.

(٥) تفسير الميزان: ج١٧، ص٨٦.

(٦) انظر تفسير الميزان: ج١٧، ص٨٦-٨٧.

النخيل والأعناب، وإنما أفرد الضمير للإشارة إلى أهمية كل واحد منهما، وإن الأكل يمكن أن يكون من كل واحد منهما على الاستقلال، وهو كثير الوقوع في الاستعمالات العرفية، وقد ذهب جمع من الأصوليين إلى أن الضمير يعود على جميع المراجع، وحيث لا أثر عملي يترتب على التفريق بين الأقوال يمكن القول بها جميعاً لعدم التنافي.

ولعل إبهام الضمير في نفسه يشير إلى هذه النكتة، وهو لزوم صرف العناية والاهتمام إلى المعنى المقصود وروح البيان. نعم هناك نكتة لطيفة ذكرتها الآية في الأكل، فإنها في الحب قالت: ﴿**فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**﴾[١] بينما في الجنات قالت ﴿**لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ**﴾[٢] وصيغة الأولى جملة خبرية بينما الثانية إنشائية، وفي ذلك دلالة على أن الحب مما لا غنى للإنسان عنه، فالحاجة الأولية للبشر كافية لحثه نحو أكله، بخلاف الفاكهة فإنها تستدعي الحث إما لأنه يجد الفائدة في بيعها لا أكلها لاسيما أنه يبذل جهداً كبيراً ونفقة لجنيه، أو لغفلته عن القيمة الغذائية فيها، وحيث إن حياة الإنسان بصحته حثت الآية على أكله وترجيح هذه المصلحة على مصلحة الاستثمار.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٣.

(٢) سورة يس: الآية ٣٥.

اللطيفة الخامسة: في قولة تعالى: ﴿**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾[١] اختلف المفسرون في (ما) على أقوال، فقال بعضهم هي موصولة فتكون معطوفة على ما يأكلونه من حب وثمر، والذي يعملونه منتوجات الحب والثمر كالخبز والمربيات والمعاجين والأدوية والعصائر ونحوها، وذهب البعض إلى أنها مصدرية وهي كالأولى لكنها بعيدة عن الظهور، ووجه الشكر فيه هو رجوع المقتضيات ورفع الموانع إليه سبحانه، وذهب جماعة إلى أنها نافية فتكون معطوفة على الجعل، فتؤكد المعطوف عليه، والمعنى أن الحب والجنات ليسا من عمل أيديهم، بل من فعل الله سبحانه، وهو أوفق بقوله: ﴿**أَفَلاَ يَشْكُرُونَ**﴾[٢].

ويمكن الجمع بين الأقوال؛ لأنها إن كانت موصولة أو نافية فإن ما يعمله الناس مرجعه إلى الله سبحانه بالمباشرة أو الواسطة، فتكون من موجبات الشكر الذي به تدوم النعم، وصيغة الاستفهام الاستنكاري تشير إلى أن أكثر الناس لا يشكرون عناداً أو جهلاً وغفلة، وبذلك يخالفون عقولهم وفطرتهم السليمة.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٥.

(٢) انظر مقتنيات الدرر: ج٩، ص٨١ ـ ٨٢.

اللطيفة السادسة: فوائد الشكر وآثاره

أنّه سبحانه حث على الشكر بصيغة الاستفهام الاستنكاري بعد بيان النعم المستوجبة للشكر؛ لأن في الشكر فوائد:

الأولى: أنه يرتقي بالإنسان إلى مصاف الأدب العالي والكمال الإنساني، فإن لكل حق واجباً، ولكل نعمة شكراً وإن لم ينتفع بها المشكور، فلا يقال اذا كان الباري غنياً فلماذا يحث على الشكر؟

الثانية: أنه يزيد النعمة؛ لأن من سننه سبحانه أنه يزيد النعم بالشكر؛ لذا قال: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[1] ومن مظاهر زيادة النعم البركات والخيرات والإفاضات المادية والمعنوية على الشاكرين.

الثالثة: أن عدم الشكر مساوق للجفاء، وهو من موجبات الحرمان؛ لأنه ظلم.

ويتحصل من مجموع مفردات الآيات ولطائفها: أن كل ما يحدث في الأرض من مظاهر إحياء سواء بالزرع أو بالإشجار أو بالمياه والعيون وكل ما يحدث من آثار عمل الإنسان فإنه دال على أمرين:

أحدهما: البعث والنشور؛ إذ ليس إحياء البشر وإعادتهم بمباين لإحياء الأرض الميتة بمظاهر الحياة.

ثانيهما: أن كل ذلك يعود إلى قدرة الخالق وإرادته، والقدرة الإلهية واحدة، وتعلقها بالمقدورات كذلك، فكما أنه إذا أراد أن يحيي الأرض

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٧.

بالزرع والبساتين يقول: (كن فيكون) فكذلك إذا أراد أن يحيي الموتى من الأرض يقول لهم كن فيكونون.

فإنكار البعث أو الرجعة أو المعاد الجسماني كاشف عن خلل الاعتقاد بقدرة الخالق فضلاً عن تكذيب إخباراته، ولعل من جمال التعبير أنها ضربت مثلاً بالنخيل والعنب وهما قائم - أي النخيل – ومطروح - أي العنب - ولا يقوم إلّا بالقوائم والعريش ونحوه، وكلاهما منتج ومثمر، وكذلك الإنسان سواء كان قائماً فوق الأرض أو مطروحاً في بطنها فإنه مثمر بعمله وجهده وعطائه؛ لأن ثمرته في روحه لا في جسده.

المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين

و هي عديدة:

التعليم الأول: معرفة الله بالنظر لآياته

إن معرفة الله تتم بواسطة النظر إلى آياته لا النظر إلى ذاته، ولذا نهت الروايات عن التفكير في ذاته سبحانه، وأشارت إلى أن النظر إلى ذاته يزيد الإنسان بعداً وتحيّراً؛ لأن حقيقة الذات فوق مستوى العقل والتفكير فيضل فيها، والنهج الصحيح للتفكير وبلوغ المعرفه هو النظر إلى آياته، ولمّا لم يعمل الملاحدة وبعض الحكماء بهذه الضابطة ضلوا وأضلوا.

التعليم الثاني: حق الربوية والعبودية

إن حق الربوبية والعبودية مختص بالخالق عزّ وجل، ويقوم هذا الحق بعد المعرفة بوجوب الشكر، وفي ذلك إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن الرزق مكفول للعباد فلا ينبغي لهم أن يحرصوا كثيراً عليه؛ لأنه سبحانه جعل الحب والفاكهة والماء وهي أبرز النعم والأرزاق من آياته وحججه، وهي دائمة لا تزول، فعلى العبد أن يهتم كثيراً لشكر النعمة وليس لتحصيلها لأنها مكفولة.

ثانيهما: أن كل نعمة يحصلها الإنسان عليه أن ينظر إلى مصدرها وأصلها، ولا يقصر نظره على ذاتها، فإن النظر إلى المصدر يهذب الإنسان ويجعله متواضعاً مقراً بفقره وحاجته إلى ربه، وشاكراً لأنعمه، وهو من دواعي الزيادة، كما يدعوه إلى النظر في حلال النعمة وحرامها، والغفلة عن ذلك تجعل العبد جاهلاً متكبراً وهي من دواعي الحرمان.

التعليم الثالث: أن الغذاء الذي يناسب حاجة الإنسان وله الأثر الكبير على صحته وعافيته وحياته المادية هو مايخرج من الأرض من حبوب وثمار لا الأكلات المصنوعة الجاهزة، ولمّا لم يعمل الناس بهذه القضية كثرت فيهم الأمراض الصعبة.

التعليم الرابع: في قوله سبحانه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾[١] بناء على الموصول يعلمنا الباري عز وجل أن لا ننكر النعمة أو نبخس الناس أشياءهم، فمع أنه سبحانه السبب لوجود الإنسان فضلاً عن قدرته وفضله فإنه يقرّ له بما يعمله ولا ينكره، كما يقرّ له باختياره، وكيف للناس أن ينكروا فضل الخالق وفضل بعضهم البعض ولا يشكرون؟

التعليم الخامس: قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ يدل على وجوب أكل التمر والعنب من وجهين:

أحدهما: كونها لام الأمر.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٥.

وثانيهما: كونها لام الغاية، ووجه الوجوب في الأول الظهور، وفي الثاني هو كونها محققة للغرض المولوي أو المحصِّل للملاك على ماقرره الأصوليون، وذلك يدل على أن لثمار النخيل والاعناب الأثر البالغ على حياة الإنسان وصحته. نعم يجب ذلك ولو في العمر مرة؛ لكفاية امتثال الأمر بالمرة، والتكرار يفتقر إلى دليل.

وفي كون الوجوب مولوياً أو إرشادياً احتمالان؛ إذ قد يستفاد من إطلاق الأمر الأول لكون الأصل في الأمر هو الوجوب العيني التعييني النفسي، إلّا أن الضرورة و السيرة قائمتان على العدم، فيحمل على الندب، والحق أن الأمر في مثلها محمول على الإرشاد للانصراف المعتضد بالضرورة والسيرة.

التعليم السادس: قواعد وفروع أصولية وفقهية

يستفاد من الآيات بدلالة الاقتضاء والإشارة جملة من القواعد والفروع الأصولية والفقهية:

منها: أصالة الإباحة والحل في الأشياء؛ لقوله: ﴿**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾[1] عطفاً على ﴿**لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ**﴾[2].

ومنها: جواز حيازة ما في الغابات والعيون والبساتين غير المملوكة، ومياه العيون واستملاكها والتصرف بها وعدم جواز مزاحمة الحائز؛ لأنه مما جعله الباري عز وجل أو الحيازة مما عملته أيديهم.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٥.

(٢) سورة يس: الآية ٣٥.

ومنها: جواز أكل ما عملته أيديهم، وبناء على أن المراد باليد الكناية عن الفعل الذي ينجزه الإنسان يشمل الأعمال الفكرية والعبادية فضلاً عن البدنية، فيجوز الاتجار بها والتعاقد عليها بمختلف أنحاء العقود والايقاعات إلّا ما خرج.

ومنها: أن الإحياء في كل شيء بحسبه؛ لذا جعل الباري عز وجل تفجير العيون وما عملته أيديهم من الإحياء، وبها تثبت كبرى وصغرى قاعدة الإحياء، ومفادها أن إحياء الأرض مملك ومبيح للتصرف، ويتحقق الإحياء بمثل الزرع وغرس الأشجار وتفجير العيون وحفر الأنهار ونحو ذلك.

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ
أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ

يس/ ٣٦

تكامل العقل والدين

وردت هذه الآية متفرعة عن الآيات السابقة، وابتدأت بتنزيه الباري عز وجل بمفردة التنزيه أي قوله: (سبحان) واسم الموصول الذي يؤكد النزاهة لإفادته البعد والتجرد عن المذكورات للإشارة إلى أمور تهدي الناس إلى حقيقة صفات الباري.

أحدها: أن الأرض تحيا وتموت وكذلك البشر يحيا ويموت، وله مبدأ ومعاد وتقلبات في الحوادث ودوران بين الكون والفساد. كل ذلك بفعل الله سبحانه، والفاعل الذي يحدث كل هذه الحوادث يجب أن يكون منَّزهاً عنها ولازم هذا التنزيه هو الحياة الدائمة؛ إذ ليس كمثله شيء.

ثانيها: أنّ هذه الحوادث والتغيّرات الحاصلة في المخلوقات ناشئة من الفقر والحاجة، فالأرض محتاجة إلى الماء، والنبات محتاج إلى الارض والماء، والإنسان محتاج إلى الكل، والباري عز وجل منزه عن ذلك كله، فهو الغني المطلق والحق الثابت الذي لا يتبدل ولا يزول.

ثالثها: أن هذه الحوادث محسوسات يدركها البشر بأبصارهم، ويحيطون بمعرفتها في مشاهداتهم الحسية، وهو سبحانه منَّزه عن ذلك؛ إذ ﴿**لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾[1] فلا ينبغي أن يحكم على الباري بذات

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

الحكم الذي يحكم به على غيره، فإن الخالق غير المخلوق في الحقيقة والأوصاف والأفعال.

رابعها: أنّ الأزواج تعني التعددية والتركيب، فكل ما سواه مركب إلّا هو بسيط لا تركيب فيه، وبذلك يبطل قول بعض الحكماء القائلين بتعدد البسطاء.

خامسها: أنّ الأوهام التي تخترق عقول بعض الناس وقلوبهم وتشككهم في قدرة الله وحكمته وتدعوهم إلى الشك في المعاد والرجعة ناشئة من قصورهم وعجزهم ومحدودية تفكيرهم، والباري عزّ وجل منزَّه عن كل أوهام المتوهمين وتشكيكات المشككين؛ لأنّه قادر وحكيم، وبذلك يتضح ان التفرد في الذات والصفات والافعال من اخص اوصاف الربوبية فلا واحد ولا أحد بمعنى المتفرد في ذاته وصفاته إلّا هو سبحانه. هذا وتفصيل البحث في الآية يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾

نصت الآية على أنه خلق الأزواج كلها. والأزواج: جمع زوج ويطلق على القرين والصنف والمثل، وجامعه ما يكون ضد الفرد[1]، وهو أعم مما له علاقة زوجية، و(كل) من أقوى أدوات العموم الاستقرائي، ولا يراد بوصف الزوجية هنا المفهوم، بل هي مسوقة لثبوت الموضوع، والمعنى أن كل مخلوق هو زوج في منشئه مكون من أنثى وذكر، أو ما بحكمه كالسالب والموجب وفي صورته؛ لأن كل ممكن زوج تركيبه من ماهية ووجود ومن مادة وصورة، ولا مجال لتوهم إرادة المفهوم لأنه مستحيل.

وتوضيح ذلك: لو قيل بأن وصف الزوجية يراد به الاحتراز عن غير الزوجية ومعنى الآية أنه سبحانه خلق الأزواج ولم يخلق غير الأزواج أي الفرد، وعدم خلقه لها فيه احتمالان:

---

(١) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠٥-٣٠٨، (زوج).

الأول: أنها لم تخلق لأنّها قديمة.

الثاني: أنّها مخلوقة لغيره.

وكلاهما ممتنع؛ لأن الأول يستلزم تعدد القدماء وهو في نفسه باطل، بل لا يعقل أن تحمل عليه الآية؛ لأنه ينقض غرضها؛ بداهة أنها في مقام الإرشاد إلى توحيد الخالق، والقول بوجود قديم غيره ينقضه.

والثاني يستلزم تعدد الخالق وهو كالسابق ممتنع ذاتاً ووقوعاً من جهة الخلف، واستلزامه الفساد؛ لذا قال سبحانه: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[١] على ما قرره أهل المعقول في برهان التمانع، فلم يبق إلّا أن يراد به أنّها لم تخلق لأنها غير موجودة، فتكون من السالبة بانتفاء الموضوع.

ويتحصل من ذلك: أن كل ما سوى الله سبحانه مخلوق له وهو زوج تركيبي في ذاته ووجوده ونظامه العام. أما الأول والثاني فأمرهما ظاهر، وأما الثالث فلأنّ النظام العام للخلق يقوم على التكامل والاحتياج إلى الغير فلا يمكن أن يعيش وحده، ولا يبقى ويتكامل إلّا مع غيره.

وفي ذلك دلالة على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم؛ إذ أخبر عن حقيقة كلية لم يتوصل إليها العلماء في زمان نزوله، وهي أنّ الأشياء كلها تقوم على نظام الزوجية، ولم يتوصل اليها العلم إلّا في زمان متأخر، فأثبت هذه الحقيقة، وهذه حجة دامغة لمن يريد المعرفة تثبت له صدق النبي وحقانية القرآن.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

وإذا أثبت العلم صدق الآية في الجملة وتوصل إلى ما أخبرت به فإنه ينبغي تصديقها فيما لم يتوصل إليه العلم، فعلى فرض أن العلم لم يدرك نظام الزوجية في بعض الموجودات فإن ذلك لا يستدعي تكذيبها أو ردها ما دام الخالق الذي صنع الأشياء وأوجدها أخبر عن نظامها، وهذا ما يقتضيه العقل والموضوعية العلمية، فلا يصح إنكار ما لا ندركه بالحس، ولا نكذب مالم نحط به علماً.

لا سيّما وأنّ غاية ما يقوله العلم هو عدم العلم بأن قانون الزوجية عام، ولا يدعي العلم بالعدم وبينهما فرق كبير وفي صورة عدم العلم يجب تصديق العالم إذا أخبر عن المجهول، وأما تكذيبه أو إنكار ما أخبر به فهو خروج عن النهج العلمي.

قضايا الدين وحقائقه

ومن هنا قلنا غير مرة إن الدين يشتمل على أنواع ثلاثة من القضايا:

الأول: القضايا المحسوسة التي ندركها بالحس.

الثاني: القضايا المعقولة التي ندركها بالعقل.

الثالث: القضايا الغيبية التي لا يدركها الحس ولا العقل.

والأولى والثانية ينبغي تصديق الحس والعقل فيهما، وأما القضايا الثالثة فيجب تصديق الدين بها؛ لأنه يعلم بها ويخبر عنها، فإنكارها انحراف عن النهج العلمي الصحيح.

ولعل الآية السابقة ذكرت النخيل والأعناب للإشارة إلى هذه الحقيقة، فإن قانون الزوجية في النخيل معلوم يدركه الناس؛ إذ يتم الإثمار فيها بالتزاوج بين الذكر والأنثى.

وأما الأعناب فنظام الزوجية فيها خفي، وقد ذكرتهما الآية للإشارة إلى أن عدم معرفة نظام الزوجية في الأعناب لا ينبغي أن يكون داعياً لتكذيبه، فإن حكم الأمثال واحد، وما دام النخل الذي هو شجر أعظم من الأعناب ونظام حياته أعقد بل يقارب حياة البشر يخضع لهذا القانون فلا ينبغي أن يستبعد ذلك فيما هو دون ذلك.

المفردة الثانية: ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾

أكدت الآية بهذا البيان قانون الزوجية بدلالتين:

الأولى: قوله تعالى مما تنبت الأرض، وهو يشمل كل ما تنبته الأرض سواء في ظهرها كالنبات أو في باطنها كبعض المعادن.

الثانية: قوله ومما لا يعلمون فإنه يشمل كل أمر غير محسوس أو بعيد عن علم الإنسان، كما يشمل الأمور الموجودة بالفعل، أو التي كانت موجودة، أو التي ستوجد في المستقبل، فكل ما سوى الله سبحانه هو زوج.

والنكتة اللطيفة في التعبير أنها نسبت الإنبات إلى الأرض فقالت: ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾(١) ولم تقل لما ينبت في الأرض، أو ينبته الباري عز وجل في

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

الأرض، وفي ذلك إشارة إلى أمرين هامين كانا ولا زالا محل جدل بين المذاهب والآراء:

الأول: أن الفعل يصح نسبته إلى غير العاقل، وأن ما ظاهره ليس بعاقل هو عاقل وفاعل ومؤثر، فالأرض بحسب النظر البدوي كيان جامد لا يملك عقلاً ولا قدرة ولا حياة، لكنها بالنظر القرآني العميق هي عاقلة وقادرة وفاعله وحية بنسبة من الفعل والقدرة والحياة والعقل، ويمكن توجيه ذلك بأحد توجيهين:

أحدهما: أنها كذلك في طول إرادة الله وقدرته؛ لأنه سبحانه قدّر لها أن تكون كذلك، كما قدر للإنسان أن يكون فاعلاً عن قدرة وعقل واختيار، وتشهد له الآيات الأخرى التي تدل على أنّه سبحانه يوحي إلى الأرض وأنها تحدِّث أخبارها[١]، وأنها تطيع أمر الباري.

وثانيهما: أنها مظهر إرادة الله وقدرته، وبذلك تبطل نظرية الأشاعرة القائمة على الجبر في الإنسان، فما بالك بغيره؟ ومما يثير الغرابة استدلال بعض مفسري العامة على مدعاهم بأنّ ﴿**كُلَّهَا**﴾ في الآية دالة على أنّ أفعال العباد مخلوقة له سبحانه لإثبات الجبر[٢]، بل هو بعيد عن التحقيق من وجهين:

---

(١) انظر سورة الزلزلة: الآيتان ٤-٥.

(٢) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص٦٤.

الوجه الأول: أن الخلق تعلق بالأعيان والذوات لا بالأفعال، فقال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾[1] فالأعيان مخلوقة له.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾[2] يثبت بطلان ما ذكر؛ لأنَّه نسب الإنبات إلى الارض وبهذا يتضح صواب ما يقوله الامامية من أن الإنسان سبب لأفعاله وعليها يثاب ويعاقب وأما الاعيان فهي جبرية وهو أحد معاني الأمر بين الأمرين:

والخلاصة: أن الآية تبطل نظرية الجبر كما تبطل النظرية القائمة على نفي الحياة والقدرة والفعل في الجمادات من المخلوقات، وتتأكد نظرية ثبوت الحياة والعقل والفعل في كل المخلوقات؛ لأنها آثار صنعه، والمصنوع يحمل شيئاً من صفات الصانع، ويتوافق مع نصوص الكتاب والسنة التي أثبتت العبادة والتسبيح والذكر لجميع الأشياء، وخضوع الأشياء لأولياء الله وحججه، وتكلمها معهم، وتصريحها بالإيمان لهم، وأن الأشياء تشهد للإنسان وعلى الإنسان، وبه أيضاً يتضح بعض السر في الكثير من المعاجز والكرامات التي تظهر على أيديهم.

الثاني: تبطل نظرية الصدفة في أصل الخلق، ونظرية أصل الأنواع، ونظرية ارتقاء الأنواع؛ لأن الأولى مبنية على إنكار وجود العلة للخلق، والثانية والثالثة مبنيتان على أساس النشوء من الخلية البسيطة، وذلك من وجهين:

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

(٢) سورة يس: الآية ٣٦.

أحدهما: أن الآية تنفي وجود الصدفة والخلية البسيطة.

ثانيهما: أن فرض الصدفة ووجود الخلية البسيطة مبني على ظنون وتصورات لا تستند إلى دليل؛ لأن غاية ماتفيده هو الاحتمال، والقرآن والعقل كلاهما يبطلان ذلك، ويشهدان على أن عدم الإدراك أو عدم المعرفة لا يعني عدم الوجود، فمن أين علموا بأن الأشياء حدثت صدفة وبلا سبب؟ ومن أين عرفوا أن السبب على فرض وجوده فهو بسيط غير مبني على الزوجية؟ لا دليل لهم على ذلك سوى الاحتمال الذي لا يقره عقل ولا دليل، ولم يثبته علم، بل أثبت خلافه، وهو يشمل كل ما لا يعلم سواء كان من الجماد أو الحيوان أو القوانين والأنظمة في الفضاء.

المفردة الثالثة: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾

عطف على قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾[1] يدل على أن الأنفس أيضاً تخلق بالإنبات، وبقرينة الرواية القادمة يستفاد منها أن المراد الأنفس الحيوانية ﴿وَمِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ إما تبعيضية أو نشوية أو جنسية.

والأول: يشير إلى أن بعض الأنفس لا تنبت وتكتمل، بل تموت إما في ذاتها كنطفة العقيم أو بسبب الطواريء كالسقط.

والثاني: يفيد أن النفوس تخلق من النفوس، فكما أن الأرض تنبت الحب والشجر كذلك النفوس تنبت النفوس وهو ما يؤكده الواقع، فإن

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

النطفة تتكون في باطن الأصلاب ولا خيار للآباء والأمهات في نشوئها وتكوينها، ولا في حياتها وموتها.

والثالث: يفيد وجود المماثلة في النفوس وعدم تغايرها في الذوات والآثار والخواص البشرية، وفي ذلك إشارة إلى قانون الوراثة وانتقال خصوصيات الآباء إلى الأبناء، والثاني أظهر، ولا تنافي بين المعاني، فلا مانع من الجمع.

المفردة الرابعة: النفي في ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

فإنه يفيد استمرارية الخلق في جميع الازمنة وعدم الإحاطة به أو البر أو البحر، وقوله (مما) يفيد أن بعض ما لا يعلم يكتشف ويتوصل إلى علمه، وبعضه مما لا يعلم، والأول مثل الذرة فإنها كانت مما لا يعلم ثم علم بها، وأثبت العلم أنها قائمة على نظام الزوجية أيضاً، ومثل ذلك يقال في الكثير من القوانين والأسرار التي يكتشفها العلم يوماً بعد يوم.

والعلوم الحديثة ليست إلّا اكتشافات لما أودعه الباري عز وجل من أسرار في هذا العالم، وكذا النبات فإن العلم والتجربة أثبتا أن بعضها ذكر وبعضها أنثى مثل النخيل، وهناك نبات لا فرق فيها بين الذكر والأنثى فتلقحها الرياح؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[1] وبعضها جعل الباري الأنوثة والذكورة فيها مثل الأعشاب والخضر كالقمح والرز

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٢.

والذرة، فإن العود الواحد منها يحمل الصفتين، وحينها ننظر إلى الجبال وهي جرداء قاحلة وكذا الصحراء فإذا أمطرت اخضرت، فمن بذر فيها البذور وأنبت فيها النبات؟ ومما لازال غير معلوم كالروح، فإنّ الباري عزّ وجل يخلق الأرواح ويفيضها على الأبدان دائماً، ولكن أمر الروح مجهول لا يعلمه إلّا هو سبحانه ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[1].

والسؤال أن الآية المباركة ذكرت النبات والإنسان ولم تذكر الحيوان؟

والجواب: لأن زوجية الحيوان ظاهرة معروفة، والذي كان خافياً هو خلق النبات وخلق الأنفس، أو لكونه مما تنبت الأرض، أو للاستغناء عنه؛ لأن الآية ذكرت ما هو أدنى منه وهو النبات، وما هو أعلى منه وهو الإنسان، وذلك يغني عن ذكره.

وفي رواية علي بن إبراهيم بسنده عن الحلبي عن الصادق عليه السلام فسر الروح الحيوانية بالنطفة. قال: «إن النطفة تقع من السماء إلى الأرض على النبات والثمر والشجر فتأكل الناس منه والبهائم فتجري فيهم»[2] أي الخلق، والمراد به هو الروح الحيوانية لا الإنسانية بدليلين:

أحدهما: أنها التي تتكون من الطعام، وأما الروح الإنسانية فتفاض من الباري عز وجل لقوله تعالى: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي**﴾[3] وقوله سبحانه:

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٥؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٧٣، ح٤٤.

(٣) سورة الحجر: الآية ٢٩؛ سورة ص: الآية ٧٢.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾[1] بعد أن فصّل في تكوين مراحل الجنين في الرحم، فالروح الإنسانية ليست نطفة بل خلقاً إلهياً خاصاً يفاض على الأبدان.

ثانيهما: القرينة الداخلية؛ إذ نصت الرواية على أن نُطف البهائم كذلك تقع على النبات، وعلى هذا يحمل الوقوع في قوله: (تقع من السماء إلى الأرض) على وقوع التقدير الإلهي، أو الأمر بالتكوين، أو الإرادة الإلهية بخلق الشيء.

وواضح أن الرواية واردة لبيان أهم المصاديق أو أكملها، فلا تخصص عموم الآية لإبائه عن التخصيص، فإن قوله: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾[2] وهو في مقام التنزيه والتعظيم يدل على عدم خرق هذا القانون في شيء من المخلوقات.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٢) سورة يس: الآية ٣٦.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: الأبناء صنائع الآباء

إن منطوق الآية يحاكي منطوق الآيات السابقة، فإن قوله تعالى: ﴿**خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ**﴾[1] يقابل الحب والشجر في الآيات السابقة، وقوله: ﴿**وَمِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ يقابل ما عملته أيديهم، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الأولاد الذين يخلقون من أنفس الآباء يعدون مما عملته أيديهم من جانبين:

جانب النشأة والسببية وجانب التربية والتعليم، فإن الأولاد صنائع الآباء والأمهات جسداً وروحاً؛ لذا حثت الشريعة كثيراً على التغذية السليمة للآباء والأمهات ولقمة الحلال، ووضعت تعاليم وآداباً لتكوين الولد منذ الخطبة والزواج إلى أن يولد لكي يخرج سليماً كاملاً في جسده وعقله وروحه ودينه، كما تضافرت بذلك الأخبار الشريفة، وتترتب على هذه الولادة والعمل آثار شرعية وإنسانية كثيرة كما قررها الفقهاء في الأبحاث الفقهية.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

اللطيفة الثانية: معنى التسبيح وآثاره

ذكر المفسرون أن كلمة سبحان في قوله سبحانه: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾[١] إما عَلَم للتنزيه[٢] وإما مفعول مطلق منصوب بفعل مقدَّر أي أنزهه تنزيهاً وأسبحه تسبيحاً[٣]، وإما مصدر مثل غفران[٤]، ومآل الكل واحد؛ لأن المصدر واسم المفعول والعَلَم مشتقات من أصل الكلمة، وسبَّح في اللغة تعني نزَّه، والتسبيح التنزيه[٥].

وسبحان الله له معنيان:

أحدهما: تنزيه الله سبحانه من العيوب والنواقص، ومعناها أبرّئ الله من كل ذلك.

ثانيهما: السرعة إليه والخفّة في طاعته وعبادته، وهو ناظر إلى أصل التسبيح في اللغة وهو المرّ السريع. يقال للعوم سبح لأن فيه سرعة وخفة في الماء، وكذا في الهواء، بل وعلى الأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾[٦] أي نشاطاً وحركة دائبة وعملاً سريعاً[٧]. وأطلق على

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

(٢) تفسير الرازي: ج٩، ص٦٤.

(٣) تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٤٨؛ روح المعاني: ج٢٣، ص١٤.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: :ص٣٩٣، (سبح).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٩٢، (سبح)؛ مجمع البيان : ج٨، ص٢٧٤.

(٦) سورة المزمل: الآية ٧.

(٧) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٩٢ (سبح).

النجوم السبح في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[١] والمعنى الأول يعود إلى الثاني؛ لأن التسبيح يقع بالمرّ السريع في التنزيه دون الخوض في التفاصيل؛ إذ يكتفي المسبح بنسبة النزاهة إليه من كل عيب ونقص، ودواعي التسبيح عديدة:

منها: التعجب كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾[٢] وهو تنزيه في موضع التعجب لعظمة الآية والقدرة في الإسراء.

ومنها: الذكر كما في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾[٣].

ومنها: العبادة والطاعة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٤].

ومنها: التنزيه والأمان من الآفات والعيوب كما في قوله تعالى: ﴿لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٥].

ومنها: ما يشتمل على ذلك كله كما في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٦] ولعل الآية مورد البحث منها.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٣.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٥) سورة التوبة: الآية ٣١.

(٦) سورة يس: الآية ٨٣.

وذكروا أن كلمة (سبحان) وردت في القرآن في خمسة وعشرين موضعاً في ضمن كل منها إثبات صفة من صفات المدح ونفي صفة من صفات الذم[١]، والتسبيح نوعان فطري خلقي وحالي، وتسبيح قولي ومقالي، وهو من الحقائق التي تشترك فيها جميع المخلوقات من أعلاها إلى أسفلها، فلكل صنف من الملائكة والأنبياء والأولياء تسبيح خاص، وله أسباب وأسرار وآثار.

فقد ورد أن تسبيح حملة العرش: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر. وتسبيح ميكائيل مع الكروبيين: سبحان المعبود بكل مكان، سبحان المذكور بكل لسان.

وتسبيح جبرئيل مع الروحانيين: سبحان الملك القدوس، سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

وتسبيح رضوان خازن الجنان: سبحان من في السماء عرشه، سبحان من في الأرض سلطانه، سبحان من في الجنة فضله.

وتسبيح مالك خازن النار سبحان من في البر بدائعه، سبحان من في البحر عجائبه، سبحان من في النار عذابه.

وتسبيح عزرائيل مع أعوانه: سبحان من تعزز بالقدرة، وقهر العباد بالموت.

وتسبيح آدم عليه السلام: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي القدرة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت.

---

(١) بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص١٧٦.

وتسبيح نوحعَلَيْهِ السَّلَامُ: سبحان ذي المجد والنعم، سبحان ذي القدرة والكرم، سبحان ذي الجلال والإكرام.

وتسبيح إبراهيمعَلَيْهِ السَّلَامُ: سبحان الأول المبدئ، سبحان الباقي المغني، سبحان المسمى قبل أن يسمى، سبحان العلي الأعلى، سبحان الله تعالى.

وتسبيح يعقوبعَلَيْهِ السَّلَامُ: سبحان الذي أحاط بكل شيء علماً، سبحان الذي أحصى كل شيء عدداً، سبحان حافظ كل غائب وراد كل فائت.

وتسبيح يوسفعَلَيْهِ السَّلَامُ: سبحان الذي تعطف بالعز وقال به، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به، سبحان من لا ينبغي التسبيح إلّا له.

وتسبيح موسىعَلَيْهِ السَّلَامُ: سبحان ذي العز الشامخ المنيف، سبحان ذي الجلال الباذخ العظيم، سبحان ذي الملك القاهر القديم، سبحان من هو في علوه دان وفي دنوه عال، وفي إشراقه منير، وفي سلطانه قوي، وفي ملكه عزيز، سبحان ربي العظيم.

وتسبيح عيسىعَلَيْهِ السَّلَامُ: سبحان الواحد الأحد، سبحان الباقي على الأبد، سبحان الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وتسبيح المصطفىصَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: سبحان الله وبحمده، سبحان العظيم وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، وقد ورد في الأخبار من قالها كل يوم سبعين مرة حُطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر(١).

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز: ج٣، ص١٧٤ ـ ١٧٦.

وتسبيحة الزهراء صلوات الله عليها وآلها معروفة في آثارها وبركاتها.

وتسبيح المؤمنين: سبحان ربي العظيم وبحمده في ركوعهم، وسبحان ربي الأعلى وبحمده في سجودهم.

ومن هنا قال أهل المعرفة - وهو المستفاد من مضامين النصوص الشريفة - إن أركان الدين أربع كلمات هي عرش العلم ومعرفة الله سبحانه ومفتاح الخزائن والأسرار هي: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر).

وعصارة بعثة الأنبياء هي التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وهي روح العبادات والأذكار والطاعات، وبها تبنى مواطن أهل الجنة

وفي رواية ابن أبي عمير عن جميل بن دراج عن الصادقعليه السلام - العالية السند بقلة طرقه واشتماله على ابن أبي عمير - قال: ﴿قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: لما أسري بي إلى السماء دخلت الجنة ... ورأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وربما أمسكوا فقلت لهم: ما لكم ربما بنيتم وربما أمسكتم؟ فقالوا: حتى تجيئنا النفقة. فقلت لهم: وما نفقتكم؟ فقالوا: قول المؤمن في الدنيا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله اكبر﴾[(١)].

وهنا نكتة لطيفة ينبغي الإلفات إليها، وهي أن هذا الذكر - أي التسبيحات - ورد في الصلوات.

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٥٣؛ وانظر البحار: ج٨، ص١٢٣، ح١٩؛ البحار: ج٩٠، ص٨٣.

فالمواظبة على الصلاة من آثارها أنها تهيء موطن السكن في الجنة، فما بالك بالمواظبة عليها في غيرها أيضاً بأن يجعل المؤمن ذكره ورده ذلك.

والخلاصة: الآية الشريفة التي عليها يدور البحث ابتدأت بـ (سبحان) فقالت: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا**﴾[١] والمراد بالتسبيح هنا ما يشمل جميع المعاني والدواعي، فهي تفيد التنزيه والتعجب والعبادة والذكر، وتشهد له قرينتان:

الأولى: السياق، فإنّها في معرض الحديث عن صفات خلقه تبارك وتعالى وتقلبات الأحوال فيها من الموت والحياة والإنبات ونحوها، وإن خلقها وتكوينها قائم على الزوجية، وهو في عين الحال الذي يتضمن معنى التعجب للخلق يتضمن التنزيه كما عرفت.

الثانية: استعراض النعم المستمرة التي كانت ولا زالت ولا تزول التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[٢] فإنّه يستدعي الشكر وهو عبادة وذكر.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

(٢) سورة يس: الآية ٣٦.

بطلان نظرية الواحد

وإنما قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾[١] لأسباب عديدة أشير إلى اثنين:

السبب الأول: تنزيه الباري عز وجل عن نظام الزوجية؛ لأنه من مختصات المخلوق، وأما الخالق عز وحل فليس كمثله شيء، والأولى صفة ذم، والثانية صفة مدح، وقد قلنا إن التنزيه له وجهان، وبهذا تشير الآية المباركة إلى وجه العلاقة بين الخالق والمخلوق، وهي علاقة الفقر والحاجة، وبه تبطل نظرية الحكماء في القول بقدم العالم المبنية على الصدور وقاعدة الواحد، فإن العالم مخلوق وليس بصادر، كما أنه أزواج وليس بسائط، ولا يتوقف على السنخية بين الخالق والمخلوق، بل هو خلق وإيجاد بالارادة والاختيار ويتعلق بالكثير، فما يقوله الحكماء من أن الواحد لا يصدر إلّا من الواحد، وأن الواحد لا يصدر إلّا الواحد يخالف قول القرآن الكريم.

كما يظهر بطلان نظريات الماديين وقد تقدم ذكره.

فالحق أنّ علاقة الخالق بالمخلوق علاقة خلق وصنع وإيجاد، فلا قدم للخلق، ولا قديم إلّا الخالق تبارك وتعالى، كما لا بسيط إلّا الله، ولا كامل ولا غني إلّا هو، وأما غيره فكله فقر وعجز وحاجة وحدوث.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

وهن البرهان اللّمي في المعرفة

السبب الثاني: لإثارة العجب والتعجب فيهم من فعله سبحانه، إذ يحيي الموتى، وينبت الأرض، ويفجر العيون، ويوجد في أنفسهم أولاداً وذرية، ويخلق ما لا يعلمون ليحفز فيهم النباهة والفطنة والشعور الوجداني إلى أمرين:

الأمر الأول: معرفة الخالق عز وجل وكمال قدرته وعلمه ومعرفة أنفسهم وكمال فقرهم وحاجتهم، وهذا يتضمن برهانا إنّياً يقود الإنسان من معرفة المخلوق إلى معرفة الخالق عزّ وجل، وفي عين الحال يصنع المنهج الصحيح للمعرفة الإلهية وهو جعل مدار الفكر والتفكير للوصول إلى الغاية عبر النظر إلى الآيات والآثار لا التفكير في ذات المؤثر.

وهذا البرهان وإن استصغر شأنه بعض أهل المعقول من الحكماء ويدعون إلى المعرفة عبر البرهان اللمي الذي ينتقلون فيه من معرفة الخالق إلى معرفة المخلوق إلّا أن ما ذكروه عليه إشكالات ثلاثة:

الإشكال الأول: أنه طريق خاص لا يدركه إلّا الخواص، وأما عموم الناس فيصعب عليهم دركه، والطريق العام الذي يحقق الغرض ويتمم الحجية على جميع الخلق هو البرهان الإنّي.

الإشكال الثاني: أنه طريق غير مضمون العواقب، وربما لا يوصل إلى المطلوب؛ لأن العاقل المحدود لا يمكن أن يدرك الغيب اللامحدود، فمهما أمعن في التفكير وتعمق فإنه لا يمكن أن يتخلص من أوهامه وظنونه

العقلية، وهو ما يؤكده الواقع، فإن أوهام الحكماء والفلاسفة في مباحث التوحيد كثيرة، ولم يتفقوا على قول في مسألة من مسائل معرفة الله سبحانه، بخلاف البرهان الإني فإنه يقوم على مقدمات حسية ونتيجة عقلية توصل إلى المطلوب؛ بداهة أن النظر إلى آيات الله سبحانه في صنعه وآثاره توصل إلى معرفة المؤثر والخالق وكمالاته؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وكمالات الادنى رتبة كاشفة عن كمالات الأعلى.

الإشكال الثالث: أن البرهان اللمي في نفسه لا ينفك عن البرهان الإني؛ لأن معرفة الخالق كيفما تكون لا تخلو من احتمالين:

أحدهما: أن يكون العاقل قد نظر إلى قصوره وعجزه وفقره أولاً وأدرك أنه ليس من نفسه فلابد وأن تكون من غيره، وهذا انتقال من معرفة المعلول إلى العلة على حد قولهم، وهو عين البرهان الإني.

ثانيهما: أن يكون قد نظر إلى العالم نظرة إجمالية وأدرك أنها حادثة فلابد لها من محدث؛ إذ لولا هذه النظرة لم يتوصل إلى شيء؛ لأن العلوم التحصيلية متوقفة على تصور وتصديق، وحيث إنه مستحيل أن يتصور الخالق فيستحيل أن يصدِّق به لولا أن يتصوّر المخلوق أولاً.

والخلاصة: أن البرهان اللمي في معرفة الخالق إما باطل في نفسه أو لا يوصل إلى المطلوب، وبهذا نلفت أنظار أهل المعرفة من الإلهيين والطبيعيين والملاحدة إلى أن المنهج الصحيح للمعرفة ينبغي أن يقوم على النظر إلى الآيات والدلائل في الخلق لمعرفة الخالق وليس العكس وهو نهج القرآن الكريم.

توظيف العلم للشكر والعبودية

الأمر الثاني: يفتح باب التأمل والترقب لما يحدث في المستقبل من حوادث ووقائع وتطورات، فإن قوله: ﴿**ومِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[1] يدل على وجود أشياء وقعت وستقع في المستقبل هي الأخرى خاضعة لقانون الزوجية، ولو توصل إليها العلم فانه لا ينبغي أن يغتر به، ويغفل عن السبب المكوّن لها، فإن كل ما يتوصل إليه العلم ليس للإنسان فيه سوى البحث والاكتشاف لا التأسيس والإيجاد، ولذا يعبَّر عنها معلومة، أي كانت موجودة ثم تعلق بها العلم.

فالفضل للخالق المكون هو الذي أوجد الأشياء وأودع فيها قوانينها، والعلم يبحث عنها ويتوصل إليها، ومادام الأمر هكذا فإن أصحاب الفطنة والنباهة من العلماء في مختلف العلوم لا يصيبهم الغرور والعجب فيما يعلمون، بل يزدادون تواضعاً وخضوعاً وخشوعاً لرب العالمين تبارك وتعالى.

كما لا يغفلون عن العبادة والعبودية، فإن مقتضى العقل والفطرة في هذا الحال أن يوظفوا العلم والمعلومات في خدمة تعاليم الخالق وإرشاداته، فعبادتهم وعبوديتهم تكون بذلك، فإذا كابر العلماء ووظفوا العلم على خلاف تعاليم الخالق المنعم يكونون قد جفوا حقه، وتعالوا عليه، وعبدوا أنانيتهم وشياطينهم.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

اللطيفة الثالثة: الزوجية علة التأثير في الخلق

قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾[١] في موقع التعجب والعبادة يدل على أن كل شيء في الوجود الإمكاني المخلوق لا يثمر ولا ينتج ولا يعطي خصائصه وآثاره إلّا بالاكتمال والتفاعل مع غيره، وقد أثبتت العلوم التجريبية في مثل الكهرباء التي تعد من أهم مقومات الأجهزة والصناعات والتقنيات الحديثة لا تنتج إلّا بسالب وموجب، وكذا الذرة والماء والهواء، وحتى العلاقات الإنسانية فإنها تقوم بنظام الزوجية، فالعقود تعطي آثارها بنظام الزوجية، والعبادات كذلك تقوم بهذا النظام؛ لأنها علاقة بين اثنين هما العابد والمعبود، والعلم يقوم على نظام الصور الذهنية والربط بينها، أو فهم العلاقات والارتباطات بين الأشياء، فلا تأثير ولا تأثر ولا مؤثر في عالم الإمكان إلّا ويقوم على نظام الزوج والزوجية، ولا أحد ولا مؤثر في نفسه إلّا الله سبحانه.

ومن ذلك يعرف أن الباري عز وجل منزه في ذاته؛ وفي صفاته وفي أفعاله، وهو الوجود المتفرد الذي لازوجية في ذاته ولا في صفاته وافعاله، فذاته منزهة عن النواقص، وصفاته وأفعاله منزهة عن العيوب، وهذه خصوصية لا تكون إلّا له. أما غيره من المخلوقات فهو حليف النقص فيها جميعاً أو في بعضها، إلّا من عصمه الباري عز وجل وجعله مظهر كماله وجلاله لكنه لا يخرج عن قانون الزوجية.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

اللطيفة الرابعة: العلم يقود إلى الإيمان

في قوله: ﴿وممَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ دلالة على حقيقتين هامتين:

الأولى: أن القرآن الكريم كتاب إلهي مُنّزل عن العالم المطلق والخالق الحكيم، وقد أودع فيه أسراره وقوانينه، فما على البشر إلّا أن يتدارس آياته، ويستنتج منها ما يهمه لحياته الأفضل.

الثانية: أن العلم كلما تطور واكتشف من الحقائق والأسرار الغيبية ينبغي أن يكون طريقاً للإيمان بالحقائق الغيبية الأعظم التي أخبر عنها القرآن مثل المعاد والرجعة والبرزخ وظهور صاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه الشريف، فالعلم الذي أقر بقانون الزوجية الذي أخبر عنها القرآن فإنه يقر بكل الحقائق التي أخبر عنها كذلك؛ لأن المخبر واحد، فالذين يدعون أنهم يقرون للعلم ويذعنون لنتائجه هم أيضاً يجب أن يقروا لما يخبر به القرآن لذات السبب، فلو كان من يقبل بالعلم ويقر بنتائجه ولا يقر للقرآن وإخباراته فإن ذلك كاشف عن وجود خلل في الشخص أو في المنهج ينبغي أن يعالج.

ولعل إلى هذا تشير كلمات بعض حكماء الغرب، بأن الدين سيكون هو الحاكم في مصير العالم؛ لأن العلم كلما يتطور يتوصل إلى ما أخبر به الدين في القرآن والسنة، وهذا ما أخبر عنه القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾(١).

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

إن قيل: لماذا جعل التعبير مجملاً في قوله: ﴿وممَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1] ولم يبينه؟ فالجواب من وجوه:

أحدها: لأن العقول لم تكن مستعدة لإدراك ما سيخلق في مستقبل العالم فيكون سبباً للجحود والكفران؛ لأن الناس أعداء ما جهلوا، والحكمة العلمية والتعليمية تقضي أن يقال للناس ما يعرفون لا ما ينكرون.

ثانيها: لأجل أن يحث الناس على التفكير والتأمل على قدر سعة الوجود، ولا يضيِّقوا عقولهم وعلومهم على ما عندهم، فإنه لولا النظرة المستقبلية لا يحصل تطور وتكامل.

ثالثها: لأجل مواكبة التطور التدريجي في البشر، فإن العلوم البشرية لا تحصل بالطفرة والصدفة، بل بالتدريج، وكلما تطور في مرحلة اكتشف ما لم يكتشفه السابقون عليه، فيكون مدعاة للشعور بالإنجاز والعطاء والارتباط بالخالق والتوافق مع سببه في الوجود.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: كل شيء يقوم بالزوجية حتى الدول

إن الآية المباركة وردت بلسان جملة خبرية تكشف عن قانون تكويني حاكم في الوجود الإمكاني يستند إلى قاعدتين:

الأولى: كل موجود ممكن هو زوج، وكل زوج هو ممكن.

الثانية: أن خصائص كل موجود وآثاره تتقوم بالزوجية، فلا تظهر خصوصيات الأشياء إلّا بالتفاعل والتزاوج بغيرها، وهذا ما يؤكده الواقع الخارجي من الذرة إلى المجرة سواء في الوجود المادي المحض أو في الوجود الطاقي مثل الكهرباء، فكل ثمرة وأثر هو نتاج عملية مزاوجة بين شيئين أو أكثر مثل الذكر والأنثى في الإنسان والحيوان، أو مزاوجة بين قرين وآخر مثل الكهرباء، ولا تختص هذه الحقيقة بالوجودات المادية بل حتى الأعمال الفكرية والعلاقات الإنسانية في الإدارة والاقتصاد والسياسة والأدب، وكل الأنشطة التي يقوم بها البشر هي عبارة عن نتاج تزاوج وتكامل في الأفكار والأدوار والمهام والمشاعر الإنسانية.

فلولا المزاوجة لم يتولد أفراد، ولم تتكون أسرة ولا مجتمع ولا دولة ولا حضارة. كل ذلك كشفت عنه الآية المباركة، وأكدت أن ذلك هو قانون خلقه الباري عزّ وجل، وجعله الحاكم في الأشياء منذ أول الخليقة إلى ختامها، ويتوصل منه إلى حقيقة هامة وهي وجوب التخلي عن الفردية والأنانية في الفكر والعمل، فإن الإنسان مهما بلغ من القوة والقدرة والمكانة فإنه لا يمكن أن يستغني عن الآخرين، وفي أي مجال من مجالات الحياة التزم الناس باحترام قانون الزوجية وتعايشوا معه تمكنوا من بلوغ أهدافهم، ومتى ما تخلوا عنه انتهوا إلى الفساد والخراب؛ لأنهم مشوا على خلاف طبائع الأشياء، فإن التشارك بين الزوج والزوجة يقود إلى أسرة موفقة وسعيدة، واحترام الرأي الآخر وتفهم المطالب المشروعة للآخرين يقود إلى حكومة ناجحة وبلد مستقر، واحترام التنوع الفكري والاجتماعي والتعايش معه يقود إلى مجتمع آمن وحياة مدنية وازنة، بخلاف علاقات الندية والتضاد والتنافر فإنها تقود إلى الشقاء والتعاسة.

وحتى على صعيد الأفراد فإن الأمير والمدير والوزير ورئيس الحزب والطبيب والمعلم ورب الأسرة إذا لا يبنون نهجهم وفكرهم على أساس احترام قانون الزوجية والمشاركة والتكاملية فإنه لا يمكن أن يكونوا ناجحين ولا موفقين، وحتى علاقة الحكومة بالشعب لو قامت على التفاهم والتزاوج في الأدوار والمهام كان الرقي والتمدن هو النتاج، وإلّا كان العكس.

فالآية المباركة وإن وردت بلسان الإخبار إلّا أنها تتضمن الإنشاء وإلزام العباد باحترام قانون الزوجية والالتزام بضوابطه؛ لتوقف الكثير من الواجبات عليه، بل وحرمة مخالفته؛ لأن الفردية والإقصاء والاستبداد يسبب الظلم والفساد والتعدي على حقوق الآخرين.

وجوب العمل بقانون الزوجية

والنتيجة الحاصلة هي أنَّ تفهّم قانون الزوجية والعمل به واجب عقلاً وشرعاً من جهتين:

الأولى: كونه مقدمة للواجب.

والثانية: كون الأخذ بضده محرماً فيكون واجباً لعدم وجود ضد ثالث بين الزوجية والفردية، فإذا حرمت الفردية وجبت الزوجية.

إن قيل: إن الكثير من الأصوليين نفوا الملازمة بين الأحكام فإن المستحب يستحب فعله ولا يكره تركه، والمكروه فعله كذلك ولا يستحب الفعل، فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن ما ذهب إليه الأصوليون أخص؛ لأنه قد ينطبق في الأحكام غير الملزمة، وأما في الملزمة فيمكن القول بالملازمة؛ بداهة أن كل واجب تركه حرام، وكل فعل حرام تركه واجب؛ إذ لا يعقل أن يوجب الشرع الصلاة مثلاً ولا ينهى عن تركها، ولا أن ينهى عن ترك الكذب دون الأمر بالصدق. نعم لا يجب على الشرع بيان الضد؛ لأن العقل يقضي بترك

الضد، فإن معنى وجوب الصلاة شرعاً هو عدم جواز تركها عقلاً، ومعنى حرمة الكذب عقلاً وجوب الصدق.

ولا يقال لو ثبتت الملازمة استلزم أن يكون لكل واجب ثوابان ثواب الفعل وثواب عدم الترك، وكذا في ترك الحرام، وهو خلاف الضرورة والإجماع، ولم يستفد من الأدلة الشرعية؛ لأن الثواب والعقاب يدوران مدار الحكم الشرعي لا ما يحكم به العقل، والحكم الملازم مستفاد من حكم العقل لا الشرع، لا سيما إذا كان الضدان مما لا ثالث لهما.

ثانيهما: لو سلّمنا نفي الملازمة فإنه يستثنى منه ما دل الدليل على وجودها، سواء بالدلالة الخاصة أو العامة الناشئة من انطباق بعض العناوين الواجبة والمحرمة عليها، ففي الصلاة مثلاً يوجد عنوانان هما الطاعة والعصيان، فإن صلى العبد كان مطيعاً، وبهذا الاعتبار تكون واجبة، وإن تركها كان عاصياً، وبهذا الاعتبار يكون تركها حراماً، وكذا في مثل الكذب والصدق والأمر بين الزوجية والفردية كذلك؛ إذ لا يوجد ضد ثالث بينهما، فلو وجبت الزوجية حرمت الفردية إلّا ما خرج بدليل.

والسؤال الذي يتحتم هنا هو أن الباري عز وجل أخبر عن قانون الزوجية وهو أصل تكويني قائم أوجده في الأشياء، والأمور التكوينية لا يتعلق بها التكليف؛ لأنها غير مقدورة للعباد، ولازم ذلك القول بأن الآية في مقام الإخبار المحض ولا يمكن حملها على الإنشاء لوجود المانع، وفيه جوابان نقضي وحلي.

أما النقضي فبمثل تعلّق الأمر بالعلم بوحدانية الخالق كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلَّا اللهُ﴾[(١)] وتعلّقه بإنقاذ الأهل والأولاد من النار؛ إذ قال سبحانه: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾[(٢)] فإن حصول العلم بالوحدانية والوقاية من النار ليس في قدرة العبد فكيف تعلق بهما التكليف؟

وأما الحلي فمن وجهين:

الوجه الأول: أن غير المقدور بالمباشرة قد يكون مقدوراً بالواسطة، وبهذا الاعتبار يكون داخلاً تحت القدرة، ويصح تعلق التكليف به، وقد اتفقت كلمة أهل المعقول على أن المقدور بالواسطة مقدور.

فالعلم بالوحدانية خارج عن قدرة العبد بالمباشرة إلّا أنه مقدور عليه بواسطة النظر في آياته وآثار قدرته، فإن العبد إذا نظر إلى عجزه وفقره وما في الوجود من آيات ودلائل في المخلوقات يتوصل إلى وجود الخالق وقدرته كالطبيب الذي يعجز أن يكون عالماً بالطب إلّا بالتعليم، وهكذا الأمر في كل علم وعالم.

ومثله يقال في الوقاية من النار، فإنه وإن لم يكن مقدوراً بالمباشرة إلّا أنه بتوسيط التعليم وتربية الأولاد وجعلهم من الصالحين يكون مقدوراً، والآية أمرت بها بهذا الاعتبار، ومثله يقال في الزوجية والفردية، فإن النظام

---

(١) سورة محمد: الآية ١٩.

(٢) سورة التحريم: الآية ٦.

التكويني وإن كان قائماً على الزوجية والآية أمرت الناس بمراعاة هذا القانون لكي يبنوا حياتهم على موازينها ويحترموا بعضاً ويتعاونوا ويتكاملوا في أفكارهم وأعمالهم، وهذا أمر مقدور، كما أن مخالفته كذلك؛ لذا يجب الأول ويحرم الثاني.

الوجه الثاني: أن الأصل القانوني تكويني وليس للإنسان قدرة عليه إلّا أن مطابقة عمل الإنسان وفكره مع هذا القانون أمر اختياري مقدور، ومعنى ذلك أن الآية أمرت الناس في أن يحترموا قانون الزوجية ويعملوا به فيما يتعلق بشؤونهم الفكرية والعملية فيبتعدوا عن الفردية والاستبداد والأنانية، وبذلك يتضح إمكان حمل الآية على الإخبار الإنشائي الدال على وجوب مراعاة قانون الزوجية وتجنب الفردية.

وربما يقول قائل هذا تام من حيث الأصل إلّا أن العمل بهذا القانون يتوقف على معرفة مبادئه التي بها يتحقق؟ فهل أشار القرآن إلى ذلك؟

مباديء قانون الزوجية

والجواب: نعم أشار إلى ذلك في آيات عديدة أقتصر هنا على الإشارة إلى مبادئ ثلاثة عليها يقوم نهج الزوجية.

المبدأ الأول: ترك النزاع، فإن النزاع والتخاصم من أكبر مضادات الزوجية واحترام الآخر، ولا يمكن أن تقوم حياة شخصية أو اجتماعية مع التضاد والمخاصمة وفي هذا يقول الباري عز وجل: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[1].

وقد أمر بإطاعة الله والرسول والنهي عن التنازع وبيان حكمة الأمر والنهي، ولاشك في أن الله سبحانه ورسوله يأمران بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهيان عن الفحشاء والمنكر والبغي، ويأمران بأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل والتنازع يبطل ذلك كله؛ لأنه يؤدي إلى التفرق والمحاربة والهزيمة، فإن التنازع هو الاختلاف وتعاند القوى في الشيء الواحد فكل منهما يجذبه لنفسه ويقطعه عن غيره. يقال تنازع القوم الشيء أي تجاذبوه، فكل منهم يريد أن ينزعه عن غيره ويتفرد به[2]، وفي التنازع يحصل أثران:

الأول: ضعف المتنازعين؛ لأن كلا منهما يهدر قوته في النزاع.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٦.

(٢) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٩١٤، (نزع).

الثاني: عدم وصول كل طرف إلى غايته، والمحصلة النهائية هو الفشل والهزيمة؛ لذا قال سبحانه: ﴿**فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[١] وذهاب الريح أبلغ من الفشل، بل يدل على الفشل الذريع الذي ينتهي إلى الفناء والعدم.

وتوضيح ذلك: أن الريح تطلق على معنيين.

أحدهما: الهواء المدمر؛ لأن الهواء إذا تراكم صارت له قوة هائلة تدمر الأشياء، وقد أشار القرآن الكريم إلى أنّه من الآيات الإلهية التي استعملت في التدمير والإهلاك، ولا يعبر عن الهواء بالرياح إلّا في مواطن الخير، والنكتة اللطيفة بينهما أن الريح المدمرة تأتي من جهة واحدة، وكأن الهواء كله اجتمع في مكان واحد وهجم للتدمير، بخلاف الرياح فإنها تأتي من جهات متعددة، ولذا تلقح وتنزل المطر. نعم ورد التعبير عن الريح في مورد حركة السفن؛ إذ وصفت الريح بأنها طيّبة، إذ يقول تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا**﴾[٢] فإن وصف الريح بالطيبة أعطاها خصوصية الرياح، وأما إذا وردت مجردة من الوصف فيراد بها المدمرة.

ثانيهما: الرائحة. يقال ريح عطرة، ومن شأن الريح العطرة أنها شائعة غير خفية يدركها الآخرون، وأن أثرها يبقى، ومن شأن البشر أن لكل واحد منهم رائحة خاصة به مثل بصمته وصوته وخطه. لعل الناس لا

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٦.

(٢) سورة يونس: الآية ٢٢.

يستطيعون تمييز رائحة كل واحد إلّا القليل منهم، لكنّ الكلاب المدربة قادرة على تمييز الرائحة الخاصة بكل إنسان، فيأتي الكلب ويشم رائحة الإنسان ثم يتبع أثره إلى المكان الذي ذهب إليه، ولذا يستطيع أن يميز المتهم من بين الكثير، ولا تختلط عليه الأرياح، وفي قصة يوسف ويعقوب دلالة على هذه الحقيقة(١).

فالأشخاص لهم رائحة خاصة والمجتمع له رائحة خاصة، وإطلاق الآية المباركة يدل على أن التنازع ليس فقط يقود الأفراد والمجتمع إلى الفشل، بل يذهب ريحهم، أي لا تبقى لهم قوة ومهابة يخشاها الأعداء، ولا يبقى لهم لون متميز ولا أثر باق بين الأفراد والمجتمعات، ولو لاحظنا واقع المجتمع المسلم اليوم أفراداً وجماعات لوجدناه شاهداً حياً على ما ذكرته الآية المباركة.

واليوم لا يوجد مجتمع من مجتمعات هذه الأرض يعيش الانحلال والانهيار وذهاب القوى والتبعية كما يعيشه المجتمع المسلم، فلا يملك سيادة على أرضه ولا خيراً ولا عزة ولا كرامة، والاقتتال والحروب تطحن به ليل نهار، لماذا؟

الجواب: لأنه خالف سنة الله سبحانه في قانون الزوجية ففككته الفرديات والعصبيات والأنانيات والقمع المتواصل.

---

(١) انظر سورة يوسف: الآية ٩٤.

فتعاليمه عز وجل ورسوله تنص على ترك التنازع، والمسلمون لم يطيعوهما بذلك، والمصير هو الفشل والانهيار الكامل.

المبدأ الثاني: التعاون، وهذا المبدأ يبنى على الأول؛ إذ لا يمكن أن يكون تعاون قبل ترك التنازع. قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾(١) والتعاون على وزن التفاعل وهو الواقع بين طرفين، والمعنى أن الاثنين فصاعداً إذا تشاركا في إنجاز عمل أو مهمة يقال لهما تعاونا، فكان لكل منهما جزء الدور والأثر، ولولاه لم يكن.

وتضمنت الآية أمرين ونهياً. موضوع الأول التعاون على البر والتقوى، والثاني التقوى، وموضوع النهي التعاون على الإثم والعدوان.

وقد وقع الكلام في أن الأمر والنهي مولوي شرعي أم إرشادي إلى حكم العقل أو الفطرة؛ لأن العقل يستحسن التعاون على الخير لما فيه من جذب النفع ودفع الضرر، أو لما فيه من شكر المنعم.

وعلى كل تقدير فإن الآية صريحة الدلالة على وجوب التعاون على البر والتقوى وحرمة التعاون على الإثم والعدوان، وبقرينة المقابلة يمكن حمل البر على جميع أعمال الخير التي يصل نفعها للناس والتقوى على الأوامر الشرعية التي تخص النفس، وحمل الإثم على الذنوب الخاصة والعدوان على ما يشمل الإضرار بالآخرين.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢.

والأمر الثاني بتقوى الله ينبه العباد إلى أن كل ما يفعلونه هو تحت نظره ورقابته، وهو العالم بالنوايا والأسرار والأقوال والأعمال فلا تخفى عليه خافية سواء في الأعمال الفردية أو التشاركية.

والآية بهذا المنطوق أوجبت على الناس الأخذ بمبدأين عليهما تقوم الحياة الفردية والاجتماعية في جميع أبعادهما:

التعاون في الخيرات فكراً وعملاً، والارتداع عن التعاون في الذنوب والآثام فكراً وعملاً، وهي بهذا تقر قانون الزوجية في الأول وتمنع عنه في الثاني، ولو ترك الناس التنازع وتعاونوا على البر والتقوى وتجنبوا التعاون على الشر ماذا ستكون النتيجة؟

الجواب: مجتمع صالح وبلد آمن مستقر لا فقر ولا فقير فيه، ولا ظلم ولا مظلوم، وكل ذلك من آثار قانون الزوجية، وهذه القضية تعد اليوم من أهم أسباب الرقي الحضاري، كما أن تركها من أهم أسباب الانحطاط والاستعمار والاستغلال، فالدول حيث تتعاون على الإثم والعدوان وتشكل الأحلاف بدوافع الأنانية والمصلحة تكون استعمارية، ومتى ما تعاونت على الدوافع الإنسانية ساد الأمن والوئام في العالم، كما أن الدولة الواحدة حيث تتعاون مؤسساتها ومديرياتها لخدمة الصالح العام تتحول إلى دولة الخيرات، ولو تفككت وصار كل طرف فيها ينازع طرفاً آخر ساد الفساد والظلم وهكذا.

فالزوجية التكوينية ترشد إلى الزوجية التشريعية والاجتماعية حتى يتم التكامل، فكما أن الزوجية التكوينية شاهدة على تمام الخلق وكماله كذلك

الزوجية التشريعية والاجتماعية شاهدة على الكمال والتكامل، وأجلى مصاديقها التعاون على البر والتقوى.

المبدأ الثالث: الشورى والتشاور؛ إذ جعلها الباري عز وجل من أهم مميزات المجتمع المسلم وتقع في مصاف العبادات والتسامح والتناصر. قال تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[1] بصيغة جملة خبرية في مقام الإنشاء بما يفيد الوجوب المؤكد، ويدل في عين الحال على أمرين:

أحدهما: أن صفة المؤمن تلازم الشورى والتشاور واحترام الآخرين والاستفادة منهم، ومقابلها الاستبداد والتفرد القائم على الإقصاء والاحتكار.

ثانيهما: أن الشورى في المجتمع ثقافة عامة من أوليات الأمور وبسائطها إلى كبارها وخطوراتها كما يفيده قوله: ﴿**أَمْرُهُمْ**﴾ فإن الأمر يشمل كل الشؤون التي تتعلق بالمجتمع المسلم، وفي الأحاديث الشريفة حث كبير على هذه الحقيقة.

ففي الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: «يا رسول الله! ترد علينا أمور لا نرى لله فيها حكماً، ولا نرى لسنة نبيه فيها حكماً، فماذا نصنع؟ قال صلى الله عليه وآله: أجمعوا العباد واجعلوها شورى، ولا تقتدوا برأي واحد»[2] والمقصود كل ما لم يرد فيه نص من الموضوعات لا الأحكام؛ لأن

---

(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.

(٢) انظر تفسير الشعراوي: ج١٨، ص٥٤٥؛ تفسير الآلوسي: ج٢٥، ص٤٦؛ الأحكام (لابن حزم): ج٦، ص٧٦٧، وفيه: «يا رسول الله: الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن، ولم يمض فيه منك سنة؛ قال: اجمعوا له العالمين – أو قال العابدين من المؤمنين – فاجعلوه شورى بينكم، ولا تقضوا فيه برأي واحد».

الأحكام لا تصنع بالشورى بل بالتعبد الشرعي، وآثار الشورى على الصعيد الفكري والنفسي والعملي للأمة كبيرة وكثيرة أشارت إليها النصوص لا يسعنا المجال هنا لبحثها.

ومعلوم أن المجتمع الذي يترك التنازع ويقوم على التعاون على البر ويتشاور في أموره لابد وأن يكون قوياً مهاباً له آثار ومميزات تعطيه المكانة بين المجتمعات، ويتميز بالتطور والرقي؛ لأن فعاليات أبنائه قائمة على التعاون في العمل والتشاور في القرار. هذه الثلاثة هي مبادئ التحضر والارتقاء في المجتمعات وليس الشوارع العريضة وموديلات الملابس أو أشكال الطعام والتقنيات المتطورة؛ لأن هذه ليست إلّا قشوراً للتطور. أما التطور الحقيقي يبدأ من الإنسان في الفكر والعمل، والتطور الإنساني يبدأ بالتسامح وترك النزاع، والتعاون والتكامل بالشورى والعمل.

وهذه جميعاً من مظاهر قانون الزوجية الذي أقام الباري عزّ وجل عليه نظام التكوين، وأمر العباد أن يوائموا حياتهم في الفكر والعمل معه.

التعليم الثاني: أن الاهتمام والعناية في كل عمل وفكر ينبغي أن يكون في الجذور الراسخة وعدم الاكتفاء بالتفكير السطحي أو الأعمال البسيطة؛ لأن الجذور هي التي تنبتها الأرض، وتكون راسخة فيها، وهذا هو الفارق بين الإصلاح الجذري والإصلاح الهامشي، وبين الفكر العميق والساذج، وبين الأعمال الباقية والأخرى الزائلة، ولذا دأبت المدارس الفكرية والمذاهب والأديان على تربية الإنسان والتأثير عليه قبل كل شيء؛ لأن ما يتعلق بعقل الإنسان وقلبه هو الباقي والمؤثر، وأما ما يتعلق بجسده وحياته السطحية فلا.

التعليم الثالث: أن الأدب الإنساني الرفيع والذي يقضي به العقل والفطرة هو أن يكون لكل نعمة شكر، ولا ينبغي أن يدور الشكر مدار النفع، بل يدور مدار الحق والواجب والكمال والنقص.

فإن من أسدى نعمة إلى إنسان استحق الشكر منه، ولو توقف الشكر على النفع خرج عن كونه شكراً، وصار انتفاعاً وانتهازاً، فإن الشكر يكون لأداء الحق. هذا لو كان المنعم بشراً، فما بالك بالمنعم الحقيقي الذي إليه تعود سائر النعم؟ فإن شكره ليس فقط من باب أداء الواجب، بل هو حقه ان يشكر، ومن مقتضيات شكره تنزيهه عن العيوب والنواقص، ومن هنا ابتدأت الآية بمفردة التسبيح والتنزيه بعد استعراض النعم في الآيات السابقة.

التعليم الرابع: التواضع للعلم والدين

إن من مقتضيات العلم والعقل وآدابهما أن لا يكذّب الإنسان ما لا يعرفه ولا يفهمه، فربما يمر الزمان ويرتقي العلم أو العالم أو تنكشف بعض الأسرار والغوامض فيصدق الإنسان ما كذبه سابقاً، ويرتضي ما رفضه أولاً، وفي هذا تعليم هام لفئتين من الناس:

الأولى: الذين يتعالون على تعاليم الدين التي لا يفهمها العلم، أو لا يجد لها تفسيراً فيكذبونها، فإن الآية تدلهم على أن في الوجود خلقاً لا يعلمه الناس، ولا يتوصلون إليه، فتكذيبهم لما لا يعلمونه ولا يفهمونه خرق لآداب العلم وموازينه.

الثانية: الذين يتعالون على النصوص الشرعية لا سيما الروايات الشريفة فيكذبون ما لا يجدون له فهماً أو تفسيراً، فإن هذا النهج قبيح عقلاً، ومحرم شرعاً؛ لاستلزامه تكذيب المعصوم في الكثير من الموارد، والنهج الصحيح الذي يقضي به العقل والعلم هو محاولة فهم النصوص، فإن لم يتوصل إلى فهم لها أوكلت إلى أهلها لا أن ترد وتكذب، وإلى مثله يشير قوله تعالى في معرض الردع عن هذا النهج وذمه ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**﴾[١] كما تضافرت به الروايات.

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٩.

وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ
النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ

يس/ ٣٧

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: (الواو)

فإن الواو في صدر الآية تفيد العطف على ما سبق، وغايتها تأكيد معنى الوحدانية وترسيخ مبدأ شكر المنعم الواحد والعبودية له، وفي الآيات السابقة ضرب مثلاً للإحياء والإماتة بالآيات المكانية كالأرض وما تنبته، والآيات الذاتية وهو خلق الأزواج وما تولده النفوس من الأولاد والذراري، وكله إحياء.

وفي هذه الآية يضرب مثلاً بآية الزمان لتعم الآيات الإلهية جميع الأشياء من المكان والذوات والزمان، وهذا ما وردت به النصوص ودلت على أنه سبحانه في كل شيء ومع كل شيء وكل الأشياء تدل عليه[1]، وربما تكون الواو استئنافية تفيد معنى جديداً والابتداء، والظاهر الأول، وتؤكده قرينة العقل؛ لعدم الفائدة في الابتداء أكثر من الحياة والحدث في الآيات السابقة وقرينة السياق.

---

(١) انظر جامع أحاديث الشيعة: ج٤، ص٦٨١، ح٢٠٧٣.

المفردة الثانية: ﴿آيَةٌ﴾

وهي العلامة العظيمة، وتسمى العلامة آية إذا دلت على الله سبحانه، والجمل القرآنية يقال لها آيات لأنها تدل على الباري عزّ وجل؛ لأن العلامة يقال لها آية إذا دلت على الباري، وكل مخلوق هو آية لله لأنه علامة على الخالق، ويدل عليه، ولذا ما قالت: (وعلامة لهم الليل) بل وآية لهم؛ لأنه يريد أن يهدي إليه في مقابل العلامة، ولذا يعبر عن كل مخلوق أنه آية لأنه علامة على الخالق وجوده دلالة على وجود الخالق، وكماله دلالة على كماله، وبالعكس فإن نقصان الخلق دليل على نقص الخالق، وهذه قاعدة اتخذها القرآن طريقاً لإثبات وجود الخالق وكماله ووحدانيته في آيات عديدة.

منها قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[١] و﴿مَا﴾ نافية.

والرؤية تشمل البصر والبصيرة، فإن البصر شاهد على وحدة الخلق، فربما يتوهم الإنسان وجود بعض الخلل لكنه إذا تأمل وتعمق وجد النظم العجيب والكمال الخارق، ويومياً يطلعنا الطب والعلوم الحديثة بما يؤكد هذه الحقيقة مثل قوانين الوراثة والبصمة الوراثية.

والمراد بالتفاوت هنا التناقض والتضاد في خلق الشيء الواحد مثل فلان، أو خلق نوعه مثل الإنسان، أو صنفه مثل الذكر أو الأنثى.

فإن الإنسان مكون من بدن ونفس وعقل وقلب ومشاعر وأحاسيس، وهذه كلها متكاملة يكمل بعضها بعضاً لا تضاد فيها ولا تناقض. نعم قد

---

(١) سورة الملك: الآية ٣.

تمرض بسبب أفعال الإنسان نفسه لكنها لا تتضارب، وجميع البشر على هذه الشاكلة فلا تفاوت فيها، والآية تقول: ﴿ارْجِعِ الْبَصَرَ﴾[(١)] لأن هذه الآية تتقوّم بالبصر لا بالسمع ولا غيره من الحواس، كما لا تتقوّم بالحدس. نعم العقل يستنتج من البصر النتيجة.

وهذه آية عظيمة تبطل نظرية الطبيعيين المنكرين للخالق ولحكمة الخلق وكماله، فإن النظرية الطبيعية تقوم على ركنين هما: الصدفة في الوجود والطفرة في الموجود، فالوجود حدث صدفة والموجود اكتمل طفرة، وكلاهما يتنافيان مع الكمال والتكامل؛ لأن الصدفة تعني حدوث المعلول دون علة، والطفرة تعني ارتقاء المعلول إلى مراتب كمالية دون مقدمات إعدادية ولا حكمة، وأدل دليل على بطلانهما الوجدان، فإن الصدفة والطفرة تحصلان ولا تتكرران، ولو كانتا موجودتين لحصلتا دائماً، فلماذا لم يحدث - مثلاً -كتاب علمي مصنَّف ومبوب في غاية الدقة والإتقان دون سبب؟ ولماذا لم يحدث للكلمات البسيطة ارتقاء وطفرة حتى تتبدل إلى كتاب كامل في معانيه وأسلوبه؟ أو يقال هناك كلمة حدثت صدفة ثم تطورت واكتملت بالطفرة فصارت كتاباً عظيماً دقيقاً ومتقناً؟ أو حديدة بسيطة صدفة حدثت ثم ارتقت فصارت طائرة أو سيارة؟ هذا هو مؤدى قول الطبيعيين وإن تنوعت التفاصيل.

---

(١) سورة الملك: الآية ٤.

ولماذا لم يتكرر إيجاد المخلوقات الجديدة بل المخلوقات التي انقرضت وقد أذعن العلم لوجود مخلوقات بشرية مسخت وانقرضت ومخلوقات حيوانية انقرضت أيضاً لماذا لم تحدث مرة أخرى صدفة؟

وإنما انقرضت بانقراض آبائها وأجدادها.

هذه الحوادث والوقائع الكونية دليل تام وصريح على وجود الخالق وكماله، ودليل آخر على فقر المخلوق وحاجته، وأنه من نفسه غير قادر على إيجاد نفسه ولا على إكمالها ولا إبقائها.

فالآية تبطل نظرية الطبيعيين في آية الليل والنهار لأنّهما حادثان فلهما محدث، وقد وصفهما بالآية لأنهما يرشدان إلى الله سبحانه.

المفردة الثالثة: ﴿لَّهُمُ﴾

اللام للغاية أي لأجلهم، وربما تكون للملك، ويراد به الاختصاص بدعوى أن البشر هم الذين يختصون بالليل والنهار وينتفعون بهما لكنه ضعيف لسببين:

الأول: أن القرينة الداخلية والحالية شاهدة على الغائية، وهي مناسبة الحكم والموضوع.

والثاني: لإمتناع حملها على الملكية؛ لأن البشر لا يملك ولا يختص بالليل والنهار، بل كل الموجودات لها ليل ونهار، وحياتها تتقوّم بهما. نعم ربما نوجه هذا الاحتمال إذا قلنا بأن المراد أن البشر هم الذين يختصون بإدراك آية الليل والنهار وفهمهما فهماً عقلائياً يوصلهم إلى التوحيد، وإنما

سائر الموجودات، فهي لا تخلو من أمرين: إما أن لا تدرك هذه الحقيقة وإنما هي مسخرة لنظامها كما يذهب إليه القائلون بأن الموجودات غير البشرية لا تدرك ولا تتعقل.

وإما أن تدرك هذه الحقيقة وهي موحدة بالفطرة، فلا تحتاج إلى دليل يوصلها إلى التوحيد، وهذا الاحتمال أوثق بالأصول والقواعد، ويثبته البرهان، وأما الأحتمال الأول فباطل.

أولاً: لأنّ كل مخلوق في الوجود يدرك ويعقل وإنّما الاختلاف في مستوى الإدراك والفهم والتعقل.

وثانياً: لأنّ الإنسان ليس وحده الذي يتعقل، بل الجن والملك وأصناف من الحيوانات بل والنباتات والجمادات، ولذا قال سبحانه: ﴿**وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾[1] والتسبيح لا يكون دون إدراك المسبّح، والتسبيح المناسب اللائق به، وإدراك وجوب التسبيح على المسبّح، وذلك كله يتوقف على فهم الحق والواجب والعلاقة بين الخالق والمخلوق.

والنكتة اللطيفة أن الآية قالت: ﴿**يُسَبِّحُ**﴾ ولم تقل (يحمد) أو (يهلل) أو (يكبر) لأن التسبيح يتضمن كل هذه الثلاثة بخلاف غيره، فإن التحميد يعني ذكر الخالق والثناء عليه وهو لا يلازم التنزيه، وكذلك التهليل يفيد

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

الوحدانية ولكن لا يفيد نزاهة الواحد، وكذا التكبير بخلاف التسبيح فإنه يدل على تنزيهه من كل نقص، فهو يستحق الحمد الكامل والثناء التام للواحد الفرد الذي لا ثاني له، المنزه عن التعدد والتركيب والاتحاد، وهو الأكبر من كل شيء في مقامه وصفته.

والخلاصة: أن قوله سبحانه: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ**﴾[١] يفتح أبصار الناس وبصائرهم ويوصلهم إلى الإيمان بالحق تعالى وتوحيده، كما يوصلهم إلى وجوب شكره وعبادته لو تأملوا الأحداث والوقائع المحيطة بهم ولم يعيشوا فيها أو معها عيشة الغافلين أو العاصين الذين لا يبصرون.

المفردة الرابعة: ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾

النهار انفتاح الظلمة عن الضياء، وهو عرفاً من طلوع الشمس إلى غروبها على أصح الأقوال[٢]. سمّي بذلك لتفتح الأشياء فيها وإرسالها، ومنها النهر لأنه ينهر الأرض يشقها ويجري فيه الماء، وضده الليل وهو عرفاً من مغرب الشمس إلى طلوعها، والليل الأليل في الدعاء أي شديد الظلمة[٣]، وعلة تسمية النهار ظاهرة؛ إذ هو وقت الانتشار والإرسال، وأما علة تسمية الليل فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «لأنه يلايل الرجال من النساء

---

(١) سورة يس: الآية ٣٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢٦ (نهر)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٩٦٤، (نهر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٥٠٧، (نهر).

(٣) المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٥٠، (ليل).

جعله الله ألفة ولباساً﴾ في جواب اليهودي[١]، والمعنى الدخول عليهن كما يستفاد من بعض كتب اللغة[٢].

وقد جعل الليل آية لأنها خارجة عن إرادة البشر؛ لأنها تقوم بعوامل وأسباب طبيعية لا قدرة للإنسان على التصرف فيها والملفت أنه شبَّه تعاقب الليل والنهار بمثل بدن الحيوان وجلده، فإن الذبيحة يسلخ منها جلدها[٣]؛ لأنه انتزاع شيء من شيء بإحكام وإتقان كما هو الحال في سلخ جلد الحيوان، وذلك يدل على عدة معان:

منها: أن الليل والنهار يتلابسان مع بعضهما كما يلبس الإنسان ثوباً فوق ثوب ثم يخلع أحدهما ليظهر الآخر، بل هما متلاصقان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وتعاقبهما يكون بنحو السلخ لا الخلع كما يسلخ الجلد من البدن.

فهما أمران وجوديان لا عدميان ولا اعتباريان، ومعلوم أن السلخ عمل شاق لا يحصل من نفسه، بل لابد من فاعل، والفاعل الحقيقي هو الخالق

---

(١) علل الشرائع: ج٢، ص٤٧٠، ح٣٣؛ الحدائق: ج٤، ص٥٩٥؛ مستدرك سفينة البحار: ج٩، ص٢٩٨، (ليل).

(٢) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٥٠ ومنه (ألال القوم) و(أليلوا) أي دخلوا في الليل أو صاروا فيه.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤١٩، (سلخ)، معجم مقاييس اللغة: ص٤٦٧، (سلخ)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٤٣٣، (سلخ).

سبحانه، ولذا قال: ﴿نَسْلَخُ﴾[١] ويشهد له قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[٢] أي يجمع الليل على النهار حتى يغطيه وبالعكس[٣]، فالفاعل هو سبحانه، والشمس واسطة.

ويستفاد من المنطوق أن الآية التي ضربها الباري عز وجل ليست في ذات الليل ولا في ذات النهار إما لشدة ظهورهما فيكون الاستدلال من توضيح الواضح، أو لشدة الغموض بها لا يلتفت إليها إلّا الأوحدي، فالعالمون يلتفتون إلى الظهور والجاهلون لا يلتفتون؛ لذا لا يكون الدليل عاماً؛ لأنه لا يصل إلى المطلوب. أما الأول فلوضوحه، وأما الثاني فلغموضه.

وإنما الانسلاخ لأن الليل يكون آية في حال إزالة النهار عنه حتى يسدل ستاره عليهم، والسر في ذلك يعود إلى وجهين:

أحدهما: أن الليل ظلمة والنهار نور، ولا يعقل أن يغلب الظلام النور بحسب ميزان العقل؛ لأن النور كاشف للحقائق ووجود، والظلمة عدم، والوجود يغلب العدم عقلاً وليس العكس، فإذا لوحظ العكس وأن النور انغلب بالظلام والوجود انغلب بالعدم يعرف أن هناك من قهره على ذلك

---

(١) سورة يس: الآية ٣٧.

(٢) سورة الزمر: الآية ٥.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٢٩، (كور)، معجم مقاييس اللغة: ص٨٨٠، (كور).

وأجبره على هذا النظام، وليست القضية تعود إلى ذات الليل ولا ذات النهار؛ لأن الغلبة الذاتية بميزان العقل ممتنعة.

هذا وقد علل بعض المفسرين ذلك بأنه من باب معرفة الشيء بضده، فإن الشيء يتبين منافعه ومحاسنه بضده، ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية إلّا وذكر آية النهار معه[١]، وفيه نظر؛ لأن البحث ليس في كون الليل آية، بل كونه آية على قدرة الله على الإحياء والإماتة.

ثانيهما: أن الظلمة هي الحالة السابقة في الأشياء؛ إذ كان سبحانه ولم يكن معه شيء فأنيرت بالوجود، والوجود بالقياس إلى العدم كالنور للظلام ظاهر بنفسه ومظهر لغيره، ولا يعقل أن تتحول الظلمة إلى نور بنفسها ولا العكس؛ لاستلزامه عدة حالات هي الانقلاب والدور والخلف.

فإن الظلمة يعني ليست نوراً، فإذا استنارت بنفسها لزم أن تكون نيرة في نفسها وهو باطل للوجوه المذكورة، فلا بد وأن تكون قوة قاهرة بدلت الظلمة إلى نور، وهذا التبديل يقع على نحوين:

الأول: التبديل البسيط، وهو ما يصطلح عليه أهل الحكمة بالجعل البسيط، بأن يخلق الأشياء نيِّرة في نفسها مثل أرواح النبي والأئمة عليهم السلام، واشتق وجودها من نوره تبارك وتعالى، فذواتهم نورية بالإبداع والتكوين الأولي ولا ظلمة فيها.

---

(١) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص٦٥، المسألة الثالثة.

والثاني: التبديل المركب، بأن يخلق الأشياء ثم يفيض عليها النور، وهذا ما يقال لسائر المخلوقات، ولذا قسموا النور إلى لدني مجعول بالجعل الأولي واكتسابي مجعول بالجعل المركب كما يعبر أهل الحكمة، وتقابله الظلمة اللدنية والمكتسبة، والأولى مثل الشيطان والجهل والظلم. فإنّها ظلمانية الذات والثانية مثل المخلوقات غير العالية فإنها تكتسب النور من مصدر النور، وهو في الماديات الكواكب النيرة، وفي المعنويات أنوار محمد وآل محمد، ولذا هم أصل الخير والهداية والصلاح، وبهذا يتضح أن إنارة الأشياء لها مراتب:

الأولى: الإنارة الوجودية، بأن يخرجها الباري عز وجل من ظرف العدم إلى الوجود، وهذه عامة تشمل جميع الموجودات.

الثانية: الإنارة الحقيقية، بأن يجعلها الباري عز وجل نيرة في حقيقتها، بان يخلقها من نور مثل أنوار النبي والعترة عليهم السلام ومن بعدهم الأنبياء والاولياء على اختلاف مراتب النور.

الثالثة: الإنارة الاكتسابية، بأن يفيض الباري عز وجل عليها النور. مثل الأرض تنير بالشمس والكواكب، والشر يضيء بالخير، والجهل يضيء بالعلم، والضلالة تضيء بالهدى وهكذا.

والليل والنهار منها، فإن الليل مظلم والناس فيه يظلمون بانسلاخ النهار منه، وبهذا يتضح وجه الجمع بين الروايات والآيات التي نصت على أن الخلق نوعان نوراني وظلماني، والأخرى التي وصفت الفضائل بالنورانية والرذائل بالظلمانية.

والثالثة التي وصفت ذوات الأشياء بالنور والخلق النوري، فإن بعضها ناظر إلى الإنارة الوجودية، وبعضها إلى الحقيقية، وبعضها إلى الاكتسابية، وهذه مسألة هامة تنحل بها معضلة علمية في فهم الروايات التي قد يتصور تناقضها الدلالي.

هذا ولا يخفى أن بعض المفسرين فسّروا السلخ بالإخراج، وساوقوا بين حرف الجر (من) و(عن) وقالوا المراد النهار يخرج عن الليل، وضعفه ظاهر؛ لأن الإخراج أعم من السلخ[1]، والأصل حمل المعنى على ظهوره ولا يحمل على مخالفه إلّا لوجود سبب، ولا يوجد ما يدعو إلى ذلك[2].

ومنها: أن الأصل الليل والنهار حادث ومتعقب له وكالجلد له، فإذا انسلخ ظهر الليل، وبالجلد يظهر الحيوان ويبرز ويدفع عن نفسه الضر، فإذا انسلخ صفا وخلص كما يقال نسلخ من الذبيحة جلدها[3]، وفي ذلك إشارة لبية إلى حقيقة وهي أن الحقائق والمعارف والأسرار والراحة كلها في الليل لا في النهار، كما أن منافع الحيوان في بدنه لا في جلده.

وهذا ما يؤكده الواقع، فإن الليل مفتاح العلوم والمعارف، ومحراب العبادات والمناجاة، كما أنه مهد الراحة والسكينة، بخلاف النهار، ولذا أكدت النصوص الشرعية على الليل وعبادته، وأن الله سبحانه نفحات في

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٨٢ (١١٢١).

(٢) انظر تفسير الميزان: ج١٧، ص٨٩؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٣١.

(٣) انظر نفسير الرازي: ج٩، ص٦٥؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٣٦.

جوف الليل يفيض بها على العباد بخيره وبركاته، وسره أن النهار مجعول للإنسان واختياره، فيفعل فيه بإرادته ما يشاء، وأما الليل فهو لله سبحانه، فمن أدخل نفسه في رحمة الله واستثمر ليله نال أعلى الدرجات.

وفي المقابل فإن إبليس يحرك جنوده في الليل لإيقاع البشر في المعاصي والذنوب وإبعادهم عن ساحة ربهم تبارك وتعالى، ولذا نجد أن الليل محراب لجنود الرحمن، وهو نادي المترفين الفاسدين من جنود الشيطان.

أما النهار فهو نشور وعمل وكد لأجل المعيشة، وهذا سر من الأسرار يلفتنا إليه القرآن الكريم، فإذا أردنا التطور والارتقاء على أي مستوى أن نستثمر الليل في الفكر والتخطيط وكسب العلوم والمعارف والهدايات الربانية، وفي النهار تطبيقها، وهذا ما ورد مضمونه عن الصادق عليه السلام حينما رأى أحد أصحابه ينظر إليه ويتحسر، فقال له: «يا فلان! مالي أراك تتحسر» قال يابن رسول الله أتحسر على دولتكم متى تكون حتى نرتاح من ظلم بني العباس وسلاطين الجور ونحظى بالسعادة، فقال له الإمام: «أتظن يا فلان أن دولتنا إذا دالت ستكونون في نعيم وأكل واستجمام؟ كلا. لو دالت دولتنا ازداد العمل والجهاد، بل هي عبادة بالليل وسياسة في النهار» أي الليل يستثمر للتفكير والتعرض لنفحات الله وترويض الروح والعقل للطاعة، ثم تنفيذ ذلك في النهار؛ لذا قال سبحانه: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً**﴾[١] وعن النبي

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

المصطفى صلى الله عليه وآله: ﴿ما اتخذ الله ابراهيم خليلاً إلّا لإطعامه الطعام وصلاته بالليل والناس نيام﴾[١]، وهذه صفات النبي والأئمة عليهم السلام كما ورد في متضافر الأخبار[٢].

فمقام الخلة والقرب والعبودية يناله العبد في الليل، وطريقه فاطمة عليها السلام، ولذا ورد في الأخبار تأويل الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن بفاطمة الزهراء عليها السلام[٣]، وفي قوله تعالى: ﴿لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٤] الليلة فاطمة، والقدر الله تعالى[٥]، والمعنى فاطمة الله سبحانه خلقها صديقة حوراء إنسية، وجعلها فاطمة للخلق من النار.

وفي هذا التأويل يتضح سر من الأسرار العظيمة يتضمن إشارات:

الأولى: أن نفحات الليل ومفاتيح كنوزه باسم فاطمة عليها السلام، فمن أراد الارتقاء ونيل الفيوضات الإلهية في الليل عليه أن يستغيث بفاطمة عليها السلام؛ لأنها باب الله ومدار قضائه وقدره، وهذا ما يؤكده تفسير النبي لمعنى الليل، أي ما فيه الخلوة والاختلاء إلى الغير.

---

(١) علل الشرائع: ج١، ص٣٥، ح٤.

(٢) انظر المحاسن: ج٢، ص١٤٢، ح١٣٦٨.

(٣) البحار: ج٢٤، ص٣٢٠، ح٢٨؛ ج٢٥، ص٩٩.

(٤) سورة القدر: الآية ١.

(٥) تفسير الفرات: ص٥٨١؛ البحار: ج٤٣، ص٦٥، ح٥٨.

والثانية: أن معرفة فاطمة عليها السلام والتمسك بها هو خلاصة ما ينزل بليلة القدر، وهي خلاصة القرآن الكريم، وهذا أحد معاني الكوثر لا يمكن معرفة تفاصيله ولا خفاياه وأسراره، وغاية ما يتوصل إليه هو أصل المعرفة، وفي غاية الإجمال إلّا أن في عين الحال يرشدنا إلى الطريق، ويهدينا إليه بلسان إراءة الطريق، وأما الإيصال إلى المطلوب الذي هو المعنى الأعمق للهداية فمشروط بالجهد والسعي والتمسك والتوسل.

والثالثة: أن الليل فيه خفاء واختفاء لا يعرفه إلّا من له نور يضيء طريقه، كذلك فاطمة عليها السلام هي سر الله سبحانه لا يعرفها إلّا أهل القلوب والبصائر النيرة ولذا ورد في الرواية الشريفة: ﴿هي الصدّيقة الكبرى، وعلى معرفتها دارت القرون الأولى﴾[(١)] بناء على أن القرون الأولى هي قرون الأنبياء والأولياء السابقين.

فإن المستفاد من الرواية أن نبوتهم وولايتهم مشروطة بمعرفة فاطمة عليها السلام؛ إذ لولا معرفتها لم يدر قرن ولا مقترن، وهذا أحد معاني قول النبي المصطفى: ﴿فاطمة أم أبيها﴾[(٢)] أي المرجع والمصدر للخير والفيض، فإنه صلوات الله عليه رحمة الله الواسعة، وهي أم هذه الرحمة، أي مصدرها ومنبعها، وهذا يتوافق مع المعنى العظيم.

---

(١) البحار: ج٤٣، ص١٠٥، ح١٩؛ مستدرك سفينة البحار: ج٨، ص٢٤٨؛ مجمع النورين: ص٣٤.

(٢) البحار: ج٤٣، ص١٩، ح١٩.

ومما يؤيد هذه الحقائق ما ورد في تأويل الليالي العشر في سورة الفجر بالأئمة عليهم السلام من الحسن عليه السلام إلى الحسن عليه السلام، كما أوّلت ﴿**وَاللَّيْلِ إذا يَسْرِ**﴾ بدولة الباطل فإنها تسري إلى قيام القائم الذي يظهر ويزيلها وينشر القسط والعدل، ولذا أوّل بالفجر، وأما علي وفاطمة عليهما السلام فأوّلا بالشفع، ووجه تسمية دول الباطل بالليل يعود إلى خفاء الحق فيها[1] وإخفاء الدسائس والمكر المعادية لله ورسوله والأئمة عليهم السلام.

وأما وصف الأئمة عليهم السلام به فيعود إلى الإشارات الثلاث المتقدمة، ووجه الجمع بينها وبين ما تقدم في فاطمة عليها السلام هو اختلاف المراتب، فإن الرتبة الأعلى لفاطمة عليها السلام، ويليها أولادها الأطهار عليهم السلام، ولذا قلنا إن الأثر الأبلغ في الكمال والاكتمال الليلي يكون بالتوسل بها والتقرّب إليها صلوات الله عليها.

ومنها: أن ظهور الليل يحصل تدريجياً لا دفعة؛ لأن الانسلاخ تدريجي، وبما أنه بيد الله سبحانه إذاً يمكن أن يطيل الباري عز وجل انسلاخ الليل والنهار، أو يعجل فيهما بحسب ما تقتضيه الحكمة، وهذا يفسر ما ورد في بعض الأخبار من أن الباري عز وجل قد يطيل من الأيام والليالي وقد يقصر منها؛ لأن الطول والقصر يرجع إلى السلخ والإنسلاخ وهو بيد الله

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٤٢٤ ـ ٤٢٥؛ البحار: ج٢٤، ص٧٨، ح١٩؛ معجم أحاديث الشيعة: ج٥، ص٤٩٢، ح١٩٢٦.

سبحانه، وفي بعض الأخبار لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لأطال الله سبحانه ذلك اليوم حتى يظهر مهدينا أهل البيت عليه السلام(١).

ولكن حينما يأتي الليل يحل تدريجياً، ثم فجأة يخيم على الأجواء، وحيث إن الناس يغفلون عن ذلك ولا يلتفتون ويجدون أنفسهم في ظلام قال: ﴿**فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾(٢) فإن إذا للمفاجأة.

ومنها: أن الليل والنهار حقيقتان وجوديتان لا وجود وعدم، والشمس علامة عليهما وليست سبباً، ويؤكده وصفهما بالخلق والجعل؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**﴾(٣) وقال سبحانه: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾(٤) والجعل والخلق يكونان في الأمور التكوينية.

وقد ورد في جملة من الروايات والأدعية ما يدل على أنهما مخلوقان وإن لهما وزناً.

ونستخلص من منطوق الآية المباركة أن انسلاخ الليل والنهار آية تكوينية توجب تعاقب الليل والنهار. يهديان الناس إلى الله سبحانه، ويدلان على وجود الخالق ووحدانيته وربوبيته وعبوديته من جهات:

---

(١) البحار: ج٥١، ص٧١، ح١٢؛ مكيال المكارم: ج١، ص٢٤٥.

(٢) سورة يس: الآية ٣٧.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١٢.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٣٣.

الأولى: أنهما من الحوادث، وكل حادث يفتقر إلى محدث.

الثانية: أنهما منتظمان، وكل نظم كاشف عن حكمة المنظم.

الثالثة: أنهما من النعم العظيمة التي تستحق الشكر، وبهما تقوم حياة الإنسان مادياً ومعنوياً.

الرابعة: أن الانسلاخ يحصل بلا فتور ولا تفاوت ولا اضطراب ومنه يتوصل إلى أن الفاعل قادر، ولا شيء يتخلف عن إرادته، وفي ذلك دلالة على أن الليل والنهار حقيقتان، والظلمة حقيقة وجودية لا عدمية، وهذا سرّ وصفها بالآية، فما يقوله بعض الحكماء من اعتبار الزمان وعدمية الظلمة غير سديد.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

وهي عديدة:

اللطيفة الأولى: حقيقة الموت والحياة

إن الآية المباركة تشبِّه الليل والنهار باللباس، فهما كمن يلبس لباساً أبيض ثم يخلعه ليظهر واقع البدن ولونه الحقيقي(١)، وفي ذلك إشارة كنائية عن أمرين:

أحدهما: عن الموت والحياة، فإن النهار بمنزلة الحياة والليل بمنزلة الموت، وهو ليس إلّا خلع لباس الحياة عنه وليس إفناءه، فالموت ليس فناء ولا انعداماً وإنما تبدل نشأة بنشأة أخرى، ونورانية الحياة بالروح، والجسد ينحل ويعود إلى أصله الأولي وهو التراب، والتراب ظلماني، وإنما يكتسب النور بالروح وبالفضائل كما يكتسب الظلمة بالرذائل، وقد ضرب الباري عزّ وجل مثلاً في الآيات السابقة عن كيفية الإحياء، وأشار إلى إحياء الأرض بعد موتها وإثمار الأشجار.

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٤.

وفي هذه الآية المباركة ضرب مثلاً عن العكس أي الإماتة بعد الإحياء، فالنهار حياة الوجود فيه النور والحركة والعمل والنشاط، وأما الليل فهو موطن السكون والسبات والنوم وهو كالموت، والناس في النهار أحياء وتدب فيهم آثارها، وفي الليل يسكنون، والموت ليس إفناء لهم بل تبديلاً من حال إلى حال، وليس إلّا انسلاخ ثوب الحياة ورجوعاً إلى الأصل، وهذا يتعاضد مع ما بيناه من أن الأصل في الأشياء العدم والظلمانية ثم ينيرها الباري بأنوار الوجود والحقيقة ثم الاكتساب.

والنكتة اللطيفة أن في الليل يموت الجسد فتحيا الروح ويظهر نورها بخلاف النهار، وكذلك الإنسان في البرزخ يموت الجسد ويفنى وتشرق الروح وتستنير، ولهذا إشارة خفية إلى إحياء الميت وإماتة الحي.

وثانيهما: أن النهار زينة الناس وظرف بروزهم وتجملهم وتحليهم؛ لأن به يتعاشرون ويتعارفون، بخلاف الليل فهو موطن السر والخفاء، فإذا أصلح الناس أنفسهم في الليل حينما اختلوا بها ظهروا في النهار بالمظهر اللائق، ولو أفسدوها ظهروا في النهار بما يناسب واقعهم السيء، وهذا ما يظهر جلياً اليوم حيث أخذ الناس السهر بالليل، والكثير من المعاصي والذنوب والرذائل ترتكب في الليل، ومن كان هذا ليله لا شك يكون في نهاره سيئاً بلا بركة ولا خير، والمشاكل والنزاعات ضاجة به، ولذا أكدت الأخبار الشريفة على التوجه في الليل إلى محاسبة النفس وتربيتها، وفي الليل يختلي الإنسان بنفسه وبربه، وكيفما يكون في الليل سيكون في النهار، ولذا ورد في الأخبار: «عليكم بصلاة الليل فإنها سنة

نبيكم، ودأب الصالحين قبلكم، ومطردة الداء عن أجسادكم﴾[(١)] وقال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿صلاة الليل تبيض الوجه، وصلاة الليل تطيب الريح، وصلاة الليل تجلب الرزق﴾[(٢)].

ونلاحظ عظمة البيان القرآني في هذه الآية المباركة، فإنه في مثل واحد لليل والنهار يشير إلى ثلاثة من أهم الحقائق التي تقوّم شخصية الإنسان في فكره وعمله:

الأولى: حثه على الاعتبار والنظر في آيات الوجود للوصول إلى معرفة الخالق وتوحيده وعبادته .

الثانية: تذكيره بالمعاد والموت والحياة ليكون على حضور قلبي وتواضع دائم ومستمر.

الثالثة: حثه على إصلاح نفسه بالليل حينما يختلي بنفسه وينظر في أفكاره وأعماله وأخلاقة ليكون إنساناً كاملاً في النهار.

اللطيفة الثانية: قوله تعالى: ﴿لهم﴾[(٣)] يفيد أن الباري عز وجل جعل الليل والنهار آية للبشر، واذا كان طرفا الوجود الزماني وهما الليل والنهار لهم كان ما بينهما أيضاً لهم، وهذا يدل على عدة حقائق:

---

(١) تفسير الصافي: ج٣، ص٢١٠؛ علل الشرائع: ج٢، ص٣٦٢، ح١؛ التهذيب: ج٢، ص١٢٠، ح٤٥٣.

(٢) علل الشرائع: ج٢، ص٣٦٣، ح١؛ التهذيب: ج٢، ص١٢٠، ح٤٥٤.

(٣) سورة يس: الآية ٣٧.

الأولى: أن كل شيء مخلوق لأجل الإنسان، وهو محور الوجود الإمكاني.

الثانية: أنه المخلوق الأفضل، ولو لا ذلك لم يتخذ غاية لخلق الأشياء.

الثالثة: أن الغاية من خلق الأشياء له هي إيصاله إلى كماله الروحي والجسدي.

الرابعة: أنه الأحق بالتوحيد والعبودية للخالق؛ لأنه غاية النعم، فحق الخالق عليه أعظم من جميع المخلوقات، فوجوب الشكر عليه أوجب؛ إذ كلما عظمت النعمة عظم وجوب شكرها.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿**نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**﴾[1] نسب الفعل إلى الخالق بصيغة المضارع فيدل على أن السلخ قضية مستمرة، أي في كل يوم تحدث العملية، وفعل الله سبحانه يكون بالأسباب والوسائط، ومن الوسائط ملائكه التدبير الذين قال عنهم القران: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً**﴾[2] وهذا يتوافق مع متضافر الروايات التي دلت على أن حوادث الوجود تدبرها الملائكة، فلليل ملائكة يأتون به، والنهار كذلك، والريح و المطر وكل الحوادث لها ملائكة تدبر أمرها وإن كانت بحسب ظاهر الحال تحدث بالأسباب الطبيعية، إلّا أن السبب الطبيعي هو الآخر واسطة من الوسائط الإلهية، فما من صغيرة أو كبيرة تحدث في الوجود إلّا بأمر الله وإرادته، بل

(١) سورة يس: الآية ٣٧.

(٢) سورة النازعات: الآية ٥.

ذكر الشيخ البهائيقدس سره عن بعض المفسرين أن المدبرات هي الأفلاك التي تدبر بعض مصالح عالم الكون والفساد(١).

اللطيفة الرابعة: النور والظلمة بيد الناس

إنّ مظلمون في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾(٢) وَرَدَت بصيغة اسم الفاعل لا اسماً للمفعول بفتح الظاد أو المصدر أي في ظلام، مع أن القاعدة تقتضي أحدهما؛ لأنه نسب السلخ إلى فعل الله سبحانه، والفعل يحتاج إلى مفعول، أو مصدر بمعنى اسم المفعول لكنه ورد بصيغة اسم الفاعل، ولعل الغاية من ذلك هي الإشارة إلى أن ظلام الناس يعود إلى إرادتهم وأنفسهم أيضاً، أي هم يجعلون حياتهم ظلاماً أو نوراً.

وتوضيح ذلك يتم ببيان أمرين:

الأمر الأول: تضافر في الأخبار أن الزمان فيه بركة وفيه انعدام للبركة؛ لذا يطول ويقصر على أهله، فإذا عدل الناس وتراحموا وتناصروا في المعاملة وكان حكمهم العدل وميزانهم الإنصاف ومعاشرتهم بالرحمة فإن الباري عز وجل يطيل أيامهم وأعمارهم، ولو تظالموا وتدابروا وتعاشروا بالعداوة والنفرة تقصر أيامهم وأعمارهم.

---

(١) الحديقة الهلالية: ص٨٦؛ البحار: ج٥٥، ص١٨٣؛ مستدرك سفينة البحار: ج٨، ص٣٢٠.

(٢) سورة يس: الآية ٣٧.

ففي الكافي بسنده عن الصادق عليه السلام قال: ﴿إنّ الله عزّ وجل جعل لمن جعل له سلطاناً أجلاً ومدة من ليال وأيام وسنين وشهور، فإن عدلوا في الناس أمر الله عز وجل صاحب الفلك أن يبطئ بإدارته فطالت أيامهم ولياليهم وسنينهم وشهورهم، وإن جاروا في الناس ولم يعدلوا أمر الله تبارك وتعإلى صاحب الفلك فأسرع بإدارته فقصرت لياليهم وأيامهم وسنينهم وشهورهم، وقد وفى لهم عزّ وجل بعدد الليالي والشهور﴾(١).

المعنى الباطن لليل والنهار

الأمر الثاني: أن الليل والنهار لهما معنيان ظاهر وباطن، والأول معروف هو الظرف الزمني المميز بالنور والظلام، وأما الثاني فهو العلم والجهل والفضيلة والرذيلة ونحوها من معان باطنية للنور والظلمة، ووجه التشابه أن الليل يلازم الظلمة، وهي تحجب البصر، وتمنع الرؤية، وتحول دون معرفة الحق، كذلك الجهل والرذيلة، بخلاف النهار؛ لأنه يلازم النور، وهو ظاهر بنفسه ومظهر لغيره.

وفي الأخبار الشريفة مايؤكد هذه الحقيقة؛ إذ ورد في بعضها وصف النبي الخاتم صلى الله عليه وآله بالنهار، ولما قبضه الله سبحانه لم يبصر الناس فضل أهل بيته إما بسبب حسدهم أو انتقامهم فأنكروهم إنكار عمل، والسر في ذلك هو وقوعهم في غشية الظلام والليل، فما كادوا يعقلون أو يبصرون .

---

(١) الكافي: ج٨، ص٢٧١، ح٤٠٠؛ البحار : ج٥٥، ص٢٧١، ح٥٧.

ففي الكافي بسنده عن جابر عن أبي جعفرعليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾[١] قال: «يعني قبض محمدصلى الله عليه وآله، وظهرت الظلمة فلم يبصروا فضل أهل بيته عليهم السلام»[٢] والقبض الأخذ[٣]، ويطلق على الموت؛ لأنّ الباري عزّ وجل يأخذ روح عبده ويستردها إليه و هو من باب المصداق، أو إطلاق لفظ العام على الخاص، والمعنى اللغوي للقبض في الرواية يشمل معنيين:

الأول: موت الشخص.

الثاني: إماتة الشخصية بواسطة التشويه وانتهاك الحرمة، فالنهار وجود النبيصلى الله عليه وآله بين الناس بشخصه المبارك، أو بشخصيته وتعاليمه، فكلاهما نور، فإذا انسلخ هذا النور بالقبض صاروا في ظلام، وسببه الناس؛ لأنهم أماتوه شخصاً بالدس والاغتيال، وأماتوا نهجه وسيرته، فمنعوا من أن يكتب لهم حديثاً لن يضلوا بعده أبداً، ونقضوا بيعتهم لوصيِّهِ وخليفته من بعده، ومنعوا تدوين سنته، وعاقبوا عليها، ثم أسسوا نهجاً يخالفه في الفقه وإدارة الحكم والدولة والأخلاق العامة، وجرت طريقة أكثر المسلمين على هذا الانحراف.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٧.

(٢) الكافي: ج٨، ص٣٨٠، ح٥٧٤؛ البحار: ج٢٣، ص٣٢١، ح٣٨.

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٢٦، (قبض).

والشخص المسلم الذي يتبع هذا النهج في أفكاره وأخلاقه وعمله يكون قد شارك في إماتة شخصية النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ فيعيش في ليل بهيم.

وما يقال في النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ يقال في تعامل الناس مع الأئمة عَلَيْهِمُالسَّلَامُ، ومن بعدهم العلماء الربانيون، فإن العلماء هم ورثة النبي والأئمة عَلَيْهِمُالسَّلَامُ، ووجودهم بين الناس نور ونهار يستضيئون به ويهتدون سبيلاً فأذا قبضوهم باشخاصهم وشخصياتهم بأن اعتزلوهم ولم يتعلموا منهم واسقطوا مكانتهم وعطلوا دورهم صاروا في ظلام.

ففي رواية الكافي عن أبي البختري عن أبي عبد الله عَلَيْهِالسَّلَامُ قال: ﴿إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وذاك أنّ الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً﴾[(١)] وفي حديث آخر: ﴿أن الأنبياء ... ورثوا العلم﴾[(٢)] وقد ورد بطرق العامة أيضاً[(٣)]، ووجه التورث هو أن العلماء الربانيين هم الأبناء المعنويون للأنبياء، والنبوّة المعنوية أعظم من النسبية.

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٢، ح٢؛ الوسائل: ج٧، الباب ٨ من أبواب صفات القاضي، ص٧٨، ح٣٣٢٤٧.

(٢) بصائر الدرجات: ص٢٣، ح٢؛ الكافي: ج١، ص٣٤، ح١؛ الأمالي (للصدوق): ص١١٦، ح٩٩.

(٣) سنن الدارمي: ج١، ص٩٨؛ سنن ابن ماجة: ج١، ص٨١، ح٢٢٣؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٤، (ورث).

أقسام الوراثة والوراثة المعنوية

وتوضيح ذلك: أن الوراثة لها ثلاثة معان:

الأول: الوراثة النسبية كوراثة الأبناء لآبائهم.

الثاني: الوراثة العلمية كالتلميذ الذي يرث عن استاذه علومه فتتلخص آراء الأستاذ ومبانيه عنده.

الثالث: الوراثة المقامية، كالشخص الذي يتولى مقام الرئاسة بعد سلفه، ولا يشترط في الوراثة العلمية والمقامية وجود النسب، بل يكفي التطابق والتمثيل في العلم والأسلوب والمنهج، وفيه قال رسول الله ﷺ لأميرالمؤمنين: «أنت أخي ووصي ووارثي»[1] كما لا يشترط في الأولى وجود التطابق العلمي والمقامي، فر بما يخرج الأبناء عن طريقة آبائهم مثل ابن نوح الذي أشار إليه القرآن، والوراثة في اللغة معناها أعم من ذلك؛ لذا وصف القرآن الباري بالوارث والأنبياء بأنهم ورثوا الكتاب، فالمعنى المذكور من مصاديقه[2]، والنكتة اللطيفة في الرواية أنها نفت توريث الأنبياء للدراهم والدنانير بلم الجازمة لا (لا النافية) لوجود فرق بينهما:

فان لم تفيد نفي فعلية التوريث ولا تنفي أصله، فلو قالت: (لا نورث ديناراً) لأفادت النفي المطلق حتى وإن ترك الأنبياء مالاً بالفعل فإنه لا

---

(١) غاية المرام: ج٥، ص١٠٢.

(٢) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٦٤ (ورث).

يصل لأبنائهم، لكنها قالت: (لم نورث) والنفي بلم يفيد السلب بانتفاء الموضوع، أي أنهم لم يتركوا شيئاً حتى يرثه الأبناء؛ لأنهم زاهدون وما عندهم ينفقونه في حياتهم فلا يبقى لديهم شيء يرثه الأبناء، ولكن لو تركوه ورثوه، ولذا قال سبحانه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾[1] واحتجّت فاطمة صلوات الله عليها على من اغتصب إرثها.

ويؤكده أن العرف يستظهر من (لا) النافية الإنشاء لنفي الأصل، ومن (لم) الإخبار عن عدم الوجود، والفرق كبير بين قول القائل: «العالم لا يورث أبناءه» وقوله: «العالم لم يورث أبناءه» وبذلك يتضح الوضع في الحديث الذي اختلقه لغصب حق الزهراء عليها السلام؛ إذ نقله بصيغة النفي المطلق.

ويتحصل: أن الحديث أقرّ بأن للأنبياء صنفين من الورثة:

الأول: الورثة النسبيون وفي الغالب لا ينالهم شيء؛ لأنهم لا يتركون مالاً حتى يرثه أبناؤهم.

الثاني: الورثة المعنويون، ويرثون علومهم ومقاماتهم المعنوية.

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[2] أي أن النسبة المعنوية تكون بالاتباع، وفي بعض الأحاديث «سلمان منا أهل البيت»[3]

---

(١) سورة النمل: الآية ١٦.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.

(٣) الأمالي (للطوسي): ص٤٥، ح٥٣؛ البحار: ج١٧، ص١٧٠؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٧٠، ح٢٨٢.

وكذا (عمار) و(المقداد) أي من جهة الاتباع والاقتداء[١]، ومن ذلك يعرف أن العلماء الذين يرثون الأنبياء ليسوا إلّا الربانيين الذين يتبعونهم ويمثلونهم في القول والعمل، وهذا ما أشار إليه قول رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿لا تجلسوا عند كل عالم يدعوكم إلّا عالم يدعوكم من الخمس إلى الخمس، من الشك إلى اليقين، ومن الكبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن العداوة إلى النصيحة، ومن الرغبة إلى الزهد﴾[٢] وبهذا يتضح للناس الطريق المستقيم، ويتميز عن طريق الضلالة، ولا تغرهم المظاهر والأسماء والعناوين.

فلو تركوا العالم الرباني الذي يقودهم إلى سعادتهم ويرتقي بعقولهم ونفوسهم إلى الدرجات العليا واتبعوا غيره يكونون قد ضيعوا دنياهم وأخراهم، ويستفاد من بعض الأخبار أن ذلك من موجبات المقت والعذاب.

ففي الكافي بسنده عن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليه السلام قال: ﴿لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج. إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى دانيال أنّ أمقت عبيدي إليّ الجاهل المستخف بحق أهل العلم، التارك للاقتداء بهم، وأنّ أحب عبيدي إليّ التقي الطالب للثواب الجزيل، اللازم للعلماء، التابع للحلماء، القابل عن الحكماء﴾[٣].

---

(١) انظر الوافي: ج١، ص١٤٢؛ هدي العقول: ج١، ص٨٦ ـ ٨٩؛ شرح أصول الكافي(للشيرازي): ج١، ص٢٠١.

(٢) الاختصاص: ص٣٣٥؛ البحار: ج١، ص٢٠٥، ح٢٨؛ الفصول المهمة: ج١١، ص٤٧٩، ح٦٧٠.

(٣) الكافي: ج١، ص٣٥، ح٥؛ منية المريد: ص١١١.

ويتحصل من هذه الشواهد: أن الليل والنهار ماديان ومعنويان، فإذا انسلخ النهار من الليل صار الناس في ظلام، وإذا انسلخ النور والعلم والهداية بقبض الأنبياء والعلماء منهم صاروا في ظلام، وخيم عليهم الليل، أي ليل الظلم والجور والجهل والضلالة، والأول يكون بفعل الباري عز وجل، إلّا أنّ الثاني يكون بفعل الناس أنفسهم؛ لذا قال سبحانه: ﴿**فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾[1] بصيغة اسم الفاعل.

اللطيفة الخامسة: التكامل بين البشر لا المساواة

إن تبادل الليل والنهار في الظرف وانسلاخ أحدهما من الآخر ينفي الضديّة العنادية بينهما، ويثبت الضدية الوئامية، فإن الأولى مبنية على التنافر، والثانية مبنية على التكامل في الأدوار والمهام، بل والسلخ يفيد شدة التجاذب بينهما، فلا يستغني أحدهما عن الآخر إلّا بصعوبة و مشقة هذا يلفتنا إلى حقيقتين:

الأولى: أن التضاد بين الأشياء يمكن أن يكون كمالياً وتكاملياً، فكذلك في علاقاتنا نحن البشر، فإن التضاد واقع بين الناس فلا ينبغي أن يكون التضاد عنادياً؛ لأن العناد ينتهي إلى الخصام والتحارب، بل ينبغي أن يكون تكاملياً حتى ينتج ويعطي آثاره الإيجابية، ولو أخذت

---

(١) سورة يس: الآية ٣٧.

هذه الحقيقة تنتهي أسباب الحروب والنزاعات كما تنتهي الانقسامات في التكتلات والأحزاب والتنافس السلبي بين الشركات في الاقتصاد أو في غيره.

الثانية: أن أهم تكوين للمجموعة البشرية يقوم على عنصرين متضادين بحسب واقعهما هما الذكر والأنثى والرجل والمرأة، ولكل منهما مكانته ودوره ومهامه في الأسرة فيتكاملان بالتلابس، فلا يستغني أحدهما عن الآخر، ولو بنيت هذه العلاقة الضدية على التجاذب والتكامل صارت الأسرة سعيدة تعيش أيامها نوراً ونهاراً، ولو بنيت على التنافر صارت ليلاً وظلاماً، فالزوج والزوجة بأيديهما أن ينّورا البيت أو يظلماه، وبأيديهما أن ينيرا قلوب أولادهما وعقولهما أو يسوداهما.

ومعلوم أن التكاملية في الأدوار تنفي المساواة؛ لأن المساواة ظلم وحرمان، وربما يكلف أحدهما ما هو فوق طاقته كما يلاحظ في تطبيق مبدأ المساواة على المرأة في بعض المجتمعات الغربية، كما يحرم الرجل من ممارسة بعض طاقاته ومواهبه؛ لذلك الدين ينفي المساواة ويثبت التكامل والتكافؤ، وبهذا تحفظ حقوق كل من الطرفين؛ إذ يقول سبحانه: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[1] إذ قيد واجبات المرأة على مثل حقوقها، وقيد الجميع بالمعروف لكي تنتفي الدقة العقلية، ويكون العفو والتسامح

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

والوئام هو الحاكم في التعامل معها، بخلاف المساواة فإنه يفرض الإلزام والتحاسب الدقيق معها.

والخلاصة: أن الآية المباركة تشير إلى أن تضاد الحقائق أمر مفروض الوجود، وبأيدينا أن نجعل التضاد تكاملياً أو تعاندياً، فكما أن الباري عز وجل جعل الليل والنهار تكامليين وعلى أساسهما تدور رحى الحياة وتعطي أفضل ما لديها كذلك في العلاقات الإنسانية والأسرية.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

تستفاد من الآية المباركة تعاليم عديدة في التربية والبناء العقدي نستعرضها على التوالي:

التعليم الأول: دوام الحال من المحال فتفاءلوا

إن الآية المباركة أشارت إلى أنّ الليل والنهار حادثان، وهما يشكلان حقيقة الزمان، والمركب من الحادث حادث، والحدوث يلازم التبدل والتغير ولا يستقر على حال، وتبدل الزمان في الوقت الذي يدل على حقيقته المتبدلة يرشد الإنسان إلى حقيقة مبدئية في حياته، وهي أنّ الأحوال والظروف متبدلة ومتقلبة فلا يستقر الحال على أمر واحد، وقديماً قالوا دوام الحال من المحال، ولهذا المبدأ أثر بالغ في سعادة الإنسان ينعكس في حياته في أبعاد كثيرة:

الأول: أنه يشحنه بطاقة الصبر الإيجابية إذا مر بظروف صعبة، فلا الفقر ولا الظلم ولا المرض يدوم، فكل شيء متغير ومتبدل فلا ينبغي أن يعيش الذل والمهانة.

الثاني: أنه يفتح أمامه باب الأمل، ويشحنه بالهمة والعزم على مزيد العمل والكد لأجل الارتقاء للأفضل، فلا يعيش اليأس والتشاؤم، ويكون إيجابياً ينظر إلى الأمور المشرقة من الحياة لا المظلمة.

الثالث: يجعله منتظراً مترقباً يتوقع في كل حين وساعة حصول الفرج، وبما أن ذلك يرتبط بالله سبحانه يجعله متصلاً منقطعاً متوكلاً على ربه، ولذا حرَّم الشرع اليأس من روح الله، والقرآن نهى عنه، ووصف الذين يصابون باليأس في أمورهم بالكفار، ولما غاب يوسف عن يعقوب وانقطع الأمل بالعثور عليه أرسل أولاده للبحث عنه، فقال لهم: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾[١] والروح هي الرحمة الملازمة للراحة والاستراحة والحياة الطيبة[٢]، والكفر هو كفر العقيدة والعمل؛ لأن الذي ييأس من ربه يتهمه بعدم الرحمة، وهذا كفر بكماله وجلاله، وفي عين الحال لا يلجأ إليه ولا يستغفره ويتوب إليه، فينقطع إلى نفسه وشيطانه وليس إلى ربه.

والمؤمن يجب أن يكون حسن الظن بربه، واثقاً من رحمته، منتظراً لخيره وفرجه، فلا معنى لليأس مع الإيمان، وصفات التشاؤم واليأس والقنوط من الرحمة والركون إلى الحال ليس من صفات الإيمان بالله سبحانه، وهذا أحد معاني انتظار الفرج.

الرابع: يجعل العبد نبهاً يقظاً لا يصاب بالغفلة أو النسيان عن حقيقة الاختبار والابتلاء الإلهي، فإذا حصل على نعمة كالمال أو العلم أو السلطة أو الجمال ينفتن بها ويصيبه العجب والغرور فيغفل وينسى أن هذه مزايا الله

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٢) مجمع البيان: ج٥، ص٤٤٢؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٢٣٦، (روح).

عز وجل يعطيها إليه، وهي ودائع سرعان ماتزول عنه وتذهب، فلا ينبغي أن يغتر ويستعمل هذه القدرات والنعم الإلهية في المعاصي والقبائح.

فالمال من الله ولا يدري الإنسان قد تمر به لحظة يحترق منه كل شيء ويعود إلى التراب.

وصاحب العلم فإنه بنعمة الله وقوته يملك الحافظة والتركيز واستحضار المعلومة، ولو شاء الله تعالى بلحظة واحدة ينسى كل شيء، وفي الآية يقول تعالى: ﴿**لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً**﴾[1] وهكذا صاحب المنصب والجمال، وكل نعمة هي من الله سبحانه: ﴿**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾[2] إذ هي ودائع لاختبار العباد، ولا تدوم لأحد، فعلى المؤمن أن يتذكر ويوظف نعم الله في طاعته، ولو زالت عنه يخسرها وتكون وبالاً عليه، لأن الشكر يديم النعم.

هذه المفاهيم والحقيقة يرشدنا إليها الباري عز وجل بتغير الليل والنهار وتبدلهما من حال إلى حال، ولو التفت الإنسان إلى ذلك عاش سعيداً ومات حميداً.

---

(١) سورة الحج: الآية ٥.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٠.

التعليم الثاني: كل آية مدرسة

إن كل حدث وواقعة في الوجود هي آية من آيات الله يجب التأمل والتعلم منها، فإن الليل والنهار بظاهرهما أمران عاديان بسيطان وصفهما الباري عزّ وجل بالآية، فما بالك بخلق السموات والأرض؟ وما بالك بخلق الإنسان والحيوان والنبات؟ بل كل شيء في الوجود من الذرة إلى المجرة؟ كل موجود مهما صغر وحقر هو آية، وكلما ازداد صغراً وحقارة كانت دلالته أعظم. انظر إلى الكائنات المجهرية بعضها خاضع لنظام الزوجية، وله وظيفة وقانون وتنام وتكاثر. كل ذلك من آيات قدرة الله وعظمته، وكلما ازداد الموجود كبراً وعظمة كانت دلالته أعظم أيضاً، ويرى البعض عدم وجود آية أعظم من آية، فكل الآيات عظيمة؛ لذا يقول الإمام الباقرعليه السلام في دعاء البهاء ﴿وكل عظمتك عظيمة﴾[1] والذي يجعل الآية عظيمة وأعظم هو مدى إدراك الإنسان للآية والتفاعل بها والاستلهام منها. والذي يوصل الإنسان إلى إدراك ذلك واتخاذ حوادث الوجود آيات دالة على الله سبحانه، وهذا نهج يعلمنا القرآن والسنة به طريق الإيمان والوصول إلى الاعتقاد بالله سبحانه، ويقوم على ركنين.

الأول: التأمل والتفكير في الأشياء وإدراك حقائقها وآثارها وخواصها، وهذا النحو من التفكر يرتقي بالإنسان إلى درجات عالية من العبودية،

---

(١) إقبال الأعمال: ج٢، ص٣٥٧؛ المصباح (للكفعمي): ص٦٩٢.

والإيمان يحتاج إلى قلب نبه، والتفكر ينبه القلب كما ورد عن أمير المؤمنين(١).

وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته﴾(٢) بل عن الرضا عليه السلام ﴿ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله عزّ وجل﴾(٣) والنفي ثم الإثبات يفيد الحصر، ووجهه أن التفكر يحقق غاية العبادة، بل أصلها؛ لأن العبادة متوقفة على المعرفة، وهي متوقفة على الفكر، ولذا ورد في بعض الأحاديث أن أكثر عبادة أبي ذر التفكر(٤)؛ لأن الدين يريد إنساناً واعياً مدركاً لما يعتقد به.

وفي رواية القمي عن الصادق عليه السلام - يعلّم أسلوب التفكر - لما سئل عما يروي الناس أن تفكر ساعة خير من قيام الليل كيف يتفكر؟ قال: ﴿يمر بالخربة أو الدار فيقول: أين ساكنوك؟ أين بانوك؟﴾(٥) وإذا مرَّ بالحشرة أو

---

(١) الكافي: ج٢، ص٥٤، ح١، وفيه: ((عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: نبه بالتفكر قلبك)).

(٢) الكافي: ج٢، ص٥٥، ح٣؛ الوسائل: ج١٥، الباب ٥ من أبواب جهاد النفس، ص١٩٦، ح٢٠٢٦٠.

(٣) الكافي: ج٢، ص٥٥، ح٤؛ الوسائل: ج١٥، الباب ٥ من أبواب جهاد النفس، ص١٩٦، ح٢٠٢٦١.

(٤) الخصال: ص٤٢، ح٣٣؛ الوسائل: ج١٥، الباب ٥ من أبواب جهاد النفس، ص١٩٧، ح٢٠٦٢٤؛ البحار: ج٢٢، ص٤٣١، ح٣٩.

(٥) الكافي: ج٢، ص٥٤، ح٢؛ البحار: ج٦٨، ص٣٢٠، ح٢.

نظر إلى الشمس أو المطر أو الشجر وكل حوادث الوجود يتأمل فيها، وينظر إلى أسرارها، وأن هذه من عجائب الصنع والصانع.

الثاني: إرجاع الأشياء إلى سببها ومكونها وهو الخالق عزّ وجل؛ لأن كل مسبب يفتقر إلى سبب، وكل حادث إلى محدث، فالذي يريد أن يصل إلى الإيمان يجب أن يفكر في أمر الله ولا يفكر في ذاته، و يتأمل في آيات قدرته وعظمته، ولا يتأمل في حقيقة الخالق؛ لأن الأول مقدور له يحيط به العقل فيوصله إلى المطلوب، وأما الثاني فهو فوق مستوى عقله وتفكيره، ولو أراد أن يغور فيه تاه وأضله الشيطان بإيجاد صور موهومة عنه، وبهذا وردت النصوص الكثيرة[1]، وهي هفوة كبيرة وقع بها بعض أهل المعقول فسقطوا في هفوات الكفر كالملاحدة والضلالة كالحكماء.

والآية المباركة انتهجت ذات الطريق، وجعلت انسلاخ النهار من الليل آية؛ لأن نظام الليل والنهار وانتظامهما في قانون سار لا يختلف ولا يتخلف، وتكرر حدوث الانسلاخ في كل يوم يبطلان الصدفة والطفرة التي يؤمن بها الطبيعيون؛ بداهة أن الحادث دليل على المحدث، ونظمه دليل على منظمه، ودقته وإتقانه دليل على قدرته وحكمته، ومن مثل هذه الآية استفاد علماء المعقول برهانين على التوحيد هما برهان الحدوث وبرهان النظم، وأبطلوا مزاعم الملاحدة، وهذا ماورد في الأخبار الشريفة أيضاً.

---

(١) انظر شرح أصول الكافي (للمازندراني): ج٨، ص١٧٧.

ففي الكافي صحيحة عن علي بن منصور قال: قال لي هشام بن الحكم: كان بمصر زنديق.

تبلغُه عن أبي عبد الله عليه السلام أشياء، فخرج الى المدينة ليناظره فلم يصادفه بها، وقيل له: إنه خارج بمكة، فخرج إلى مكة ونحن مع أبي عبدالله فصادفنا ونحن مع أبي عبد الله عليه السلام في الطواف، وكان اسمه عبد الملك، وكنيته أبو عبد الله، فضرب كتفه كتف أبي عبد الله عليه السلام فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ﴿ماسمك؟﴾

فقال: اسمي عبد الملك. قال : ﴿فما كنيتك﴾

قال : كنيتي أبو عبد الله، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ﴿فمن هذا الملك الذي أنت عبده؟ أمن ملوك الأرض أم من ملوك السماء؟

وأخبرني عن ابنك عبد إله السماء أم عبد إله الأرض؟

قل ما شئت تخصم﴾ قال هشام بن الحكم: فقلت للزنديق: أما ترد عليه!!

قال: فقبَّح قولي، فقال أبو عبد الله: ﴿إذا فرغت من الطواف فأتنا﴾.

فلما فرغ أبو عبدالله أتاه الزنديق فقعد بين يدي أبي عبدالله ونحن مجتمعون عنده، فقال أبو عبدالله عليه السلام للزنديق : ﴿أتعلم أن للأرض تحتاً وفوقاً؟﴾

قال: نعم. قال: ﴿فدخلت تحتها؟﴾ قال: لا: قال: ﴿فما يدريك ما تحتها؟﴾

قال: لاأدري إلّا أني أظن أن ليس تحتها شي، فقال أبو عبدالله عليه السلام: ﴿فالظن عجز لما لا تستيقن﴾ ثم قال أبو عبد الله: ﴿أفصعدت السماء؟﴾ قال: لا.

قال: ﴿أفتدري ما فيها؟﴾ قال: لا. قال: ﴿عجباً لك لم تبلغ المشرق، ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل الأرض، ولم تصعد السماء، ولم تَجُزْ هناك فتعرف ماخلفهن وأنت جاحد بما فيهن؟ وهل يجحد العاقل ما لايعرف؟﴾

قال الزنديق: ما كلَّمني بهذا أحد غيرك، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ﴿فأنت من ذلك في شك فلعله هو ولعله ليس هو؟﴾ فقال الزنديق: ولعل ذلك، فقال أبو عبدالله عليه السلام: ﴿أيّها الرجل! ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل. يا أخا أهل مصر! تفهَّم عنّي فإنّا لا نشك في الله أبداً، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان فلا يشتبهان ويرجعان، قد اضطرا ليس لهما مكان إلّا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعان؟ وإن كانا غير مضطرين فَلِمَ لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً؟ اضطرا والله يا أخا أهل مصر إلى دوامهما، والذي اضطرهما أحكم منهما وأكبر﴾ فقال الزنديق: صدقت، ثم قال أبو عبدالله عليه السلام: ﴿يا أخا أهل مصر! إن الذي تذهبون إليه وتظنون أنه الدهر إن كان الدهر يذهب بهم لم لا يردهم، وإن كان يردهم لم لايذهب بهم؟

القوم مضطرون يا أخا أهل مصر، لِـمَ السماء مرفوعة والأرض موضوعة؟

لِـمَ لا تسقط السماء على الأرض؟ لِـمَ لا تنحدر الأرض فوق طباقها ولا يتماسكان ولا يتماسك من عليها؟﴾

قال الزنديق: أمسكهما الله ربهما وسيّدهما. قال: فآمن الزنديق على يدي أبي عبد الله عليه السلام، فقال حمران: جعلت فداك إن آمنت الزنادقة على يدك فقد

آمن الكفار على يدي أبيك، فقال المؤمن الذي آمن على يدي أبي عبد الله عليه السلام: اجعلني من تلامذتك.

فقال أبو عبد الله: ﴿يا هشام بن الحكم! خذه إليك وعلّمه﴾ فعلّمه هشام، فكان معلم أهل الشام وأهل مصر الإيمان، وحسنت طهارته حتى رضي بها أبو عبد الله[١].

وسؤال أبو عبد الله عن اسمه وكنيته من قبيل سؤال العارف أراد به أن يفتتح الحوار؛ والزنديق مصطلح عند المتقدمين يراد به الذي لا يتمسك بشريعة ويقول بدوام الدهر.

وفي الحديث: الزنادقة هم الدهرية الذين يقولون لا ربّ ولا جنة ولا نار ومايهلكنا إلّا الدهر، وأطلق على معان أخرى بعيدة عن منطوق الرواية التي نذكرها، وأصل الكلمة - مركبة من مفردتين - غير عربية[٢]، واليوم يعبر عن الزنديق بالملحد[٣]، كما يطلق على الشاك أو الضال عن الخالق[٤]، مأخوذ من اللحد وهو الميل عن الطريق، ويسمى القبر لحداً لأنه يميل عن الطريق[٥]، والملحد سمي بذلك لأنه طاعن في الدين ومائل عنه، أو مائل

---

(١) الكافي: ج١، ص٧٢-٧٤، ح١.

(٢) مجمع البحرين: ج٥، ص١٧٨، (زندق).

(٣) مجمع البحرين: ج٥، ص١٧٨، (زندق).

(٤) المعجم الوسيط: ج١، ص٤٠٣، (زندق).

(٥) مجمع البحرين: ج٣، ص١٤٠ـ١٤١، (لحد).

عن طريق الفطرة والعقل السليم؛ لأنهما دالان على وجود الخالق ووحدانيته، والكلام في ذلك مفصل يكفينا هنا ما ذكرناه.

وتدل المحاججة على عدة حقائق:

الأولى: حسن الاستهلال والدخول في المحاورة مع اللطف في الاحترام والبيان، وعدم استعداء المخالفين أحد أسباب هدايتهم.

الثانية: أن الإنطلاق من الوجدان وتوعية الضمير أول الطريق للهداية، وقد ابتدأ الامامعليه السلام بما يقربه كل عاقل أنه قاصر عن دركه ومعرفته، وبعد إقراره بذلك أثبت له الحق.

الثالثة: أنّ الذين يهتدون بالحوار إذا استوفى شرائط الإقناع هم الذين يريدون الهداية، أي يريدون الاستعلام بالحوار، وأما المعاندون فهم منعوا أنفسهم من الهداية.

الرابعة: أن طريق الهداية يتقوّم بركنين: نفي الخلل واثبات الحق، وركن النفي يقوم على إبطال الصدفة والطفرة، وإبطال الثقة المطلقة بالعقل، ومساوقة الاعتقاد والحس، وهذه نظرية قديمة للإلحاد قام عليها ولا زال، فالملحد يؤمن بالمحسوس ولا يؤمن بالغيب، وهذه كلها أبطلها الإمامعليه السلام بأمرين:

الأول: الإقرار بقصور العقل عن درك عالم الغيب.

الثاني: اتخاذ الحس طريقاً للإيمان بالغيب، وهذا ماقرره الحكماء لبرهاني الحدوث والنظم، ومنشؤهما التفكير بقدرة الله وآيات عظمته لا التفكير

بذاته سبحانه، ولما كان الزنديق صادقاً في رغبته وكان يريد المعرفة وأظهر له الإمام عليه السلام ذلك آمن دون عناء ومكابرة، ولذا وفَّقه الباري عزّ وجل، واهتدى وصار معلِّماً لأهل مصر والشام معاً.

الخامسة: لزوم السعي لهداية الخلق وتعليمهم وعدم حرمانهم من الهداية مهما أمكن.

التعليم الثالث: ظلمانية الأجساد ونورانية الأرواح

فإنّ الليل ظلماني الحقيقة، والنهار نوري، والإنسان هكذا جسده ظلماني لأنه من تراب الأرض، وروحه نورانية لأنها من أمر الله تعالى، وأرواح المؤمنين تختلف عن غيرهم في تضاعف النورانية من ثلاث جهات:

الأولى: نورانية الوجود، فقد مر أن الأشياء كانت في كتم العدم وهو ظلماني، وقد أنارها الباري عز وجل بالوجود.

الثانية: نورانية الحقيقة؛ لأنها مخلوقة من طين الأئمة عليهم السلام، وطينتهم مأخوذة من أشرف أرض في الجنة، وحيث إن الجنة فيها حياة لا موت وعلم لاجهل وعبودية لا طغيان كذلك المخلوق منها، وقد تضافر في الأخبار الشريفة: «شيعتنا منّا خلقوا من فاضل طينتنا يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا»[1] فهذه النشأة الاشتقاقية للشيعة من طينة الأئمة عليهم السلام

(١) شفاء الصدور: ج٢، ص٦٢، انظر منهاج البراعة: ج١٤، ص١٠٣، عن الإمام الصادق عليه السلام: «شيعتنا منا خلقوا من فاضل طينتنا وعجنوا بنور ولايتنا».

تجعل الارتباط بينهم ذاتياً حقيقياً لا ينفك. يحن بعضهم لبعض، ويتشاركون في الأفراح والأحزان.

الثالثة: النورانية الاكتسابية، وتتم بالولاية والمعرفة والطاعة والتسليم لهم عليهم السلام، وبهذا يتضح أنَّ نور الذات والمعرفة مختص بالمؤمنين الموالين، أما غيرهم فلا نورلهم إلّا النور الوجودي، وبمقدار مايحبون الأئمة عليهم السلام ويتبعونهم ويتعلمون منهم يستنيرون بالنور الاكتسابي، وإلّا فهم في ظلام دامس؛ لذا قال تعالى: ﴿**فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾[1] لأن أجسادهم وأرواحهم مخلوقة من تراب الأرض وهو ظلماني الحقيقة.

وبذلك يتضح أن النور الايجادي والحقيقي ليسا سببين لهداية الإنسان، وإنما عوامل مساعدة، والسبب الحقيقي هو النورانية الاكتسابية؛ لأنها واقعة في حيز إرادة الإنسان واختياره، ولذا يكلف الإنسان بمعرفة أولياء الله ومحبتهم وولايتهم وطاعتهم والتسليم لهم؛ لأن بها نورانية الفكر والقلب والعمل، ويكلف باجتناب أعدائهم؛ لأن بهم ظلمانية الإنسان وظلمانية حياته، ومن هنا قلنا إن نورانية حياة الإنسان وظلمانيتها بيده، ولذا ورد الظلام بصيغة اسم الفاعل.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٧.

التعليم الرابع: الزمان أمر حقيقي أم اعتباري؟

إن الآية تبطل دعوى الحكماء في أن الزمان أمر اعتباري ناشئ من حركة الأفلاك بناء على أن الزمان هو مجموع الليل والنهار لا الحاصل منهما، فإن الآية صريحة في أن الليل حقيقة وجودية واقعية وكذلك النهار، وهذا ما يشهدله القرآن، ففي آيات عديدة وصف الليل والنهار بالخلق والجعل والولوج، فمن الأول قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[١] والخلق إيجاد الشيء عن إبداع[٢]، ونسبة الخلق إلى الليل والنهار في سياق الشمس والقمر شاهد على التكوين، والأصل حمل اللفظ الظاهر على ظهوره ومعناه الحقيقي، ولا داعي للتأويل وحمله على معنى مغاير كالتقدير كما ذكره البعض[٣].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ**﴾[٤] وفي آية أخرى: ﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾[٥] والجعل يطلق على معان جامعها الخلق والإيجاد[٦].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٣.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٩٦، (خلق).

(٣) مجمع البحرين: ص١٥٩، (خلق).

(٤) سورة يونس: الآية ٦٧.

(٥) سورة الانعام: الآية ١.

(٦) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٩٦ ـ ١٩٧، (جعل)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٣٣٨، (جعل).

ومن الثالث قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[١] والولوج الدخول في مضيق[٢]، ولا يقال إلّا في الحقائق التكوينية، والسياق شاهد على أن تعاقب الليل والنهار مثل الحياة والموت يلجان الأشياء ويخرجان منها.

والخلاصة: أن ظواهر الآيات بل صريحها أن الليل والنهار أمران حقيقيان يوجدهما الباري بالخلق والإيجاد، كما يوجد الشمس والقمر والحياة والموت، وليس بأمرين اعتباريين كما يقوله الحكماء، والبحث في ذلك مفصل نوكله إلى محله.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨٢ ـ ٨٨٣، (ولج)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٣٣٥، (ولج).

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا
ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

يس/ ٣٨

والبحث فيها يقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: (الواو)

تفيد العطف للإشارة إلى أنَّ من الآيات الدالة على عظمة الخالق وحكمتة جريان الشمس في ضمن ميزان مقدر ودقيق، كما ترتبط بالآيات الأسبق التي تحدثت عن إنبات الأرض وإثمارها من العشب والثمار، وإنبات البشر بالأبناء، فإن حياة الأرض والشجر والبشر تتقوم بالشمس، فيدل العطف على حقائق ثلاث:

الأولى: الترابط الوثيق وعلاقة الانتفاع بين الموجودات، فلا يمكن أن يستغني الإنسان عن الأرض ولا الأرض عن الإنسان، فلولا الإنسان ما حييت الأرض، ولولا الأرض ما عاش الإنسان، ولولا الشمس لاحييت أرض ولا إنسان، فالشمس سبب الحياة المادية للأرض والإنسان.

وبطلوع الشمس وغروبها يحدث الليل والنهار، وتنتظم حركتهما، وتنبت الأشجار، وتنمو الثمار، وتتفتح الأزهار، وتنزل الأمطار، ويعيش الحيوان والإنسان في نظام مقدر ومتوازن .

وهذا شاهد على بطلان نظرية الملاحدة والطبيعيين؛ إذ الموجودات متباينة فكيف تنسجم المتباينات وتتكامل لولا وجود منظم حكيم، ولو كانت حادثة صدفة لانتفى النظام والتوازن بينها.

والثانية: أن الشمس في حركة دائبة مضبوطة في نظام واحد محكم ومتقن لا يزيد ولا ينقص ولا يتبدل أو يتغير، فلو اقتربت الشمس من الأرض خطوة لاحترق كل شيء ومات، ولو ابتعدت خطوة لمات من البرد، ووحدة الحركة والنظام والأثر دليل على وجود المحرك ووحدته وقدرته وحكمته؛ لامتناع الصدفة وامتناع الانتظام بلا نظام و اتباع النظام بلا منظم، ولذا جعل الباري عز وجل حركة الشمس دليلاً على تقديره وعزته وعلمه، كما أنَّ تعاقب الليل والنهار آية تدل على قدرته وحكمته.

والثالثة: بيان لكيفية الخلق والإيجاد، فكما أن الشمس إذا طلعت أشرقت على الأشياء وأظهرتها للعيان كذلك النور الإلهي يظهر الأشياء ويخرجها من العدم إلى الوجود.

ونور الشمس من تجليات اسمه تعالى النور، والشمس واسطة ظهور نوره وإشراقه على الحقائق، وقيل إن نور جميع الكواكب ثوابتها وسياراتها مستفاد من ضوء الشمس، وهو مفاض عليها من الفياض المطلق جل جلاله وعم نواله[(١)].

وقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿أن الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش﴾[(٢)] ونور

---

(١) انظر روح المعاني: ج٢٣؛ ص٢٢. وذكر هذا المضمون في منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج١٩، ص٣٣٢.

(٢) الكافي: ج١، ص٩٨، ح٧؛ التوحيد: ص١٠٨، ح٣؛ البحار: ج٥٥، ص١٦١، ح١٥.

الكرسي صفة الفعل، ونور العرش صفة القدرة، بناء على أن العرش هو مظهر القدرة الإلهية.

ولعل السبب في ذكر حركة الشمس معطوفة على آية الليل والنهار لتكون هي الأخرى آية وتشير إلى حقائق.

الأولى: ضرورة الالتفات إلى السبب و الإقرار بالفضائل له، فالشمس هي سبب حدوث الليل والنهار، وهذه مرتبة من مراتب شكر المنعم.

الثانية: لدفع توهم قد يخطر في أذهان البعض. يقول إنَّ سلخ النهار من الليل أثر كوني مرجعه إلى الطبيعة وليس من الله سبحانه، فلا يصح وصفه بالآية، وهذا القول يتضمن إشكالين: أحدهما يتعلق بنفي الفعل عن الخالق عزّ وجل وتأثيره، والثاني ينسب الخلل إلى القرآن، والآية المباركة تبطل الإشكالين معاً، وتنبه على أن حدوث الليل والنهار وإن كان من الشمس إلّا أن الشمس هي الأخرى من الله سبحانه في ذاتها وحركتها ونظامها، بل هي بتقدير عزيز عليم.

فبالشمس تظهر الأشياء وخواصها، كذلك الشمس بالله سبحانه تظهر وتظهرخواصها، ولا يخفى ما في ذلك من إشارة خفية إلى حقيقة الخلق والإيجاد عبر وسائط الفيض الإلهي، فالأسباب التوسيطية توجد المسببات، وهي الأخرى تعود إلى الخالق عزّ وجل.

الثالثة: أن آية الليل والنهار سببت حدوث الأيام ولكن الزمان لا يقتصر عليهما، بل فيه فصول أربعة، والشمس آيتها وجميعها قائمة على حركة دائبة ومنتظمة بإتقان.

المفردة الثانية: ﴿تَجْرِي﴾

دلت الآية على أن الشمس تجري ولجريانها غاية وهي بلوغ موضع تستقر فيه، ودلت على أن جريانها واستقرارها ناشئ من سبب له تقدير وعزة وعلم.

وهنا ترد ثلاثة أسئلة. لماذا قال تجري ولم يقل تتحرك أو تمشي؟

وما هو مستقر الشمس؟ ولماذا وصف ذلك بالتقدير والعزة والعلم دون غيرها من الصفات الإلهية؟

وفي الجواب عنها نقول: إن الجري حقيقته السير السريع[١]. يقال جرى الفرس أي اندفع في السير[٢]، وعبّر عنه بالجري لأنه يشمل ماله أرجل وما ليس له أرجل، كما يشمل الحركة في الماديات وفي المعنويات، فهو أعم من المشي والسعي والسير الذي يطلق على حركة ذوات الأرجل، ولذا يقال حساب جار لا ماش ولا سار؛ لأنه اتفاق بين متعاملين ينظم حساب الدفع في التعويضات المالية[٣]، ويقال جرى الماء أي سال واندفع مسرعاً، وتسمى السفينة جارية كما في بعض الآيات الشريفة لأنها تندفع في السير وتمخر البحر[٤]، والصدقة الجارية أي الدارّة المستمرة فعطاؤها لا ينقطع[٥].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٩٤، (جرى).

(٢) المعجم الوسيط: ج١، ص١١٩، (جرى).

(٣) انظر المعجم الوسيط: ج١، ص١١٩، (جرى).

(٤) انظر سورة الرحمن: الآية٢٤؛ سورة الشورى: الآية ٣٢.

(٥) انظر مجمع البحرين: ج١، ص٨٣، (جرا).

وفي الحديث الشريف: ﴿إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق﴾[١] قيل المراد أنّ وساوسه تجري في مجاري الدم حتى تصل إلى القلب[٢].

وجريان الشمس سريانها بيسر وسهوله بلا موانع وعراقيل، وصيغة المضارع تدل على الاستمرار، ووجود مبدأ وغاية لها، ونسبة الجري إلى الشمس تدل على وجود نظام داخلي فيها يبعث فيها التحرك، ولذا قيل إنها بتقدير من عليم، وبذلك تبطل الصدفة والعبثية واللانظام فيها.

وربما تشير الآية إلى وجود نسبة من العقل والاختيار فيها لا سيما على القول بأن كل الموجودات حية ومدركة بنسبة من الحياة والعقل والإدراك، كما شهد لذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾[٣] إذ لا يعقل تسبيح الأشياء إلّا بقدرة واختيار وعقل.

وفي قوله تعالى: ﴿**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿**إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾[٥] أسند الفعل إلى ضمير جمع العقلاء فضلاً عن المستفاد من الروايات الكثيرة الدالة على أن

(١) عوالي اللآلئ: ج٤، ص١١٣، ح١٧٥.

(٢) مجمع البحرين: ج١، ص٨٣، (جرا).

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٤) سورة الأنبياء: الآية ٣٣.

(٥) سورة يوسف: الآية ٤.

للأشياء سجوداً وعبادة، ولو تم هذا ينقدح سؤال وهو أن الحركة الذاتية الاختيارية تفتقر إلى دافع يعطيها الطاقة والاستمرارية، فما هو دافع حركة الشمس ؟ والجواب: هناك دافعان:

الأول: الدافع الفعلي أي التكويني، وهو القانون الذي أودعه الباري في الأشياء المتحركة، ويعبِّر عنه أهل المعقول بالمقتضي، وفي علم الحركة الذي هو من أصناف الفيزياء يعبِّر عنه الدوام، ومفاده أن كل متحرك يظل متحركاً حتى يوقفه سبب أقوى منه، أو ينتفي فيه الاقتضاء، وكل ساكن يظل ساكناً حتى يحركه ما هو أقوى منه، ومن هذا القانون استفاد العلماء وأنشؤوا الأقمار الصناعية والحركة في الفضاء بالمركبات الفضائية التي تستمر حركاتها فترات طويلة؛ لأنهم أخرجوها من حيِّز الموانع التي تعيق الحركة فتبقى متحركة إلى أن ينتهي اقتضاؤها، وهذا القانون حاكم في جميع الأشياء الساكنة والمتحركة.

فالشمس أوجدها الباري وأودع فيها قانون الحركة وأمرها بالتحرك فجرت بأمره سبحانه، وهي تجري حتى ينتهي أقتضاؤها للحركة، أو يوقفها سبب أقوى، ولذا تتكوَّر في يوم القيامة.

الثاني: الدافع الغائي، أي أن الباري عز وجل جعل لحركة الشمس غاية لا بد أن تصلها، فإذا تحققت انتفى داعي الحركة فتتوقف، وأشارت الآية المباركة إلى هذا الدافع بلامين في قولة تعالى: ﴿**لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا**﴾ فللشمس مستقر تقصده وتريده وهو غاية حركتها دل علِيه قوله (لها) واللام للاختصاص، فيدل على دركها واختيارها، وأما اللام في قوله:

﴿لِمُسْتَقَرٍّ﴾ قيل فيها أقوال متعددة أظهرها أنّها للتعليل، والمعنى أنها تجري لأجل الاستقرار، وسبب الاستقرار إما انتفاء المقتضي لتحقق الغاية أو وجود السبب الأقوى.

وقد كثر التعبير بلام الغاية لبيان الانتهاء إلى المصير، نظير قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿لدوا للموت، واجمعوا للفناء، وابنوا للخراب﴾[1] وفي قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً﴾[2] أي مصير الولادة إلى الموت، ومصير البناء إلى الخراب، ومصير التقاط آل فرعون هو زوال قوتهم ومكانتهم، وهو الأظهر الأقوى.

وقيل هي بمعنى (إلى) أي تجري إلى مكان اسقرارها، وأريد به الغروب، وقد شبه غروب الشمس عن الأبصار بالمستقر؛ لأنه بمنزلة المأوى الذي يأوي إليه المرء في آخر النهار بعد عناء حركته ونشاطه في العمل، وهو خلاف الظاهر، على أنه لا يتنافى مع الغاية؛ لو ضوح أن (إلى) تفيد منتهى الحركة وهو غايتها، ولذا اتفق الأصوليون على أنها من أدوات مفهوم الغاية، وقيل هي للوقت، نظير اللام في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾[3] والمعنى ان الشمس تجري لوقت استقرارها، فكلما استقرت زماناً أمرت بالجري فجرت[4]، وهو بعيد عن الظهور جداً.

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص٣٣، الرقم ١٣٢.

(٢) سورة القصص: الآية ٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

(٤) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص٦٦؛ روح المعاني: ج٢٣، ص١٨.

وقرأ جماعة قوله (لمستقر) بلا مستقر بصيغة لا النافية للجنس، فتدل على نفي الاستقرار لها لجريانها الدائم المستمر في الدنيا، ونسبت القراءة إلى السجاد والباقر والصادق عليهم السلام[1]، وقرأه البعض بصيغة لا التي تعمل عمل ليس فترفع (مستقر)[2] والقراءة لا تتنافى مع المنطوق؛ لأنها تشرح المعنى ولا تبدل الحرف أو الكلمة، أو تشير إلى التأويل على ما يقتضيه التحقيق في القراءة، وهذا أمر هام يحتاج إلى بيان.

بطلان نظرية جمع القرآن وقراءاته

وقد كثرت الروايات التي تنص على أن الآية هكذا في قراءة أهل البيت عليهم السلام، فأوجب الوهم عند البعض أن هذا من وقوع الزيادة في القرآن، أو التصرف في تسلسل الآيات، وهذا على خلاف التحقيق:

أولاً: لأنَّ القرآن الذي بين المسلمين هو عينه الذي نزل على الرسول صلى الله عليه وآله ولم تمسه يد التلاعب لا في ألفاظه ولا في ترتيب آياته و لا في جمع سوره وآياته، وماذكر من أن فلاناً جمعه أو فلاناً فهو مكذوب على التحقيق، وقد

---

(١) انظر تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٧٥؛ مجمع البيان: ج٨، ص٦٦٢؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٢٢.

(٢) تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥٦؛ مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٤؛ تفسير الميزان: ج٧، ص٩٠.

كذَّب الباري عز وجل ذلك بقوله تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(١) فإن هذه الآيات المباركة دالة على أن جمع القرآن تم بأمر الله على يد النبي صلى الله عليه وآله، وكذلك قرآنه، فليس للقرآن إلّا قراءة واحدة هي المشهورة الواردة عن أمير المؤمنين عليه السلام، وإذا كانت قراءته منه يعني نقاطه وحركاته منه كذلك، وكذلك بيانه منه، فتبطل بذلك ثلاث دعاوى مكذوبة:

الأولى: أن جامع القرآن فلان أو فلان.

الثانية: تعدد القراءات، فإنه ليس للقرآن إلّا قراءة واحدة.

الثالثة: أن يكون للقرآن مبيِّن غير النبي والعترة عليهم السلام.

ثانياً: أن قراءة أهل البيت يرادبها جعل القراءة بنحو يفهم المراد من الآية، أو يوضح المعنى للأذهان، وعلى هذا ينبغي أن تحمل الروايات الواردة عنهم في إضافة بعض الحروف أو الكلمات، فإنه لا ينبغي أن تفهم بأنها من وقوع التصرف في القرآن، بل الغاية هو بيان المعنى المراد.

إن قلت: لكن بعض الروايات صريحة في التنزيل؛ اذ يقول عليه السلام: «ما هكذا نزلت بل هكذا نزلت»(٢) أو: «هكذا نزلت والله»(٣) ويضيف عليه السلام كلمة.

---

(١) سورة القيامة: الآيات ١٦ ـ ١٩.

(٢) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ج٢، ص١٢٥.

(٣) تفسير القمي: ج٢، ص١٩٨.

والجواب: بعد أن ثبت امتناع اختلاف القرآن وتحريف ألفاظه شرعاً وعقلاً لا بد وأن يحمل مثله على تفسير المعنى، وفضلاً عن الآية المتقدمة وغيرها من آيات حفظ القرآن من التحريف والضرورة، والإجماع يعززه شاهدان:

الأول: أن النزول أعم من الوحي، ويستفاد من قوله: ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾(١).

أن القرآن كان ينزل لفظاً ومعنى ولكن الناس يعملون باللفظ، أما المعنى فيجهلونه أو لا يدركونه على حقيقته فيعلمهم الإمام عليه السلام بذلك ويقول هكذا نزلت أي بالمعنى، وربما يقرأ قوله عليه السلام: «نزلت» بالتشديد وصيغة المبني للمجهول أي (نُزِّلتَ) والتنزيل المشدد ظاهر في تنزيل المعنى لا اللفظ.

الثاني: الروايات الكثيرة الصريحة في أن المراد من تفسير الألفاظ بيان المعنى وليس الإقرار بالتحريف. منها رواية محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الكاظم عليه السلام.

ومنها: قلت: إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً؟ قال عليه السلام: «بولاية علي عليه السلام تنزيلاً» قلت: هذا تنزيل؟ قال: «نعم ذا تأويل»(٢).

وقوله عليه السلام: «ذا تأويل» صريح في إرادة المعنى وتأويل اللفظ إلى مصداقه الباطن.

---

(١) سورة القيامة: الآية ١٩.

(٢) الكافي: ج١، ص٤٣٥، ح٩١.

وفي رواية أخرى: ﴿قلت: ثم يقال: هذا الذي كنتم به تكذبون؟ قال: يعني أمير المؤمنين عليه السلام. قلت: تنزيل؟ قال: نعم﴾[1] و﴿يعني﴾ صريحة في إرادة المعنى، والروايات الشاهدة على ذلك كثيرة.

ويتلخص منها: أن القراءات الواردة عن الأئمة عليهم السلام لا ينبغي أن تحمل على تغيير الألفاظ أو على تحريف القرآن، بل المراد منها شرح وبيان المصاديق، ومن ذلك قراءة الآية محل البحث بصيغة لا النافية للجنس؛ لأنَّ لام ﴿لمستقر﴾ قد يراد بها الغاية، وقد يراد بها الوقت، فيقع الإشكال؛ لأن الأولى تفيد الاستمرار، وأما الثانية ولأجل بيان أن المعنى هو الأول استبدلت بلا النافية للجنس لنفي الاحتمال الآخر، وبيان أن حركة الشمس لا نهاية لها، وبعضهم قرأها بمعنى ليس وتفيد معنى لا النافية، وما ورد في بعض الروايات أن التنزيل هكذا أو هكذا نزلت يراد به نزلت على المعنى لا على اللفظ، ولا اختلاف بين القرائتين من حيث النتيجة إلّا أن الأولى أدق وأعمق واظهر من الثانية، وكونها قراءة منسوبة إلى أهل العترة عليهم السلام يعضد الظهور، بل القاعدة القاضية بلزوم حمل الألفاظ على معانيها الحقيقة ولا تحمل على غيرها إلّا بدليل، ومفادها: أن حركة الشمس دائبة مستمرة لا تستقر في الدنيا؛ لأن بها قوام الحياة، واسقرارها يستلزم موت الأشياء، وهذا لا يكون إلّا في نهاية عمر الدنيا حيث تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

---

(١) انظر الكافي: ج١، ص٤٢٥، ح٩١.

المفردة الثالثة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ﴾

اللام للغاية، المستقر مصدر ميمي أو اسم مكان.

وقد اختلف المفسرون في المراد منه على أقوال: فقال بعضهم: مستقرها نهاية العام، فإذا بدأت دورتها السنوية تبدأ عاماً جديداً وهو ضعيف؛ لأن الانتهاء في الدورة السنوية والابتداء بعام جديد لا يقال له استقرار ومستقر، بل هي في حركة دائبة، وحيث إنّ الحركة دورية وتنتهي إلى نقطة حركتها الأولى يقال لها مبدأ السنة الجديدة[(١)]، وقيل هو مغربها الذي ينتهي مسيرها إليها في كل يوم من مرائي العيون[(٢)]، وهو ضعيف أيضاً؛ لأن الشمس لا تتوقف في المغرب بل تستمر في حركتها، وقيل مستقرها ميزانها؛ لأن الشمس تميل عن خط اعتدالها في بدء الربيع بطرف الشمال لتدخل في مدار ٢٣ درجة شمالاً، وتعود مع بدء الصيف قليلاً قليلاً حتى تنتهي إلى خط اعتدالها عند بداية الخريف، وتستمر على خط سيرها ذلك باتجاه الجنوب حتى بدء الشتاء، ومن بدء الشتاء تتحرك باتجاه خط اعتدالها حتى تبلغ ذلك عند بدء الربيع وهو مستقرها[(٣)].

فمستقرها نظامها الذي هو منتهى صعودها وهبوطها بحيث لا تتجاوز عنه، فضعفه ظاهر؛ لأن الحركات المذكورة ناجمة عن حركة الأرض

---

(١) تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٣٥.

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٥٥، (قرر).

(٣) انظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٣٧.

حول الشمس وانحرافها عن مدارها وليست ناشئة من حركة الشمس، والآية تتحدث عن حركة الشمس.

وقيل: إن المستقر هو النقطة التي تبدأ منها الشمس بحركتها الدورية حول نفسها فمستقرها مركز محورها الذي تدور به، وعلى هذا الأساس حمل اللام في قوله تعالى: ﴿**لِمُسْتَقَرٍّ لها**﴾[1] على الظرفية، أي بمعنى (في) ويكون المعنى (في مستقرلها)[2] وهو أضعف الأقوال؛ لأن مبدأ حركة الشمس ليس هو محل قرارها ولا استقرارها؛ لعدم توقفها عن الحركة فيه فضلاً عن مخالفته للقاعدة القاضية بحمل الألفاظ على معانيها الحقيقية، فلا تحمل على غيرها بلا دليل، بل ظاهر الجري الانتقال في الحركة من مكان إلى مكان لا الدوران في مكان واحد.

وقيل: إنه النجم البعيد جداً الذي تتجه إليه الشمس مع منظومتها الذي يسمّيه علماء الفلك (الفيجا) والعرب تسميه (الستر الواقع)[3] وقد وصف هذا بأحدث التفاسير المطابق لمكتشفات العلماء المتأخرين[4].

---

(١) سورة يس: الآية ٣٨.

(٢) انظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٣٧، الهامش (١).

(٣) تفسير الميزان: ج٢٣، ص٨٩؛ تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٣٤؛ تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٣٦.

(٤) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٣٧.

وقيل: مستقرها برجها الذي يكون بعد البرج الذي تكون فيه، فإنّ مسيرها في برجها يترتب عليه استقرارها في البرج الذي بعده شهراً[١].

وقيل: غير ذلك من التفسيرات التي تبتني على الظنون الضعيفة والاحتمالات العقلية التي لا تستند إلى حجة أو دليل، بل تتنافى مع المنطوق[٢]، فإن الآية نصت على أن حركة الشمس لها مستقر.

والمستقر موضع الثبوت، والاستقرار يطلق على الإقامة بأمن وسكينة. يقال: استقر بالمكان أي تمكَّن وسكن[٣]، وقد وصف الباري عز وجل الجنة بأنها مستقر أهل الإيمان الذي فيه ينعّمون[٤]، والنار مستقر أهل النار الذي فيه يعذّبون[٥].

ومستقر الشمس ظاهر في الموضع الذي تصله وتتوقف عن الحركة، ويبطل نظامها لتحقق الغاية والغرض منها، وذلك لا يكون إلّا في انقضاء الدنيا؛ لأن نظام الدنيا قائم على الشمس، وإذا انتهى أمد السبب انتهى أمد المسبب أيضاً، وهذا هو الظهور المستفاد من نص الآية، وتعززه شواهد:

---

(١) روح البيان: ج٧، ص٣٩٧.

(٢) انظر نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٦٦.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: ص٦٦٢، (قر)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٢٥، (قر).

(٤) انظر سورة الفرقان: الآية ٢٤.

(٥) انظر سورة الفرقان: الآية ٦٦.

الأول: قراءة العترة عليهم السلام التي أشارت إلى أنّ اللام فيها دالة على استمرار الحركة وعدم توقفها في يوم أو فصل أو مدار، فإذا استقرت خربت الدنيا وبطل النظام، وتبدل إلى نظام آخر يناسب عالم الآخرة.

الثاني: قوله تعالى: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾[١] أي ذهب ضوؤها ونورها[٢]، وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماوَاتُ وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾[٣] وتبدل السموات يبدل شمسها أيضاً.

الثالث: استظهار أكثر المفسرين له أولاً[٤]، واختلفوا في مستقرها هل هو زماني أو مكاني؟ فذهب إلى الأول بعض مفسرينا، والمراد به يوم القيامة[٥]، واستظهر البعض الثاني[٦] ولم يحدد معناه، ولعله يريد ساحة المحشر أو مكانها في الفلك، ولا تنافي بينهما للملازمة بين الزمان والمكان، على أن للمستقر معنى آخر سنتعرض له إن شاء الله تعالى، كما لا تنافي بين جميع الأقوال المذكورة؛ لأنها مثبتة لا نافية، فلو صدق عليها عنوان الجري والحركة أمكن القول بها، لكنها جميعاً تتفق على ثلاث حقائق هي:

---

(١) سورة التكوير: الآية ١.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٤.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٤٨.

(٤) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٤؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥٦؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٦٦.

(٥) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٤٤٩.

(٦) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص٦٦؛ روح البيان: ج٧، ص٤١٥.

أن الشمس في حركة دائبة، وأن لهذه الحركة غاية ومنتهى هو مستقرها، ولعل تنكير (مستقر) يشير إلى تعظيمه[1] الذي به نهايتها ونهاية نظامها الكوني.

وربما يقال إن للشمس نوعين من المستقر:

الأول: المستقر الحسي وهو الذي يشهده الناس في الحس كالمغرب الذي يفهمه العرف أنه ملجأ الشمس واستقرارها حتى تطلع ثانية في الصباح.

والثاني: المستقر الغيبي وهو يوم القيامة ويوم الظهور كما ستعرف، وإذا دار الأمر بينهما فإن الثاني هو الصحيح للظهور وللقاعدة في فهم دلالة القرآن، وهي كبرى كلية ينبغي أن تبحث في علوم القرآن أو التفسير في فهم الآيات المباركة، وهي أن الأصل في الدلالات القرآنية هو المعاني الحقيقية لا الاعتبارية ولا الاستظهارية.

وتوضيح ذلك: أن القرآن الكريم حيث يشير إلى قضية كحركة الشمس واستقرارها أو قضية الجنة والنار أو يوم القيامة وغيرها من الحقائق فهل هو يخاطب البشر على قدر فهمهم ومداركهم أم يشير إلى الحقائق الواقعية ويبينها بنحو يستطيع البشر أن يدرك بعضها لا كلها؟

وهذه قضية هامة وعميقة بها تحل الكثير من الاستفهامات في فهم معاني القرآن.

---

(١) التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٢١.

فمثلاً: قالت الآية: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا**﴾[1] وظاهرها يدل على أن حركة الشمس مستمرة لا توقف فيها ولا سكون حتى تصل إلى مستقرها.

لكن البشر يستظهر منها معنيين:

الأول: أن مستقرها هو المغرب؛ لأنه بحسب ظاهر الحال هو موضع استقرارها حتى تطلع في الصباح، فيكون الشروق مبدأ حركتها، وبه قال جمع من المفسرين.

الثاني: أن مستقرها هو موضع سكونها النهائي الذي لا حركة لها بعده، وهذا المعنى مستفاد من منطوق الآية ولكن لا ندركه بالحس والوجدان.

فما هو المعنى المراد؟ لا يمكن أن يراد الأول؛ لأن المغرب لا تستقر فيه الشمس بل هي في حركة مستمرة، فلابد وأن يراد الثاني، وهو ما تقتضيه القواعد العقلية والعلمية من جهتين:

الأولى: أن القرآن كتاب تعليم وتربية وهو يقتضي بيان الواقعيات والحقائق الأصلية، ويفهم منها البشر ما يفهم، وما لا يفهمه يرجع إلى المعصوم عليه السلام لأجل فهمه في وقته المناسب.

الثانية: أن الأصل في كلمات الحكيم هو الحمل على المعاني الحقيقية لا المعاني المتصورة أو المتوهمة.

فالقرآن وإن كان في ألفاظه ومنطوقه يحاكي عقول البشر ويكلمهم بحسب ما يفهمون ولكنه كشف عن الحقائق والواقعيات، فينبغي ان تحمل

---

(١) سورة يس: الآية ٣٨.

ألفاظه على معانيها الظاهرة، فإن فهمها الناس كان بها، وإن لم يفهموها يقتصرون على ما يفهمون منها، ويوكلون الباقي إلى النصوص المفسرة، وإلّا اوكلوها إلى أهلها وزمانها.

وتفسير الآيات المباركة بحملها على معان لا يساعد عليها المنطوق والدلالة اللفظية يكون من التفسير بالرأي ومخالفة الواقع.

والنتيجة المستفادة من ذلك: أن حركة الشمس دؤوبة لا استقرار لها في الزمان والمكان، ولا تستقر إلّا في مستقر أبدي هو المستقر الغيبي وله مصداقان:

أحدهما: يوم الظهور المبارك.

وثانيهما: يوم القيامة.

وذلك كله ليس من نفسها، بل بتقدير عزيز عليم.

المفردة الرابعة: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

لاشك أن حركة الشمس تتم بإرادة الله سبحانه، ولكن الآية ذكرت مقومات الإرادة الثلاثة فما هي الدلالات المستفادة من التقدير والعزة والعلم؟

والجواب: أن التقدير مأخوذ من القدرة، ويتضمن وجود القدرة التي سخرت الشمس للحركة وخضوعها لنظام دقيق ومتوازن لا تحيد عنه ولا تضطرب، وبه تتحقق غاية الحركة ومصلحتها ومقدارها وكيفيتها، يقال: قدر الشيء أي بيّن مقداره، والقدير هو الفاعل لما يشاء وعلى قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً، ولذا لا يصح أن يوصف به إلّا الله تعالى، وتقدير الله سبحانه الأشياء يقع على نحوين:

أحدهما: إعطاء القدرة لها.

وثانيهما: أن يجعل القدرة على مقدار مخصوص تقتضيه الحكمة وتتحقق به غايته ومصلحته، وهو ما صرّح به أهل اللغة(١)، وإنّما عبرَّت الآية بالتقدير دون القدرة للإشارة إلى أنّ حركة الشمس لها قدرة ذاتية وتقدير في الحركة والغاية، فالتقدير يبطل عدة نظريات قالت بها جماعات عديدة: منها نظرية التعطيل التي قال بها اليهود؛ إذ عطلوا اليد الإلهية من الفعل وقالوا يد الله مغلولة، والمعتزلة من المسلمين إذ عطَّلوا الفعل الإلهي وقالوا بتفويضه للبشر، ونظرية الطبيعيين والملاحدة القائلة بنفي وجود الخالق، أو بنفي فعله وتأثيره في الأشياء، وأن حركة الأشياء وآثارها حدثت صدفة أو بالأسباب الطبيعية الأخرى، ونظرية الجبر التي قال بها أكثر العامة، فإن الآية نسبت الحركة إلى الشمس بالتقدير الإلهي، ومعناه إعطاء الشمس قوة الحركة واختيارها وغايتها فما بالك بالإنسان؟

والحق الذي تضافرت عليه الأدلة العقلية والنقلية هو أن الباري عز وجل قدَّر للأشياء وجودها وحركتها وخواصها وآثارها، وهداها إلى غايتها في نظام متقن، ولا زال يفيض عليها القدرة والهداية، فهي تتحرك من ذاتها واختيارها بأمر الله وإذنه وتقديره.

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٢١، (٤٧١)؛ ص٤٢٢، (١٧٠٠)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٥٨، (قدر)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٥١، (قدر)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧١٨، (قدر).

فالأشياء في نفسها عاجزة قاصرة معدومة، ووجودها وقدرتها وحركتها من الله سبحانه لا من نفسها، ولذا قال (ذلك) أي حركة الشمس بتقدير العزيز العليم، وربما يعود (ذلك) على كل ما تقدم من آيات الليل والنهار وخلق الأنفس والأزواج ونحوها.

ووصف العزة للإشارة إلى أنه قادر قاهر على كل شيء ولا يغلبه شيء منها[1]، فالأشياء كلها فقيرة إلى الله ومحتاجة إليه، وهو سبحانه غني عزيز منزَّه عن الحاجة والحركة والاستقرار فلا يحتاج إلى غيره، لا إلى موجود ربما يفرضه العقل من غير مخلوقاته فضلاً عن مخلوقاته، ومنه يتضح أن فائدة الشمس وأثر حركتها لا تعود للخالق سبحانه بل لمخلوقاته.

وحيث إن القدرة والعزة وحدهما لا يوافقان الحكمة بالضرورة؛ لإمكان انفكاكهما عن حسن التدبير وجب وصفه سبحانه بالعلم؛ لأن العلم هو الذي يعطي الأشياء حكمتها وفائدتها وغايتها، وهو الذي سخرها لمصالحها؛ إذ القدرة وحدها والعزة وحدها لا تنفيان امكان العبث مالم يقترنا بالعلم، والعليم صيغة مبالغة للإشارة إلى حقائق ثلاث:

الأولى: أن العلم هو الذي أعطى الشمس حركتها وغايتها.

والثانية: أنه ملازم لحركتها فلا ينفك عنها.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦٣، (عز)؛ معجم الفروق اللغوية: ص٣٥٧-٣٥٨، (١٤٤١)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٢٦، (عزز).

والثالثة: أن ذلك كله بعلمه فلا يخفى عليه شيء، وما دامت الأمور كلها بقدرته وتقديره وعلمه فلا مجال للتعطيل ولا للصدفة ولا الجبر في آن أو مكان أو حالة.

وهذا يفسر ما ذكرناه من أن للشمس حركة دائبة، ولها غاية ودافعاً ونظاماً متوازناً ودقيقاً وذلك كله لا يكون إلّا بقدرة وعلم وحكمة، ويستفاد من ذلك تعليم هام في فكرنا وعملنا، وهو أن الله سبحانه موجد القوانين والأنظمة فلا تغلبه قوانين ولا أنظمة، فلا ينبغي أن تكون الثقة إلّا به والتوكل إلّا عليه.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

تتضمن الآية المباركة لطائف عديدة نستعرض بعضها على التوالي:

اللطيفة الأولى: دلائل حركة الشمس

يستفاد من منطوق الآية ثلاث دلالات هامة لها أثرها البالغ في معارف البشر وحياتهم اليومية.

الأولى: أن الشمس متحركة، والجريان فيها يدل على أن حركتها طولية، فلها مكان وزمان وغاية وحياة، وهذا يصحح قول الحكماء القدماء إن الافلاك لها نفوس حية، وعدم دركنا لها لا ينفي وجودها، وإن الزمان أمر اعتباري ناشئ من حركة الأفلاك، بناءً على أن الشمس محور الأفلاك، أو هي منها مبدؤه الكون الأول في المكان الثاني، ولا ينفي ذلك أن يكون الزمان مخلوقاً للباري عز وجل بالملازمة؛ لأن خلق السبب خلق لآثاره بالتبع.

الثانية: بطلان النظرية القديمة القائلة بأن الشمس ثابتة والأرض تدور حولها.

الثالثة: أن حركة الشمس التي تكبر حجم الأرض بما يعادل مليوناً ومائتي ألف مرة وفي نظام دقيق ومتوازن وغير متناه ليست مقدورة إلّا لله سبحانه الذي قدرته غير محدودة، وعلمه غير متناه، ولذا ستكون الشمس

من علائم ظهور حجة الله سبحانه في آخر الزمان؛ لأنها من العظمة والقوة والقهر بحيث تعجز عن التصرف فيها العلوم البشرية مهما تطورت، وعلامته طلوع الشمس من المغرب كما في بعض الأخبار المعتبرة[١].

وهذا تغيير تكويني كبير لا تقوم له علوم البشر وقدراتهم، ولذا قال بعض أصحابنا بأن الآية المحكمة القطعية التي ستقع وتعجز جميع الخلق هو طلوع الشمس من المغرب[٢]، وفي عين الحال هي قضية مشهورة لا تقبل التلاعب والنكران، فتكون حجة على جميع الخلق في صدق الظاهر والظهور.

الرابعة: أن للزمان نظاماً شمسياً يقوم على حركة الشمس عبر أبراجها المختلفة، ولكل برج آثاره وخواصه على حياة الناس، كما أن للقمر سنة قمرية، وله أبراج وآثار وخواص ستأتي الإشارة إليه.

وقد ذكر أن قدماء المصريين في معابدهم أدركوا أن للشمس مطلعاً عاماً هو الشرق، وهذا المطلع يقسم إلى مطالع بعدد أيام السنة، وكانوا يحسبونها بدقة، ويجعلون في المعبد (٣٦٥) مطلعاً وطاقة تشرق الشمس كل يوم من واحد منها بالترتيب حتى تصل آخرها في نهاية السنة[٣].

ولذلك دراسات وأبحاث في علم الهيئة والفلك نوكلها لمحلها[٤].

---

(١) الغيبة (للطوسي): ص٤٣٥-٤٣٦، ح٤٢٥ - ٤٢٦.

(٢) انظر كتاب الأوائل: ص٦٠.

(٣) انظر تفسير الشعراوي: ج١٧، ص٢٣٣-٢٣٤، (بتصرف).

(٤) انظر تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٣٧؛ الموسوعة العلمية القرآنية (للدكتور لبيب بيضون): ج٣، ص٣٤٠-٣٤٢.

اللطيفة الثانية: الشمس كائن حي مختار

أشارت الآية المباركة إلى أن الشمس كائن حي له إدراك واختيار وغاية، وهذه النتيجة تتوافق مع مضامين بعض الروايات الواردة بطرق الفريقين بهذا الشأن، وتدفع الغرابة عنها.

منها: ما رواه الصدوق قدس سره في كتاب التوحيد باسناده إلى أبي ذر الغفاري عليه رضوان الله قال: كنت آخذاً بيد النبي صلى الله عليه وآله ونحن نتماشى جميعاً، فما زلنا ننظر إلى الشمس حتى غابت، فقلت: يا رسول الله! أين تغيب؟ قال: «في السماء، ثم ترفع من سماء إلى سماء حتى ترفع إلى السماء السابعة العليا حتى تكون تحت العرش، فتخر ساجدة فتسجد معها الملائكة الموكّلون بها، ثم تقول: يا ربّ من أين تأمرني أن أطلع أمن مغربي أم من مطلعي؟ فذلك قوله عزّ وجل: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[(١)] يعني بذلك صنع الرب العزيز في ملكه العليم بخلقه.

قال: فيأتيها جبرئيل بحلّة ضوء من نور العرش على مقادير ساعات النهار في طوله في الصيف، أو قصره في الشتاء، أو ما بين ذلك في الخريف والربيع. **قال:** فتلبس تلك الحلة كما يلبس أحدكم ثيابه، ثم تنطلق بها في جو السماء حتى تطلع من مطلعها.

قال النبي صلى الله عليه وآله: «فكأني بها قد حبست مقدار ثلاث ليال ثم لا تكسى ضوءاً، وتؤمر أن تطلع من مغربها، فذلك قوله عز وجل: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ**

---

(١) سورة يس: الآية ٣٨.

كُوِّرَتْ۝وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ ﴾ إلى آخر الرواية[١] وقد تضافر هذا المضمون في روايات كثيرة بما يحقق التواتر المعنوي. أما الرواية المذكورة فقد تضمنت دلالات هامة:

الأولى: أن حركة الشمس دائبة ومستمرة في السماوات، ومستقرها يكون تحت العرش وليس بالضرورة أن تكون حركتها مكانية، بل قد تكون معنوية حتى تصل إلى العرش فتخر ساجدة؛ لذا تحظى بصلاحية الدعاء وسؤال الباري عن مطلعها.

أو تكون حركتها مكانية يعجز البشر عن إدراكها؛ لقصور العلم أو الأدوات، ولعل في مستقبل الأيام سيتوصل إلى هذه الحقيقة، فعدم فهم البشر لها أو قصور العلم عن دركها لا يجيز نفيها أو إنكارها كالكثير من الحقائق التي كانت مجهولة وينكرها ذوو العقول القاصرة ثم يؤكدها العلم ويثبت صدقها بعد حين، ويكفينا للتصديق هنا إخبار الصادق المعصوم بها، فإنه يجب التصديق وحملها على الحقيقة، والتصديق لا يتوقف على الإحاطة والإدراك العلمي لها، وهذه باتت من الواضحات في هذا الزمان.

الثانية: أن الشمس لها سجود تحت العرش، وسجودها اختياري تؤدي به رسوم العبودية، وكيفية السجود مجهولة لنا، ولعل استقرارها سجودها،

---

(١) التوحيد: ص٢٨٠، ح٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥٦ ـ ٥٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٧٤، ح٤٧.

ولعل المراد بالعرش مظهر القدرة الإلهية والسجود يعني الخضوع كما هو معناه اللغوي.

والمعنى أنها تستقر وتخضع للقدرة الإلهية إلّا أن سجود الملائكة معها ينفي هذا الاحتمال، وظاهر اللفظ أن السجود حقيقي وإن كنا لا نفهمه، وهو من قبيل التسبيح الذي تفعله كل الأشياء ولا نفقهه؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[١].

هذا واحتمل بعض المفسرين أن للشمس نفساً قدسية كالنفس الإنسانية، وأنها تنسلخ عن جرم الشمس مع بقاء تعلق لها به فتعرج إلى العرش، فتسجد تحته بلا واسطة، وتستقر هناك وتستأذن، وقربه بقدرة بعض أهل النفوس القدسية بخلع نفوسهم عن أبدانهم، وتصورها بصور متعددة، وعلى هذا حملت بعض الروايات التي تشهد برؤية بعض الأنبياء والأولياء بعد رحلتهم من الدنيا، وفي رؤية النبيﷺ في معراجه لبعض الأنبياء، وبه وجّه قول أهل الحكمة بإمكان شغل النفس أكثر من بدن[٢].

وفي البحار نقل المجلسيؒ عن البعض القول بأن للزمان المادي زماناً مجرداً كالنفس للجسد، وللمكان المادي مكاناً مجرداً، وهما عارضان للمجردات، ولا يمكن فهمه، وخارج عن طور العقل[٣]، وإذا كان

(١) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٢) انظر روح المعاني: ج٢٣، ص٢٠ـ٢١.

(٣) البحار: ج٥٤، ص٨– ٩؛ سفينة النجاة: ج٨، ص٧٧١، (يوم).

للزمان والمكان نفس مجردة كان غيرهما كذلك، والكلام في ذلك مفصل لا يسعه المجال هنا.

الثالثة: أن حركة الشمس واستقرارها وطلوعها وغروبها باختيارها وليس بالجبر التكويني؛ لذا قالت: (من أين تأمرني أن أطلع من مغربي أم من مطلعي) وهذا شاهد على أن إطاعتها لله سبحانه اختيارية، ولازم ذلك ان تملك السلطة على العدم، ولعل هذا يفسر وقوع الآيات الكونية، وذلك حينما يقع منها تخلف أو عدم خضوع تام للأوامر المولوية يختل نظامها فيحدث الكسوف والخسوف والزلزلة ونحوها، وذلك قد يكون أوضح في الآيات التي تفاجئ الناس ولم يدركها العلم ولا يعرف أسبابها، ولعل من هنا أمرنا بصلاة الآيات لدى حدوثها، واللجوء إلى الطاعة والاستغفار.

وباختصار: قد تكون بعض الآيات الكونية في الشمس والقمر والأرض والسيول والرياح ناشئة من تمردها أحياناً على الأوامر، وقد أمر الناس بالصلاة والاستغفار طلباً للعفو وإعادة الأمور إلى نصابها، وهذا بحث عميق أشارت إليه الرواية، ويحتاج إلى مزيد من التدبر والتحليل والبرهنة.

الرابعة: أن قول الشمس (من أين تأمرني أن أطلع من مغربي أم مطلعي)[١] صريح في انتظار الشمس لعصر الظهور المبارك؛ لأن في هذا العصر الشريف تطلع الشمس من المغرب، وفي ذلك دلالة عميقة على أن

(١) التوحيد: ص٢٨٠، ح٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥٦-٥٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٦، ص١٧٤، ح٤٧.

الأشياء طرّاً تنتظر الظهور العظيم، فإن الشمس هي محور الموجودات المادية، فإذا كانت منتظرة كانت جميعها منتظرة، ولعل السبب في ذلك يعود لأمور:

أحدها: أن في ذاك العصر يسود العدل الإلهي في الوجود، فكل موجود يصل إلى غايته، وتظهر آثار الرحمة والبركة فيه.

ثانيها: لأن في ذلك العصر يعم الرضا الإلهي على الخلق، ويكون الجميع في طريق الطاعة، وهذه غاية المخلوقات.

ثالثها: لأن في ذاك العصر ينتقم الله سبحانه من أعدائه وأعداء أوليائه، وتظهر عزة الولاية ونورانيتها، وتفتضح ظلمة الكفر والجحود، والكائنات جميعاً كما تؤمن وتطيع فإنها توالي أولياء الله، وتعادي أعداءهم، ولذا بكت الكائنات على الحسينعليه السلام، ولعنت قاتله، وناحته كل بطريقتها وبأسلوبها.

رابعها: لأن بالظهور المبارك تستقر الأشياء وتسكن لحكومة أولياء الله، وتلتذ بعدلهم بعد أن تألمت وتفجعت بظلم البشر.

الخامسة: أن النبي المصطفىصلى الله عليه وآله أشار إلى أن الباري يقدِّر للشمس طلوعها من مطلعها، ويكسيها من نور العرش ويفيض عليها النور بعدد ساعات النهار، وهذا يؤكد ما تقدم من أن الشمس مجلى نور الله سبحانه، وأنها واسطة الفيض للنور المادي على الكون، فتكون حركتها ونورها ﴿**بتَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ فإذا قدر لها أن تطلع من المغرب إعداداً للظهور المبارك يحبسها مقدار ثلاث ليال حتى تطلع، ولعله قال: (ثلاث ليال) وليس (أياماً) لأن عدم طلوع الشمس يوجب حلول الليل على الوجود.

وقد وردت روايات عديدة بطرق العامة تؤكد ذلك، وأقرّ بعض مفسريهم بالعجز عن الجمع الدلالي بين مفاد الروايات، وما يشهد بالحس من أن الشمس باقية في فلكها لا صعود لها ولا سجود، وقال قد سألت الكثير من أجلّة المعاصرين عنها فلم أوفق للحل[١]، ثم ذكر وجهاً للجمع.

اللطيفة الثالثة: كل شيء حي ناطق

إن حركة الشمس وحياتها ونطقها التي أشارت إليها هذه الآية تعززها الكثير من الآيات القرآنية التي أكّدت أن كل شيء في الوجود حي مختار وناطق حتى الجمادات، والشواهد على ذلك كثيرة أذكر مثالين منها.

المثال الأول: الأرض، فإن القرآن الكريم يشهد لها بأنها حية مدركة وناطقة، ولذلك يوحى إليها، وتتحدث عن الوقائع التي تحدث على ظهرها، وعن الودائع التي تدفن فيها. قال تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾[٢].

ومعنى تحديثها أن تخبر بما عمل عليها كما ذكروا، وبه وردت الروايات، فقد روي عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله أنه قال لأصحابه: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد

---

(١) انظر روح المعاني: ج٢٣، ص١٩.

(٢) سورة الزلزلة: الآيات ١-٤.

بما عمل على ظهرها. تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، وهذه أخبارها﴾[١]. وقد حمل ذلك بعض المفسرين على ثلاثة معان:

الأول: أن يحدث الباري عز وجل الكلام منها كما في شجرة موسى عليه السلام، وإنما نسب الكلام إلى الأرض توسعاً ومجازاً.

الثاني: أن يخلق فيها الحياة يوم القيامة، ويجعلها قادرة على النطق.

الثالث: أن يظهر فيها ما يقوم مقام الكلام، فعبر عنه بالكلام؛ لاشتراكه في الأثر أي البيان والإفهام، كما يقال: عيناك تشهدان بسهرك، ولونك يحكي عن خوفك[٢].

وحكاية الأرض إلقاء ما في جوفها على ظهرها من الأموات والكنوز والمعادن وغيرها من الودائع، فيعود كل إلى أهله، فالأموات للحساب، والأموال إلى مالكها الحق؛ إذ ينادى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، والكل على خلاف الظهور بل والأدلة العقلية والنقلية، فإن الآية صريحة في أن الأرض حية منذ تكوينها تدرك ما يجري عليها وما يودع فيها، وتخبر عن ذلك حينما تسأل، والأصل يقضي حمل الألفاظ على المعاني الحقيقية إلّا في صورتين.

أحداهما: وجود دليل على المعنى المجازي.

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤١٩.

(٢) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٤١٩.

ثانيتهما: وجود مانع من الحمل على المعنى الحقيقي، فإذا انتفت الصورتان وجب الحمل على المعنى الحقيقي كما فيما نحن فيه، والروايات الواردة – بطرق الفريقين – في معناها شاهدة عليها كما مر عليك.

وفي مجمع البيان: قال رسول الله ﷺ: ﴿حافظوا على الوضوء، وخير أعمالكم الصلاة، وتحفظوا من الأرض فإنها أمكم وليس فيها أحد يعمل خيراً أو شراً إلّا وهي مخبرة به﴾[1] ومناسبة الحكم والموضوع قرينة على أن التحفظ من الأرض يقع بعدم العصيان عليها؛ لأن معاصي أهل الأرض تغيظها، ولذا قال: ﴿فإنّها أمكم﴾ ليشير إلى وجوب الحرص على عدم العصيان عليها وإغاظتها، كما يجب الحرص على عدم إغاظة الأم.

وقال أبو سعيد الخدري: إذا كنت بالبوادي فارفع صوتك بالأذان، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿لا يسمعه جن ولا إنس ولا حجر إلّا يشهد له﴾[2] وسماع الحجر وشهادته لا يكون لو لم يكن حياً مدركاً وعارفاً حتى بالاشخاص واصواتهم وكذلك الارض والشمس على ما تقدم تفصيله.

وظاهر الشهادة أنها اختيارية ومن فِعْلِهِ لا أن يخلق الباري فيه الصوت أو يجعله حياً ثم يشهد، وهو ما يقضي به البرهان، فإن الأرض والشمس

(١) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص٤١٩؛ البحار: ج٧، ص٩٧.

(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤١٩؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٦٠٤ ـ ٦٠٥.

وسائر المخلوقات آثار الخالق الحي العالم، وهي مجلى بعض كمالاته وصفاته على اختلاف مراتبها، فلابد وأن تتجلى فيها الحياة والعلم وإن قصرت عنها أفهامنا، والحمل على خلاف ذلك فيه إشكالان:

الأول: حمل اللفظ على المجاز وهو يفتقر إلى قرينة.

والثاني: يستدعي إلغاء المعاني الحقيقية في الأشباه والنظائر وهو ممتنع.

نعم كل ذلك يحدث بإذن الله وإرادته كما أن الشمس تجري لمستقر لها بتقدير العزيز العليم، ولذا قال: ﴿**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا**﴾[1] واللام في (لها) بمعنى إلى وقيل الباء سببية، والمعنى أنها تخبر بسبب وحي الله سبحانه لها بالحديث والإخبار، واختلفوا في معنى الوحي فقالوا: الوحي هو الإلهام بالخبر والإخبار، وقيل: هو الإلقاء إليها من جهة تخفى[2]، وقيل: هو الإذن الخاص[3]، والمآل واحد، ولعل الثاني هو المعنى الجامع، والكل يتفق على أن الأرض حية تدرك الوحي وتتكلم وتشهد، وهذا هو المعنى المستحصل من منطوق الآيات الكريمة.

---

(١) سورة الزلزلة: الآية ٥.

(٢) مجمع البحرين: ج١، ص٤٣٠ ـ ٤٣١، (وحى)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٥٩، (وحى).

(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٤١٩؛ تفسير الامثل: ج٢٠، ص٢٩٤ـ٢٩٥؛ روح المعاني: ج٢٣، ص٦٠٤ـ ٦٠٥.

المثال الثاني: الجبال، فإن الباري عز وجل أمرها بأن تسبّح وتردد على تسبيح وتهليل داودعليه السلام؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[(١)] وهي نص في أمور:

الأول: أن الأمر الإلهي يتوجه إلى الجبال، وإذا تعلق بها الأمر تعلق النهي لوحدة الملاك والضابطة.

الثاني: أن فعل التأويب والتسبيح منسوب إلى الجبال وهو صريح في النطق، وقد ورد في الأخبار أن داودعليه السلام كان إذا مر في البراري يقرأ الزبور تسبح الجبال والطيور والوحوش معه[(٢)].

الثالث: أن ضمير المخاطب في أوّبي هو ضمير العاقل، وذلك كله شاهد على حياتها وإدراكها واختيارها في الفعل والنطق، وفي آية أخرى ذكر تسبيح الجبال معهعليه السلام في وقتي العشاء والإشراق؛ إذ قال سبحانه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾[(٣)] وفيها دلالة على أن الجبال يعرفن الأوقات، والتسخير بقرينة يسبحن تشريعي يكون بفعل منها، وفيها إشارة لطيفة إلى أن ذلك مستمر ومتواصل مع أولياء الله، فكلما سبّحوا وذكروا الله سبحانه سبّحت معهم، ولذا قال: ﴿مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ وهذا ما

---

(١) سورة سبأ: الآية ١٠.

(٢) تفسير كنز الدقائق: ج١٠، ص٤٧١؛ تفسير القمي: ج٢، ص١٩٩.

(٣) سورة ص: الآية ١٨.

تضافر في رواياتنا، وأن ما نسب إلى داود وسليمان عليهما السلام ثبت للنبي والعترة عليهم السلام بما هو أفضل منه.

ففي كتاب المناقب عن سعيد بن المسيّب كان الناس لا يخرجون إلى مكة - أي للحج - حتى يخرج علي بن الحسين عليه السلام، فخرج وخرجت معه، فنزل في بعض المنازل فصلّى ركعتين فسبّح في سجوده فلم يبق شجر ولا مدر إلّا سبحوا معه، ففزعت منه، فرفع رأسه فقال: «يا سعيد أفزعت؟» قلت: نعم يا ابن رسول الله، فقال: «هذا التسبيح الأعظم»(١) وفي رواية أخرى عنه قال: فوالذي نفس سعيد بيده لقد رأيت الشجر والمدر والرحل والراحلة يردّون عليه مثل كلامه(٢).

ولعل وصف التسبيح بالأعظم للإشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن هذا إشارة إلى التسبيح، والمعنى أن ماذكره في سجوده هو التسبيح الذي يفوق غيره.

ثانيهما: أنه إشارة إلى أثر التسبيح وهو نطق الشجر والمدر معه، ووصفه بالأعظم لأنه الذي يلازمه الأثر في مقابل التسبيح اللفظي.

وقد تضافر عن النبي والأئمة عليهم السلام أن كل شيء كان يسبح معهم(٣).

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج٣، ص٢٧٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر الكافي: ج١، ص٤٤٢، ح١١.

وفي كتاب الاحتجاج روى عن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي عليه السلام قال: ﴿إن يهودياً من يهود الشام وأحبارهم قال لأمير المؤمنين عليه السلام: هذا داود بكى على خطيئته حتى سارت معه الجبال لخوفه - كناية عن ظهور آيات ومعاجز على يده يقصد بها الغلبة على نبي الإسلام - فأجابه عليه السلام بجواب مفصَّل حتى قال:

ولئن سارت الجبال وسبّحت معه لقد عُمِل بمحمد صلى الله عليه وآله ما هو أفضل من هذا؛ إذ كنّا معه على جبل حراء إذ تحرك الجبل فقال له: قرّ فإنه ليس عليك إلّا نبي أو صدّيق شهيد، فقرَّ الجبل مجيباً لأمره، ومنتهياً إلى طاعته، ولقد مررنا معه بجبل وإذا الدموع تخرج من بعضه، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: ما يبكيك يا جبل؟

فقال: يا رسول الله! كان المسيح مرّ بي وهو يخوّف الناس من نار وقودها الناس والحجارة، وأنا أخاف أن أكون من تلك الحجارة. قال له: لا تخف تلك الحجارة الكبريت فقرَّ الجبل وسكن وهدأ وأجاب لقوله﴾[(١)].

هذا كله في الجماد، وأما تكلم الحيوان وإدراكه ونطقه فأمر جلي ظاهر شهد به النقل والعقل والتجربة والعلم، ومن مجموع هذه الشواهد يخبرنا من خلق الأشياء وأوجدها تبارك وتعالى أن الموجودات حية مدركة وناطقة، وأنها تتجاوب مع أولياء الله وحججه، وتسبح معهم، فيجب تصديقه والإيمان به وترتيب الأثر عليه.

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٣٢٦.

كمال الدين وقصور العلم

ولا ينبغي أن يستغرب البعض من ذلك؛ لأنهم لا يدركونها بالحس، فإن ذلك خروج عن المعرفة في نهجيها العلمي والعقلي؛ لأن الواقع والعلم يقرّان بوجود الكثير من الأشياء التي آثارها وخواصها لا تدرك بالحس، كما يقرّان بقصور العلم عن إدراك الكثير من الحقائق، وفي كل يوم تطالعنا الدراسات باكتشافات جديدة كانت مجهولة أو منكورة، وبعضها كانت تشكل حقائق علمية فبان خطؤها، والمكتشفات الحديثة تقرب هذه الحقيقة الغيبية إلى الحس، فإن أجهزة التواصل كالهاتف المحمول ينقل ويستقبل الأصوات والصور، ويحدد المواقع الجغرافية، وينقل الكلام بذاته دون تصرف وبلا توسيط ظاهر محسوس.

والأجهزة الصغيرة تحفظ أفلاماً ومعلومات وأصواتاً وكلمات بالمليارات، وتحفظها بحذافيرها دون تغيير، وذلك كله شاهد على وجود قابلية الحياة والإدراك والحفظ والنطق في الأشياء التي نتصورها جامدة وميتة.

فإنكار هذه الحقائق التي تحدَّث عنها القرآن والسنة خروج عن نهج العلم والعقل، بل يجب تصديقها والإيمان بها وإن كنا لا ندركها؛ لأن عدم الدرك ناشئ من قصور المدرِك لا استحالة المدرَك.

وبذلك يتضح المعنى في طوائف كثيرة من الروايات التي كان يستبعد مضامينها بعض القاصرين عن ذلك، وينكرونها أو يكذبونها ويتهمون التعاليم الدينية بالبعد عن الواقع.

منها: الروايات التي تحدثت عن النبات والثمار والمعادن وأنها تدرك وتعقل وتؤمن، وبعضها تحب أولياء الله وتبغض أعداءه، وبعضها بالعكس، وأن خصائصها وآثارها وطعومها تعود إلى ذلك.

ومنها: الروايات الواردة في بعض الأدعية التي يخاطب بها العبد الهلال حينما يراه، ويسأل الله أن يجعله هلال يمن وخير وبركة(١).

ومنها: الروايات التي تحدثت عن أفضلية بعض الأراضي، وكذا أفضلية بعض الأحجار الكريمة وقدسيتها؛ لأنها آمنت بالله ووحدته، ووالت أولياء الله(٢).

ومنها: الروايات التي تحدثت عن الأيام والساعات، وأن الأيام تتحدث وتنطق، وفي بعض الأخبار أن كل يوم جديد يخاطب ابن آدم ويقول له: أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فقل فيَّ خيراً، واعمل فيَّ خيراً أشهد لك به يوم القيامة(٣).

إلى غير ذلك من الروايات التي تضمنت حقائق غيبية لا يدركها الحس العادي إلّا أن الله وأولياءه يخبرون عن حياته ودركه ونطقه وايمانه وكفره،

---

(١) انظر البحار: ج٩٣، ص٣٨٣؛ كتاب الدعاء: ص٢٨٢، وفيه: ((أن النبيصَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ كان إذا رأى الهلال قال: اللهم اجعله هلال يمن وبركة)).

(٢) انظر مكارم الأخلاق: ص٩٥.

(٣) الكافي: ج٢، ص٥٢٣، ح٨؛ الأمالي (للصدوق): ص١٦٩، ح١٦٨؛ البحار: ج٦٨، ص١٨١، ح٣٥.

وفي ذلك تعليم هام لنا يرشدنا إلى أن الدين أوسع من مداركنا، وتعاليمه أكبر من عقولنا، فلا ينبغي أن نجعل عقولنا وحواسنا مدار الحقيقة.

اللطيفة الرابعة: النبي والإمام شمسان للقلوب والبصائر

أن الآية المباركة دلت على أن الشمس المادية لها حركة دؤوبة إلى مستقر قدّره العزيز العليم، وعلى هذه الشمس تقوم الأرض ومن عليها، فحياة النبات متقوّمة بالشمس، وكذلك حياة الحيوان والإنسان، بل حتى العمران والمدنية والحضارة لولا حركة الشمس لما قامت؛ لأنه لولا حركة الشمس لكان الوقت كله نهاراً، أو تغيب دائماً فيكون كله ليلاً، وفي الأول يتعب الناس ويكلون، وربما تعمى عيونهم وتتحطم أبدانهم، وفي الثاني يصابون بالخمول والكسل؛ لأن النهار مجعول للنشور والليل للسبات، فعمارة الأرض وإصلاحها وإصلاح الإنسان وتطوره وارتقاؤه وتحضّره يتوقف على الشمس ذاتاً وحركة.

وأيضاً لولا حركة الشمس لكان الوقت إما كله صيفاً حارقاً فيتلف جميع ما يقوِّم الحياة من طعام وشراب، أو كله شتاء بارداً فتتجمد الأشياء ويتعذر استثمارها.

ونستنتج من ذلك أن الحياة المادية للبشر في أصلها وفي تفاصيلها تقوم على الشمس، فلولا الشمس فنت وتحطمت، والحياة المعنوية للبشر كذلك في أصلها وفي رقيها و تطورها تقوِّمها شمس أخرى تشابه هذه الشمس المادية في الأثر، وتختلف معها في الذات، هي الشمس المعنوية، وتتجسد في

النبي والإمام عليهما السلام، فإن بهما تتقوّم العقول والقلوب والأرواح، وتكتمل الحياة الإنسانية وترتقي.

فمثل النبي والإمام في الوجود كمثل الشمس في السماء، فكل نفع وفائدة وأثر وحياة وتطور وتحضّر يقوم عليها، وهذا مايشهد له العقل والوجدان، وله في الآيات والروايات شواهد كثيرة أذكر منها شاهدين:

الشاهد الأول: قوله تعالى: في وصف النبي المصطفى صلى الله عليه وآله بانه سراج منير اذ قال سبحانه: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً**﴾[١] وفي آيات أخرى وصف الشمس بالسراج إذ قال سبحانه: ﴿**وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً**﴾[٢] وبالجمع بين الآيتين يستفاد ان الشمس من أوصاف النبي صلى الله عليه وآله، والسراج يعبَّر به عن كل مضيء[٣]، وهو مادي ومعنوي، فكما أن العيون تستنير بنور السراج فإن البصائر تستنير بنور النبي صلى الله عليه وآله[٤]، وكما أن الناس ينتفعون بالشمس ينتفعون برسول الله صلى الله عليه وآله والامام عليه السلام، ووصفه بالمنير للإشارة إلى أن نفعه لا ينحصر بالهداية والتبشير والإنذار، بل نفعه عام ومستمر، وإنما نفعه مستمر في كل زمان ومكان، ولا تفترق حياته وموته، ولكن في وصف الشمس قال بأنّها

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ٤٥-٤٦.

(٢) سورة نوح: الآية١٦.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٠٦، (سرج).

(٤) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٠٩، (سرج).

سراج ولم يقل منيرة؛ لأن الشمس قد تنحجب إلّا أن نور النبي لا ينحجب، والشمس تستقر وتنطفي إلّا أن شمس النبي مستمرة في الدنيا والبرزخ والآخرة، ووجوده خير وبركة ونفع.

كيف تشرق الأرض بنور الإمام عليه السلام؟

الشاهد الثاني: الروايات العديدة التي أولَّت الشمس بالنبي والإمام عليهما السلام.

منها: ما روي في تأويل الآيات بسنده عن سليمان الديلمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**﴾ قال: ﴿الشمس رسول الله صلى الله عليه وآله أوضح للناس دينهم﴾ قلت: ﴿**وَالْقَمَرِ إذا تَلاَهَا**﴾ قال: ﴿ذاك أمير المؤمنين عليه السلام تلا رسول الله صلى الله عليه وآله. قلت: ﴿**وَالنَّهَارِ إذا جَلاَّهَا**﴾ يعني به القائم عليه السلام ﴾.

قلت: ﴿**وَاللَّيْلِ إذا يَغْشَاهَا**﴾ قال: ﴿ذاك أئمة الجور الذين استبدوا بالأمور دون آل الرسول، وجلسوا مجلساً كان آل الرسول أولى به منهم، فغشوا دين الله بالجور والظلم، فحكى الله سبحانه فعلهم فقال: ﴿**وَاللَّيْلِ إذا يَغْشَاهَا**﴾ ﴾[1] وفي بعض الروايات وصف أمير المؤمنين عليه السلام بالقمر والحسن والحسين بالنهار[2]، وهذا يدل على وحدة الصفات والخصوصيات بينهم.

---

(١) انظر تأويل الآيات: ج٢، ص٨٠٥، ح٣.

(٢) انظر تأويل الايات: ج٢، ص٨٠٦، ح٦.

ولعل الرواية الأولى وصفت حجة الزمان بالنهار الجلي بينما الشمس والقمر برسول الله والوصي بالحق يعود إلى أمور:

أحدها: أنه عليه السلام مما لا يختلف عليه أحد من أهل الأديان والمذاهب، فالجميع يؤمنون بوجود إمام إلهي تذعن له الدنيا وما فيها يبسط في الخلق القسط والعدل، ويفني الظلم والجور، حتى الذين لا يؤمنون بالأديان يؤمنون بلا بدية وجود منقذ خارق ينجي العالم مما هو فيه، ولو وقع اختلاف بينهم ففي بعض الصفات والخصوصيات، وهذه العقيدة لم تتفق إلّا فيه، فإن الناس اختلفوا في رسول الله وفي أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام ولازالوا مختلفين، لكنهم فيه عجل الله تعالى فرجه متفقون.

ثانيها: أن عصره هو عصر الظهور الذي لا غموض فيه، والحق الذي لا لبس فيه، والعدل الذي لا غشاوة تعتريه، ففيه يبين كل شيء وينقطع دابر الكفر والنفاق والظلم والفساد؛ لذا ناسب أن يوصف بالنهار؛ لأنه أوضح من الشمس والقمر؛ إذ يمكن أن يحجب الشمس والقمر ولا يراها الناس كما ينبغي أن يكون.

ثالثها: أن النهار يجلي الشمس ويظهرها، والمعنى أنه عليه السلام بنوره ووجوده وفعله وسياسته يظهر عظمة النبي وشخصيته، ويجلي حقائق دينه وسمو غاياته والفتوحات العلمية والمعنوية التي جاء بها النبي وخفيت على الناس بسبب ظلمهم وجورهم، ففي ذاك الزمان سيعرف مقام النبي ومكانته، ولعل الروايات التي نصت على أنه يسير بسيرة جده تشير إلى ذلك.

والتجلية لشخصية النبي ودينه تتم بطريقين:

الأول: التجلية النظرية بواسطة الحديث عنه وبيان صفاته وفضائله وسيرته وسنته، فيكون التعريف والإظهار نظرياً.

الثاني: التجلية العلمية، أي يطبق دين النبي وأحكامه وشريعته ولم يبق منها حكم إلّا نفذ في جميع الأبعاد، والكمالات الحقيقية تظهر في التطبيق أكثر مما تظهر في الشرح والنظر، ولذا ورد في الأخبار الشريفة أنه يعمل بسيرة النبي ويظهرها للوجود، كما ورد أن التعليم بواسطة العمل أفضل من التعليم بالقول.

ويتلخص من ذلك: أن الخلق كما يحتاجون إلى الشمس لأجل حياتهم المادية يحتاجون إلى الشمس المعنوية لأجل حياتهم الروحية والعقلية والقلبية، فلو انتهت الشمس انتهت الحياة المادية، ولو رفع الله سبحانه الحجة عن الأرض ساخت بأهلها، وضل الخلق الطريق، وهذا يوضح لنا عدة طوائف من الروايات الهامة:

الأولى: الطائفة التي نصت على أن الأرض لابد لها من إمام به يهتدي المهتدون.

الثانية: الروايات التي نصت على أن الحجة قبل الخليقة ومع الخليقة وبعدها؛ لأن الخلق بلا حجة يفنون في حياتهم المعنوية فيفنون في حياتهم المادية أيضاً لتوقف الثانية على الأولى.

الثالثة: الروايات التي نصت على أن الخلق ينتفعون بالإمام عليه السلام وإن غاب عن أنظارهم، فإن الغيبة عن الأنظار لا تمنع النفع والانتفاع؛ لأن

النفع يدور مدار الوجود لا الرؤية، فكما أن الشمس لو غابت عن الأنظار يبقى أثرها ونفعها، والجاذبية أثرها باق وإن لم ترها العيون، فكذلك الإمام عليه السلام، والبحث في هذا مفصَّل نوكله لوقته.

الرابعة: الروايات التي نصت على أن الناس في آخر الزمان يستغنون عن الشمس لأنها تصل إلى مستقرها ويستضيئون بنور الإمام عليه السلام، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾(١) ونلاحظ أن الإشراق نسب إلى الأرض نسبة ذاتية، أي ذاتها تكون مشرقة لا بالشمس، وتضافرت الأخبار في أن إشراقها يكون بنور الإمام عليه السلام، وهو يحتمل معاني:

الأول: أن النور الذي سيأتي به الإمام هو العلوم والمعارف فيغني عن ضوء الشمس، كما أن الطاقة الكهربائية تغني عن ضوئها.

الثاني: أن النفع الذي يأتي به الإمام للناس يغنيهم عن نفع الشمس؛ لأن الأرض ستظهر خيراتها وبركاتها بوجوده عليه السلام، فكل شيء في زمانه يظهر نفعه ولا يكون له ضرر وإضرار كما تشير إليه بعض الروايات(٢).

الثالث: أن مصدر النور يكون من الإمام عليه السلام، وهذا ما ورد في رواية المفضل عن الصادق عليه السلام في بيان معنى الآية. قال: «ربّ الأرض يعني إمام

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٩.

(٢) الغيبة (للطوسي): ص٤٦٧-٤٦٨.

الأرض﴾ فقلت: فإذا خرج يكون ماذا؟ قال: ﴿إذاً يستغني الناس عن ضوء الشمس ونور القمر ويجتزئون بنور الامام عليه السلام ﴾[١].

وظاهره المعنى الحقيقي؛ لأن الحقيقة تكوينية نورية في روحه وبدنه الشريف، فيكون مشعاً في نفسه، وفي المعادن والفلزات من المشعات المنيرات ما يقرِّب هذا المعنى، وربما يراد به المعنى الباطن؛ لأن نور الإمام عليه السلام يفتح القلوب والبصائر والعقول فترى الأشياء بدون حاجة إلى النور؛ لأن رؤية القلب تحتاج إلى بصيرة، والبصر هو الذي يحتاج إلى نور، ولعل قوله عليه السلام: ﴿يجتزئون﴾ و﴿يستغني الناس﴾ يشير إلى وجود الشمس والقمر لكن الناس لا يحتاجونهما، ولعل هذا معنى استقرارها؛ لأنه إذا انتفت الحاجة إليها بطلت، وهناك معنى آخر أرق وألطف نوكله إلى محله[٢].

وعلى كل حال فإن في زمانه عليه السلام كل شيء يتبدل العقول والقلوب والأبدان والأرض والشمس والحجر والمدر ويعطي خيره ونفعه، فلا يبقى ظلام ولا ظلمة، بل حياة كلها نور؛ لأنها مرتبة من مراتب عالم الآخرة، والآخرة تستضيء بنور ربها.

---

(١) انظر تفسير القمي: ج٢، ص٢٥٣؛ الإرشاد: ج٢، ص٣٨٦.

(٢) بيان السعادة: ج٤، ص١٥-١٦.

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة نستعرض بعضها على التوالي:

التعليم الأول: النتائج تظهر بالأعمال

إن الحركة الدائبة للشمس تعلّمنا نتيجة العمل والنشاط والحركة وأثرها في حياتنا اليومية، فإن الإنسان بعمله وحركته يحقق عدة إنجازات عظيمة.

الأول: الوصول إلى أهدافه وغاياته في الحياة، فإن كل إنسان له هدف أو أهداف في حياته لا يصلها إلّا بالعمل.

الثاني: ظهور مكانته وقيمته وشخصيته في الآخرين، فإن العاطلين يملون أنفسهم ويملهم الآخرون، ويكونون كلاً على الغير.

الثالث: ترابطه مع سائر الموجودات فيسخرها ويتعلم منها ويستغني بها، وهذه الحياة الحقيقية للإنسان، أي أن يكون له أهداف سامية، وله منهج يوصله إلى هذه الأهداف، وله عمل دؤوب لأجلها، ولولاها كان الجمود والكسل، والنتيجة الفشل في الحياة ثم الموت بلا قيمة.

نتعلم هذا من حركة الشمس، فإنها دائمة الحركة، وبهذه الحركة تفيض على الوجود خيرها وبركتها، وسادت على الأشياء، ولو كانت ساكنة لتكورت وتحطم معها كل شيء، وهكذا هي حركة الإنسان وعمله، والروايات الشريفة تؤكد الحركة والعمل، وتشير إلى أنهما أساس كمال الإنسان وسعادته، ولا يسعد بدونهما، وفي عين الحال تتحدث عن فلسفة العمل وغاياته وآثاره، فلا سعادة ولا تطور ولا نجاح بدون عمل، فالإنسان هو العلة الغائية للخلق. خلقها الباري له لأن بها تقوم حياته وكماله، ففي حديث الإمام الصادق عليه السلام للمفضل بن عمر يقول له:

«اعتبر يا مفضل بأشياء خلقت لمآرب الإنسان ومافيها من التدبير، فإنه خلق له الحَبّ لطعامه، وكلف[1] طحنه وعجنه وخبزه - وكان بالإمكان أن يعطيه الباري خبزه جاهزاً، لكنه أراد له العمل، وخلق له الوبر لكسوته، فكلف ندفه وغزله ونسجه، وخلق له الشجر، فكلف غرسها وسقيها والقيام عليها، وخلقت له العقاقير لأدويته، فكلف لقطها وخلطها وصنعها، وكذلك تجد سائر الأشياء على هذا المثال، فانظر كيف كفي الخلقة التي لم يكن عنده فيها حيلة، وترك عليه في كل شيء من الأشياء موضع عمل وحركة لماله في ذلك من الصلاح؛ لأنه لو كفي هذا كله حتى لا يكون

---

(١) والتكليف قد يراد به المعنى الاصطلاحي باعتبار أن الأمور المذكورة تتعلق بالأمور الضرورية التي تتقوم بها حياة الإنسان، وقد يراد المعنى اللغوي، أي العناء والمشقة، ولا يمنع الجمع؛ لوجود المقتضي وانعدام المانع.

له في الأشياء موضع شغل وعمل لما حملته الأرض أشراً وبطراً - أي غروراً واستكباراً[(١)] - ولبلغ به ذلك إلى أن يتعاطى أموراً فيها تلف نفسه، ولو كفي الناس كل مايحتاجون إليه لما تهنؤوا بالعيش، ولا وجدوا له لذة. ألا ترى لو أن امرأ نزل بقوم فأقام حيناً بلغ جميع ما يحتاج إليه من مطعم ومشرب وخدمة لتبرم بالفراغ - أي مل وتضجر[(٢)] - ونازعته نفسه إلى التشاغل بشيء؟! فكيف لو كان طول عمره مكفياً لا يحتاج إلى شيء؟! فكان من صواب التدبير في هذه الأشياء التي خلقت للإنسان أن جعل له فيها موضع شغل لكيلا تبرمه البطالة، ولتكفّه عن تعاطي مالا يناله ولا خير فيه إن ناله[(٣)] وفي الحديث دلائل هامة اشير إلى ثلاثة منها:

الأول: أن الباري عز وجل خلق الكثير من الأشياء للإنسان، فالإنسان هو العلة الغائية للخلق، خلقها الباري له لأن بها تتقوم حياته وكماله، فأوجد له الأصول والمنابع، وترك الاستثمار والاستخدام لفكره وإرادته وعمله، فهو يحتاج إلى طعام خلق له الحب، ولكن تسخير الحب للأكل موكول إلى عمله - زرعه وطحنه وخبزه - ويحتاج إلى اللباس والفراش فخلق له الوبر وأمثاله، وتسخيره واستخدامه يكون بيد الإنسان، فعليه أن يندفه ويغزله وينسجه، ويحتاج إلى الشجر وإلى الأدوية وسائر الأشياء.

---

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص١٩، (أشر).

(٢) الصحاح: ج٥، ص١٨٦٩؛ وانظر لسان العرب: ج٤، ص٤٨١، (ضجر).

(٣) انظر التوحيد: ص٤٤- ٤٥؛ البحار: ج٣، ص٨٦٠.

فمن لطف الله سبحانه بالبشر أن أوجد لهم أصول الخيرات، وأعطاهم القدرة والعقل والإرادة والأجسام القادرة على العمل لكي يخدموا أنفسهم، ويحققوا أهدافهم، وهذا لطف إلهي عظيم لولاه لبقي الإنسان قاصراً، ولمات في أيامه الأولى، وهنا نعرف سراً عظيماً لجميع الناس هو أن الذين يقعدون وينتظرون أن الله يحقق لهم آمالهم ويوصلهم إلى غاياتهم دون عمل وطلب منهم مشتبهون؛ لأن الباري جعل تحقيق الغايات والنتائج تترتب على الأعمال والأنشطة؛ لذا يدعون فلا يستجاب لهم، ولو أرادوا إجابة الدعاء لوجب عليهم أن يعملوا ويجهدوا ثم يدعوا هناك يستجاب لهم، ومن دونه فلا ينبغي أن يتوقعوا الإجابة. هذه هي حكمة الخالق في الخلق، وهذه هي الحقيقة التي تقوم عليها الحياة. من الله سبحانه الأصول ومنابع الخير، ومن البشر الفكر والإرادة والعمل والتسخير والتوظيف، فلو جلس الجائع في بيته يعبد ليلاً ونهاراً لا يرسل الباري عزّ وجل إليه رغيفاً يشبعه، ولا يكسيه، ولو جلس مريضاً لا يعمل بقواعد العلاج في الوقاية ومراجعة الطبيب فإن الباري عزّ وجل لا يشفيه، فلا توجد نتائج بلا أعمال، ولا أعمال بلا معاناة وكد وتعب، وهذا له فلسفة، ومن فلسفته أن الباري خلق الإنسان لأجل كماله، ولا يكتمل حتى يتشبه به، وهذا موقوف على العمل والتعلم والجهد والتربية، ولذا كان أنبياء الله وأولياؤه يعملون ويكتسبون ويجهدون أنفسهم في العمل كما يجتهدون في العبادة وهداية الخلق.

وقد روى العلامة ابن فهد في عدة الداعي: أن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: لما كان يفرغ من الجهاد يتفرغ لتعليم الناس والقضاء بينهم، فإذا يفرغ من ذلك اشتغل في حائط له يعمل فيه بيده، وهو مع ذلك ذاكر لله جل جلاله[١]، والحائط البستان.

وفي شرح نهج البلاغة أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يعمل بيده يحرث الأرض، ويستقي الماء، ويغرس النخل، وكل ذلك يباشره بنفسه الشريفة[٢]، وكذا كانت الصديقة الطاهرة، فقد أدارت الرحى تطحن بها حتى مجلت يداها وسال دمها الطاهر عليها[٣].

وعن الفضل بن أبي قرة قال: دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام وهو يعمل في حائط له فقلنا: جعلنا الله فداك دعنا نعمل لك، أو تعمله الغلمان. قال: ﴿لا، دعوني فإني أشتهي أن يراني الله عز وجل أعمل بيدي، وأطلب الحلال في أذى نفسي﴾[٤] وهكذا كانت سيرة سائر الأئمة عليهم السلام، والروايات في هذا متضافرة[٥]، فلا يمكن للإنسان أن يكون غنياً متعففاً عما في أيدي الناس ولا قريباً من ربه تبارك وتعإلى من دون عمل، ولا يمكن أن يشبع ويكسى ويشفى من دون عمل. هذه هي سنه الباري عزّ وجل في خلقه.

(١) عدة الداعي: ص١٠١؛ البحار: ج١٠٠، ص١٦، ح٧٠.
(٢) شرح نهج البلاغة: ج١٥، ص١٤٧.
(٣) الفقيه: ج١، ص٣٢٠، ح٩٤٧؛ مكارم الأخلاق: ص٢٨٠.
(٤) الفقيه: ج٣، ص١٦٣، ح٣٥٩٥؛ عوالي الآلئ: ج٣، ص٢٠٠ ح٢٣.
(٥) انظر الكافي: ج٥، ص٧٣، ح١؛ التهذيب: ج٦، ص٣٢٥، ح٨٩٤.

نعم ينبغي أن نعلم أن العمل قسمان: عمل للكسب الحلال وهو قوت البدن للدنيا، وعمل لكسب الفضائل والحلال لأجل الآخرة، وهو تربية الأخلاق والعبادة والتفقه في الدين، ولا يمكن الاستغناء بالأول عن الثاني، ولا بالثاني عن الأول، بل كلاهما واجب ومطلوب، والباري عز وجل لا يحب العبد إلّا مشغولاً بأحدهما في كل وقت، ومتوازناً بهما في طول الوقت، أي يعطي للجسد شيئاً وللروح شيئاً، ولذا ورد في الحديث الشريف: ﴿إن الله يبغض الصحيح الفارغ لا في شغل الدنيا ولا في شغل الآخرة﴾[(١)] وفي حديث الباقر عليه السلام: ﴿إني لأبغض الرجل – أو أبغض للرجل – أن يكون كسلاناً عن أمر دنياه، ومن كسل عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل﴾[(٢)] وفي حديث آخر عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿من كسل عن طهوره وصلاته فليس فيه خير لأمر آخرته، ومن كسل عما يصلح به أمر معيشته فليس فيه خير لأمر دنياه﴾[(٣)].

الثاني: أن الباري عز وجل لم يعط للإنسان كل مايريد إلّا بعمل ليس لعجز منه ولا لبخل والعياذ بالله، بل لرحمة ورأفة وحكمة، فإن الإنسان إذا كفي كل مايحتاج إليه وحصل عليه دون جهد وتعب لوقع في مفسدتين عظيمتين.

---

(١) شرح نهج البلاغة: ج١٧، ص١٤٦.

(٢) الكافي: ج٥، ص٨٥، ح٤؛ الوسائل: ج١٧، الباب ١٨ من أبواب مقدمات التجارة، ص٥٩، ح٢١٩٧٣.

(٣) الكافي: ج٥، ص٨٥، ح٣؛ الوسائل: ج١٧، الباب ١٨ من أبواب مقدمات التجارة، ص٥٩، ح٢١٩٧٤.

إحداهما: الغرور والتكبر و الطغيان وفيها تلفه.

وثانيتهما: ضياع حلاوة العيش في عينه، ولم تهنأ نفسه في لذةٍ، بل كل شيء سيكون تافهاً لا طعم ولا هناء، والحياة التي لا لذة فيها موت وليست بحياة.

الثالث: أن الفراغ أساس الفساد والضجر والملل من الحياة، وهذه الثلاثة من أهم أسباب الأمراض الروحية التي يعاني منها الناس، وتحدثت التقارير العلمية أن الفساد الذي يقع فيه الناس والكثير من الجرائم والأمراض العصبية والجنون والانتحارات ناشئة من ذلك، وهنا نعرف لطف الله وحكمته حيث لا يعطي للإنسان كل مايريد دون عمل وكد وتعب، كما نعرف أن سر تقدم الإنسان وتطوره وارتقائه هو العمل والحركة، ولذا الآية جعلت حركة الشمس آية؛ لأن بها خيرها ونفعها، وكذلك حركة الإنسان وعمله.

التعليم الثاني: أركان النجاح في كل عمل

النجاح في كل عمل يقوم بثلاثة أركان:

الأول: تقدير الإمكانات والقدرات وتناسبها مع الغايات

الثاني: العلم والخبرة في التخطيط والتنفيذ، فإن كان العامل عالماً خبيراً أخذ بمقتضاهما، وإلّا استعان بالقادرين العالمين.

الثالث: تطبيق العلم والخبرة في الأداء.

وهذه الأركان لا تختص بالمشاريع الكبيرة أو الأعمال العامة التي تحكم العالم، بل حتى الأعمال الفردية تقوم بالأركان الثلاثة المناسبة لها، فلو كان العمل غير محسوب من حيث دراسة الإمكانات وملاحظة مناسبتها مع الغايات كان عبثياً، ولو كان دون علم وخبرة كان فوضوياً، ولو توفر على الركنين الأولين ولم يلتزم بضوابطهما كان فاشلاً.

هذا التعليم الكبير أشارت إليه الآية بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[١] فإن التقدير الإلهي والعلم سخرا الشمس إلى غاياتها، ووضعاها في نظام متوازن يظهر فوائدها وآثارها، بل كل حوادث الوجود خاضعة لقانون ونظام مقدر عن علم وقدرة، فلاعبثية ولا سكون ولا فوضى في الوجود، وكذلك حركة الإنسان وعمله ينبغي أن تكون، وقد ورد في الأخبار الشريفة ما يعزز هذه الحقيقة، ففي الأمالي عن رسول الله ﷺ قال: «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه ... وأكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمة أقلهم علماً»[٢].

وهذه حقيقة تكشف سر النجاح والفشل في الأعمال والمشاريع بل وحتى الحكومات والدول، فإن النجاح يقوم على الموازين العلمية، فإذا تصدر العمل العلماء والخبراء والعالمون به كان ناجحاً محققاً للغايات، ولو تصدره الجاهلون فإن الجهل ينتهي إلى الفشل؛ لذا يقول النبي ﷺ: إن

---

(١) سورة يس: الآية ٣٨.

(٢) الأمالي (للصدوق): ص٧٣، ح٤١؛ وانظر البحار: ج١، ص١٦٤.

القيمة تدور مدار العلم، وكلّما أزداد العلم ازدادت القيمة، وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿قيمة كل امرئ ما يحسنه﴾[(١)] فالإنسان قيمته بعلمه، وعمله لا يظهر إلّا بعلمه وإنجازه، وعمله وإنجازه يتوقف على تقدير الإمكانات وتطبيق العلم في الأداء.

وهذه القيمة لا تخص أصحاب الأعمال الكبرى، بل حتى الطفل داخل البيت قيمته على قدر ما يحسن، فكلما أحسن الكلام والأدب وأحسن الأداء زادت قيمته، وكذلك المرأة في البيت، والمزارع في المزرعة، والوزير في وزارته، فقيمة كل إنسان على قدر ما يحسن. علَّمنا الباري عز وجل بذلك بقوله بتقدير حركة الشمس وتسخيرها لغايتها عن علم وقدرة.

التعليم الثالث: الكون جامعة للعلوم والمعارف

يعلّمنا الباري عزّ وجل أن الكون جامعة كبرى فيها العلوم والمعارف، ويعلمنا أن نعيش عيشة الأحياء اليقظين الواعين فيه بأن تكون قلوبنا حية، وعقولنا ذكية نبهة، فلا نمر على حوداث الوجود ووقائعه مرور الغافلين والجاهلين، بل نحِبُ الأشياء ونتدبر فيها ونتعلم منها؛ لذا ضرب لنا مثلاً في حركة الشمس وجريانها، ووصفها بأنها آية، وجعلها آية سماوية كبرى لا تخفى على أحد، و لو تدبر فيها فإنه سيتوصل منها إلى علوم ومعارف كثيرة، فبالشمس تحيا الأشياء وتظهر فوائدها وآثارها، وبانتهائها ستموت وتنتهي.

---

(١) نهج البلاغة: ج٤، ص١٨، الرقم ٨١؛ الأمالي (للصدوق): ص٥٣٢، ح٧١٨.

والأشياء كلها حية تدرك وتعقل وتتحرك، ولها غايات نطلبها لو تأملنا ودرسناها ربما سنتمكن من فهمها والتعامل معها، وقد تضمن القرآن الكثير من الأمثلة والشواهد التكوينية لذلك، فضرب مثلاً في البر والبحر والطير والجبال والأرض والقمر وغير ذلك لكي نتدبر ونتعلم فندرسها ونتوصل منها إلى خواصها وآثارها ونفعها والكثير، من أسرار هذا العالم مودعة في القرآن، والقرآن قال إنها مودعة في التراب والماء والأشجار والجبال والأنهار والشمس والقمر، ولكن نحن لا نلتفت ولا نتأمل فيها.

ففي القرآن الكريم أسرار الوجود في الأحياء والكيمياء والفيزياء والطب والهندسة والفلك والنجوم لكننا لم نتوجه إليها، ولم ندرسها حتى نكتشفها ونتعلم منها.

ولو توجهت جامعاتنا وحوزاتنا العلمية لوضع بعض الأسس و المناهج لدراسة العلوم الكونية في القرآن والسنة الشريفة - كما نجعل معاهد وكليات للطب والهندسة والصيدلة الكيمياوية وغيرها من العلوم - لوجدنا ما في القرآن ما هو أعجب وأعظم وأكثر أثراً، وقد وصفه الباري عز وجل بأنه يهدي للتي هي أقوم، وأنه ينزل في القرآن ما هو شفاء ورحمة، ولكن للأسف غفل المسلمون عن هذا الكنز العظيم بعمد وجهل فتوهمنا أن عند غيرنا ما هو أفضل مما عندنا.

وهذه الآية المباركة شاهد ودليل، فقد أبطلت نظرية - إلى فترة ليست بالطويلة - كانت تقوم على أساس ثبات الشمس، وأبطلت الكثير من

نظريات اليهود والنصارى وبعض المسلمين القائمة على التعطيل والجبر، والنظريات العقلية الاعتقادية[١]، وكشفت عن نهاية العالم.

ولو درس العلم اليوم النسب الفيزياوية للشمس من حيث نارها وتوهجها ربما توصل منها إلى معرفة نهاية العالم المادي، وتوصل إلى معرفة زمان الظهور ولو بالتقديرات الاحتمالية المقاربة، وقد عرفنا في الأبحاث السابقة كيف فسرت الآية الكثير من الآيات والروايات التي كان البعض يتصورها غريبة أو مستهجنة وأعطتها حقيقتها التكوينية.

فياليت يهتم المسلمون بدراسة القرآن دراسة علم ومعرفة لا فقط عبادة وتعبد، ولو أوجدوا منهجية القرآن في دراساتهم الأكاديمية والحوزوية ووضعوا لها المختبرات ومراكز الدراسات والمصادر التخصصية لبلغوا مابلغوا من العلم والمعرفة والتطور الإنساني والحضاري، ولو لم يفعلوا فإنهم سيبقون يقتاتون على فتات موائد غيرهم، وتتخذ هذه مطية لاستعمارهم واستغلالهم، وفي القيامة سيشكوهم القرآن الكريم إلى ربهم، ويشكوهم الرسول؛ إذ يقول: ﴿**يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا القرآن مَهْجُوراً**﴾[٢].

وأضرب لذلك مثالاً واحداً من باب النموذج:

---

(١) مقتنيات الدرر: ج٩، ص٨٣-٨٤.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

ذكر الباري عز وجل في القرآن حقائق كثيرة هي من الأسرار العظيمة، وتعد من المعاجز الإلهية للأنبياء والأولياء. أشير إلى اثنتين منها لو درستا دراسة علمية لأحدثتا طفرة نوعية في العلوم والصناعات.

الأولى: قضية آصف بن بلخيا وصي سليمان عليه السلام الذي جاء بعرش بلقيس من سبأ باليمن إلى فلسطين في طرفة عين. قال: ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾[١] وارتداد الطرف يعني غمض الجفن الأعلى وانطباقه على الأسفل. يعبَّر عنه اليوم بالرمشة، وهي أسرع وحدة يقاس بها الزمان عرفاً، وقد قال هذا في مقابل العفريت من الجن الذي قال: ﴿أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾[٢] وكان مقام سليمان عليه السلام بمنزلة الدوام الرسمي الذي يتولى فيه سليمان إدارة أمور الرعية، ويبدأ من الصباح إلى نصف النهار، ومدته بضع ساعات[٣]، وفي لحظة واحدة حضر عرش بلقيس عنده، وفي كيفية الإحضار كلام لسنا بصدده، والذي نريد الإشارة إليه أن هذه القدرة العجيبة على إحضار الأمر المادي - وهو العرش - تمت في أقل من الثانية، والآية المباركة أشارت إلى أمرين:

الأول: أن ذلك حصل بفعل آصف نفسه. قال: ﴿أنا أتيك به﴾ يعني القضية تتعلق بقدرته.

---

(١) سورة النمل: الآية ٤٠.

(٢) سورة النمل: الآية ٣٩.

(٣) تفسير كنز الدقائق: ج٩، ص٥٥٤.

الثاني: أن هذه القدرة منشأ هذا العلم؛ إذ قال سبحانه: ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**﴾[(١)] أي عنده علم من الكتاب التكويني ومطّلع على أسرار الكون وقوانينه، وبهذا العلم تمكن من فعل ما هو مستحيل بحسب العادة، ومن في قوله: ﴿**مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ ربما تكون بعضيّة فتفيد أن علمه لم يكن مطلقاً، بل له شيء من العلم، وهذا العلم قد يفسر بموازين العلوم الحديثة، فقد يكون من علم الفيزياء، وقد يكون من علم الطاقة العجيب الذي يحرر المادة إلى طاقة، وقد يكون من علم الكيمياء فيزيل العرش من مكان ويجمعه في مكان بهذه السرعة الخارقة، وقد يكون من علم آخر لم نتعرف عليه بعد.

وربما تكون نشوية مثل قولهم: الخبز من الحنطة، والخاتم من الذهب، فتفيد أن هذا العلم الذي يملكه آصف أخذه من الكتاب السماوي الذي عند الأنبياء.

وربما تكون من بمعنى الباء، نظير قولهم (انظر إليك من طرف خفي) أي بطرف خفي، ومعنى الآية قال الذي عنده علم بالكتاب، فيكون مفادها مفاد من النشوية، والروايات تقوي المعنى الأول ولسنا بصدد التفصيل، ولنا فيها تعليق وتوضيح نوكله لمحله.

وما دامت القضية تتعلق بالعلم فإن للعلم موضوعاً ومحمولاً وغاية ومسائل وقواعد يمكن تعلمها واكتسابها، ولو توصلنا إليها ربما تمكنا على

---

(١) سورة النمل: الآية ٤٠.

مثل هذه القدرة فتغنينا عن الكثير من وسائل النقل المتطورة، وتسرع من التواصل، مثل ما توصل العلم إلى نقل الأشياء غير المادية في ثوان كالرسائل والخطابات عبر أجهزة التواصل، فإن هذا العلم يوصلنا إلى نقل الأشياء المادية من مكان إلى مكان بنفسها لابصورتها، واحسب كم لهذا العلم من تفريعات علمية تقود البشرية إلى ارتقاء وتطور هائل.

ولكن هذا الكنز العلمي الكبير مودع في القرآن، ولأننا لا ندرسه ولا نعتني به ضيعناه وأخّرنا أنفسنا وحضارتنا.

الثانية: قضية عيسى عليه السلام في خلق الطير؛ إذ صنع من الطين كهيئة الطير ثم نفخ فيه فكان طيراً، وأبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى، إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة، وأقتصر هنا على بيان الأولى منها؛ إذ يقول سبحانه: ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ**﴾[١] ونلاحظ أنه ينسب الخلق إلى نفسه، وكذا النفخ وتبديل الطين الميت إلى هيئة طير، ثم نفخ فيه الحياة فيطير، هذه كلها حدثت بفعل عيسى عليه السلام ولكن بإذن الله تعالى، وهو الإذن التكويني، أي إيجاد المقتضيات في الأشياء وعدم المنع منها.

والتراب فيه مقتضيات الحياة، ولذا يتكون الإنسان منه ويكون حياً، وكذا الحيوان والنبات كل منهما حي ومنشؤه التراب، وقد ذكروا الطير الذي خلقه عيسى وهو الخفاش، وقد ذكروا له أوصافاً وخصائص يمتاز

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٩.

بها على سائر الطيور. منها أن له أسناناً وثدياً ويحيض، وتلد كسائر الحيوانات، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويطير بغير ريش[١].

فالفعل فعل عيسى عليه السلام والإذن من الله سبحانه، بمعنى عدم المنع منه، وفي الآية المباركة مباحث كثيرة ولطيفة نوكلها إلى محلها، ونكتفي بما هو محل الشاهد فيها، وهو أن عيسى عليه السلام جعل الميت حياً والطين طيراً فطار، وبعد ذلك جعل من آياته إحياء الموتى من البشر، وهذه أعجب وأعظم من الأولى؛ لأن خلق الطير بنفخ الروح فيه دال على قدرة عيسى عليه السلام على خلق الروح الحيواني، وليس بصناعة الطين على هيئة الطير؛ لأن هذا مقدور لكل أحد، وأما الأول فهو المعجز.

وأما إحياء الموتى فتدل على سلطته على أرواح البشر بحيث يقدر على إرجاعها إلى أبدانها متى شاء، وهذه أعظم من الأولى[٢].

ومعلوم أن هذه الحوادث ليست من الممتنعات ذاتاً؛ لأن الممتنع ذاتاً لا يمكن وجوده، وإنما هي من الممتنعات وقوعاً، أو من الممتنعات عادة، والأول منهما لا يوجد لا من جهة الاستحالة الذاتية، بل لترتب محال عليه كمنافاة حكمة الحكيم، والثاني لا يوجد لعدم المعرفة به، وعلى كل تقدير لو علم طريق إيجادهما ووقوعهما لأمكن ذلك، وهذا علم خاص لو وضع له المعنيون الإمكانات والدعم وهيؤوا الوسائل لأمكن معرفته، وحينئذ

---

(١) نفحات الرحمن: ج١، ص٦٢٧.

(٢) انظر مواهب الرحمن: ج٥، ص٣٦٩.

نستغني عن الكثير من المصانع والمعامل والأجهزة التي تصنع الأشياء الجامدة، كما يمكن التواصل مع الأموات لو لم يترتب على ذلك تال فاسد يمنع الباري عزّ وجل من حصوله.

التعليم الرابع: السعادة بالتوازن بين أمور

يعلّمنا الباري في هذه الآية سرّاً عظيماً لأهل المعرفة، ومبدأ التعليم هو فهم علاقة التوازن بين حركة الشمس وبين غايتها ونظامها، فإن به تؤدي الشمس وظيفتها، وتظهر آثارها فيفيض على الوجود الخير والبركة، وينتفع بها كل الموجودات، ولو لا هذا التوازن بين الثلاثة تفقد خواصها وآثارها، وربما تكون عامل هدم الوجود.

وهذا يرشدنا إلى ضرورة التوازن بين ثلاثة عناصرهي:

١ـ الأعمال

٢ـ الحاجات

٣ـ الغايات

هذه الثلاثة إذا توازنت في التكوين قادت الإنسان إلى الحياة السعيدة البعيدة عن الأمراض والآفات والمشاكل، وإذا توازنت مع التشريع بلغ الإنسان الدرجات المعنوية الرفيعة، وهذا هو السر العظيم الذي يبحث عنه الأولياء ليصلوا إلى مقاصدهم وهو التوازن والاعتدال التكويني في المزاج والأخلاق، والتوازن والاعتدال في الفكر والعمل، والذين يبلغون درجة الولاية وتظهر على أيديهم الخيرات والبركات هم من بلغوا هذا التوازن أو اقتربوا منه.

فالأمراض التي يبتلى بها البشر والعاهات والمشاكل تنشأ من اللاتوازن بين أعمالهم وحاجاتهم وغاياتهم، كما أن القصور الفكري والروحي الذي يقودهم إلى الشقاء والتعاسة الدنيوية والأخروية ناشئ من ذلك أيضاً.

إن قلت: ما هو نظام التوازن؟ وكيف نصل إليه؟

الجواب: النظام أودعه الباري في الشريعة في أحكامها وآدابها، والوصول إليه ممكن وميسور لجميع الناس إذا عملوا بالأحكام والآداب، فالذي يلتزم بأحكام الله وآدابه ولا يخالفها يكون متوازناً تكوينياً فلا يمرض، أو يتورط بالعاهات، والذي يلتزم بها تشريعاً يرتقي في فكره ويسمو في إنسانيته، ولذا يقول الباري عزّ وجل: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا**﴾[1] وتضافرت الدلائل على الاعتدال في كل شيء وأن الإفراط والتفريط في الأكل والشرب والنوم والعمل يتلفان الإنسان. أضرب لذلك بعض الأمثلة:

منها: الماء فإنه عنصر الحياة الأول، ولولاه لا تكون الحياة، لكن حتى يكون الماء نافعاً وكله خير وبركة ولاضرر فيه على الإنسان أن يتعامل معه باعتدال في الكمية والكيفية، فالإكثار من شرب الماء الزائد عن الحاجة مضر، والإقلال منه بما لا يسد الحاجة مضر، كما أن الماء الساخن جداً مضر، و البارد جداً مضر، والذي ينفع من الماء ولا يضر هو الذي يسد الحاجة كماً وكيفاً.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣١.

ومنها: الطعام.

ومنها: النوم.

فالإفراط أو التفريط فيهما من عوامل هدم البدن البشري، وكذا العقل والقلب. هذا في الماديات، وكذا في المعنويات.

نحن لا غنى لنا عن الحركة، ولنا حاجات لابد أن نكفيها، ولنا غايات فلابد أن يكون عملنا بقدر حاجاتنا، وحاجتنا بقدر غايتنا، فالإفراط والتفريط في ذلك يضر ولا يوصل إلى نتائج مرضية.

فالذي يطمح أن يكون عالماً كبيراً فإن هذا الطموح العالي تلازمه حاجة بقدره إلى العلم، وهو الآخر لا يمكن إلّا أن يبذل الجهد ويتعلم، فإذا كان العمل أقل من الحاجة والغاية فإنه لا يصل، ولو كان أكثر من ذلك سيهلك وربما يضل، ولذا يقول علماء النفس والاجتماع إن الذين يصابون بالانهيارات العصبية والفكرية ويشطون عن الطريق السوي ويتعرضون لصدمات نفسية كبيرة هم الذين طموحاتهم أكبر من قدراتهم، فحد الاعتدال هو الذي يحقق الأهداف والغايات. يقول تعالى: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ**﴾[1] أي كن معتدلاً حتى تصل إلى الغاية، والذي لا يعتدل فإن أبطأ تأخر، وإن أسرع وصل قبل أوانه وضاع جهده.

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٩.

فالتوازن مطلوب لأجل الحياة الكاملة السعيدة البعيدة عن الأمراض والآفات، ومن هنا نلاحظ أن الشرع وضع أحكاماً، وللأحكام وضع آداباً تتعلق بكل تفاصيل سلوكنا اليومي، وهذه الأحكام والآداب هي التي تجعلنا متوازنين مع حقائق الوجود، ولو التزمنا بها تقودنا إلى السعادة، وبعض هذه الآداب قد يراها الناس بسيطة وعادية، ولكن لها غاية الأثر على سعادتهم وراحتهم.

مثلاً: ورد في الرواية الشريفة عن أبي عبد الله عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قلَّم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله من أنامله داء، وأدخل فيها شفاء»[(١)] وفي رواية أخرى أنه ينفي الفقر ويزيد في الرزق[(٢)].

وهذا نظام يجعل الإنسان متوازناً مع نعمة الرزق والصحة، فما علاقة تقليم الأظفار بذلك؟ قد لانفهمه، وربما إذا درسناه وحللنا العلاقة لعثرنا على السر في ذلك، ولكنه حقيقة واقعية أخبرنا بها العالم الصادق المعصوم يجب أن تصدق، فمن عمل بها حاز على فوائدها، ومن أهملها يكون قد حرم نفسه من الفوائد.

ومثل ذلك في شرب الماء، فإن الروايات تحث على شربه بثلاثة أنفاس لا بنفس واحد[(٣)]، ففي ذلك مطردة للشيطان، وشفاء لما في الجوف،

---

(١) مكارم الأخلاق: ص٦٤.

(٢) مكارم الأخلاق: ص٦٤.

(٣) مكارم الأخلاق: ص٥١.

وطريقة لبس الثوب وطريقة التمشيط ونحوها من آداب جمعت في كتب الآداب والسنن بما فيها ألوان اللباس التي يستحب اختيارها، فإن كل تلك تجعل الإنسان متوازناً في الأشياء، وهذا التوازن يعطيه الصحة والسلامة والعيش السعيد، والإخلال بذلك هو منشأ التعاسة والشقاء والأمراض، وإلى هذا يشير قوله تعالى﴿**فمن اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فإن لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً**﴾[١] وهدى الله سبحانه وأحكامه وآدابه فمن اتبعها هدي إلى الحق و لا يشقى في دنياه وأخراه.

---

(١) سورة طه: الآيتان ١٢٣-١٢٤.

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى
عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ

يس/ ٣٩

الآية المباركة معطوفة على الآية التي قبلها، ومفادها أن من الآيات التي جعلها الباري عز وجل للناس القمر؛ إذ قدّره منازل حتى عاد كالعرجون القديم، ومنشأ ذلك كله التقدير والعلم والعزة، ووجه عطف القمر على الشمس أنه آية الليل، والشمس آية النهار، وبهما تتم آية انسلاخ النهار من الليل فتكتمل الصورة بين آيات أربع تجمع كل حوادث الوجود، وهي الأعيان والأفعال والصفات والظروف (كالزمان والمكان) وكلها وردت في هذه الآيات الشريفة بلسان العطف. الليل والقمر آيتان، والنهار والشمس آياتان، فتشمل كل أنواع الآيات آية الزمان والمكان، وآية الأعيان وآثارها ومنافعها، والأفعال والصفات، على أن حركة الشمس تنظم السنة والأيام، والقمر ينظّم الشهور والليالي، والبحث في آية القمر يشتمل على مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: الضمير في قوله: ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ**﴾ نسب التقدير للقمر، والمفسرون فيه على قولين:

القول الأول: أن النسبة مجازية؛ لأن التقدير لا يكون للقمر بل لسيره، أي سيره في منازل، أو بإضافة ذي، والمعنى قدرنا القمر ذا منازل، فهو من مجاز التقدير، وهو المشهور بين مفسري الخاصة والعامة[1]، ويشهدله العطف على الآية التي قبلها؛ إذ تحدثت عن حركة الشمس، والعطف يقتضي المشابهة في الوصف أي الحركة، ولم يذكر الحركة للقمر لسببين.

أحدهما: لأن الشمس أعظم من القمر، فإذا كانت متحركة كان ما هو أقل منها أو مثلها كذلك.

وثانيهما: لأن قوله: ﴿**مَنَازِلَ**﴾ وقوله: ﴿**عَادَ**﴾ يدلان على وجود الحركة الدائبة فيه، فإن التحول من منزل إلى منزل لا يكون إلّا بحركة،

---

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٥٨؛ تفسير عقود المرجان: ج٤، ص١٧٤؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص٩٠؛ تفسير الرازي: ج٩، ص٦٧.

والعود لايتحقق إلّا بوجود مبدأ ومنتهى للحركة، وقد ذكر المفسرون وجود ثمانية وعشرين منزلاً للقمر ينزل كل يوم وليلة منزلة منها حتى يكمل الشهر، وعند المنجمين وأهل الفلك معرفة أوقاتها وآثارها(١).

القول الثاني: أن النسبة حقيقية، والمراد أن القمر في نفسه يمر بمنازل بحسب ظهوره ونوره هي الهلال والتربيع الأول والبدر والتربيع الثاني والمحاق الذي فيه يدخل في الظلمة ليعود من جديد هلالاً(٢)، وهذا أقوى من الأول لدليلين:

الأول: ظهور مرجعية الضمير إلى ذات القمر لا إلى حركته، والأصل يقتضي حمل اللفظ على المعنى الحقيقي، فالمجاز على خلاف الأصل لايصار إليه إلّا بدليل.

الثاني: لأن القمر لا يكون آية لعموم الناس لو لم يكن ظاهراً لجميعهم، والحالات الخمسة للقمر منذ ولادتة هلالاً حتى محوه محاقاً يدركها جميع الناس، بخلاف المنازل الثمانية والعشرين فإنه لا يعرفها إلّا الخواص.

وتسمية الحالات بالمنازل لأن واقعها هكذا، فإن كل حالة يمر بها القمر تستغرق أياماً يكون نازلاً فيها حتى يتحول منها إلى غيرها إلى أن يكتمل الشهر، على أن هذا المعنى لا ينفي المنازل الفلكية الثمانية والعشرين.

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٢٧٤؛ تفسير كنز الدقائق : ج١١، ص٥٨؛ التبيان: ج٨، ص٣٤٨.

(٢) تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٤٩؛ تفسير الفرقان: ج١٤، ص٢٣.

والنكتة اللطيفة هنا أن الآية السابقة ذكرت جريان الشمس ولم تذكر منازلها، وهذه ذكرت منازل القمر ولم تذكر جريانه، والسبب في ذلك أن حركة الشمس مشاهدة بالبصر، وحركتها من الشروق إلى الغروب يدركها الجميع إلّا أن منازلها لا يدركها أحد إلّا المتخصصون، بخلاف القمر فإن منازله مشاهدة بخلاف حركته، وحيث إن القرآن وصف الاثنين بالآية فإنهما لا يكونان آية إلّا بما يدرك ويشاهد ليكونا حجة.

المفردة الثانية: ﴿حَتَّى عَادَ﴾

فإن حتى ترد في معان كثيرة، والأنسب منها هنا معنيان:

أحدهما: العاطفة بمعنى الواو، كقول العرب أكلت السمكة حتى رأسها أي ورأسها فيكون المعنى: والقمر قدرناه منازل وعاد كالعرجون القديم وهذا أنسب بما سنذكره من معنى العرجون القديم.

ثانيهما: الغاية بمعنى إلى، فيكون المعنى (والقمر قدرناه منازل إلى عوده كالعرجون القديم) وإنما استعمل حتى بدل الواو وإلى للإشارة إلى الحركة الغائية له؛ لأن الأصل في حتى الغاية، فتفيد وجود مبدأ ومنتهى للسير، ومن خصوصياتها أن ما قبلها يغاير مابعدها إلّا ما استثني[1]، وهو كذلك في الآية، ومفادها أن القمر يسير في منازله حتى تنتهي المنازل ويدخل في المحاق ليعود من جديد في حركة أخرى، وقال: ﴿عَادَ﴾ ولم يقل (رجع)

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢١٨، (حتى).

لأن العود يتضمن الاعتياد والحركة الرتيبة في نظامها، بخلاف الرجوع فإنه أعم؛ إذ يطلق الرجوع على المصير إلى الموضع الذي قد كان فيه قبل(١)، ولكن قد يحصل مرة أو مرات مع تكلف.

أما العود فيتضمن الاستمرار حتى يصير سهلاً كالطبع، ولذا قيل للطبيعة عادة، وللعادة طبيعة ثانية(٢)، وهذه صفة القمر في حركته الشهرية، فإنه يقطع المنازل في ثمانية وعشرين يوماً ثم يعود ثانية بالطلوع في كل شهر، فالأنسب به العود لا الرجوع.

المفردة الثالثة: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾

وقد اتفق المفسرون وأهل اللغة على ان الكاف للتشبيه، والعرجون النون أصل فيه لا زائدة على قول، فهو اسم علم يرادبه العذق عامة(٣)، وإطلاقه على عذق النخلة من باب المصداق ولكنهم اختلفوا على قولين:

فاللغويون ذهبوا إلى أنه العذق نفسه، أي ما يحمل التمر، وهو من النخل كالعنقود من العنب، وهو مأخوذ من عرج الشيء إذا مال وانحنى وتقوس واصفر لونه(٤)، وقالوا هذه أوصاف القمر إذا عاد هلالاً،

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٤٩، (٩٨٣).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٩٤، (عود)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٣٥، (عاد).

(٣) لسان العرب: ج١٣، ص٢٨٤، (عرجن)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٣١٦، (عرج).

(٤) المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٩٢، (عرج).

والمفسرون قالوا إنه أصل ما بين الشماريخ إلى المنابت في النخلة[١]، فإنه إذا يبس وعتق صار أدق وأقوس، وعود القمر إلى هذه الحالة في ليلة السابع والعشرين في عيون الناظرين وإن كان في الواقع عظيماً[٢]، ووجوه الشبه بين العرجون والهلال من جوانب عديدة من ناحية الشكل الهلالي، واللون الأصفر والذبول، وإشارة الأطراف إلى الأسفل.

إن قلت: إن حال الهلال ظاهر لكونه في وسط السماء، وفي الليل المظلم فيظهر نوره جلياً وأن العرجون ليس كذلك، فكيف شبِّه به؟

قلت: إنَّ العرجون في جبين النخلة وبين السعف الأخضر شديد الخضرة المائل إلى السواد يبين لونه كالهلال فيتقارب الوصفان[٣].

والظاهر أن القول الأول يريد بالعذق هذا أيضاً؛ لامتناع إرادة العذق بماله من شماريخ؛ لعدم مشابهتها بالقمر، فالتشبيه لا يستقيم إلّا إذا حملناه على الساق إلى منبت العذق في النخلة، ومن ذلك يتضح وجه الضعف في حمل بعض المفسرين العرجون على السعف[٤]، هذا ويرد على القولين إشكالان:

---

(١) التبيان: ج٨، ص٣٤٨؛ تفسير الميزان: ج٢٣، ص٩٠؛ تفسير الفرقان: ج٢٤، ص٢٣.

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص٢٦٧.

(٣) تفسير الأمثل: ج١٤، ص١٣٩.

(٤) تفسير النور: ج٧، ص٤٧٥.

الإشكال الأول: عن صحة التشبية، فإن القمر كوكب نوري يضيء على الأرض ليلاً، وله آثار وفوائد، بخلاف العذق اليابس فإنه لا يشبه القمر إلّا في شكله الهلالي فلا يصلح للتشبيه به، بل لونه الأصفر الذي ذكره البعض لا يشابه ضوء القمر لأنه أبيض.

الإشكال الثاني: انعدام الفائدة في التشبية، فإن حمل التشبية على ماذكروا يمنع أن يكون للآية معنى معتداً به، ومفادها يكون أن القمر له منازل مقدرة مثل العرجون القديم، وهذا المعنى لا يتناسب مع كونه آيه يراد تعليم الناس وهدايتهم بها.

لذا لامناص من اختيار قول ثالث هو أنسب بالتشبيه وأعمق في الدلالة فنقول: العرجون ليس العذق ولا الساق مابين شماريخه والنخلة، بل هو الطلع، فإنه في ظهوره ومنازله وخواصه وآثاره يشبه القمر، ورد هذا المعنى عن الأئمة الأطهارعليهم السلام. في تفسير علي بن إبراهيم قال: العرجون طلع النخل، وهو مثل الهلال في أول طلوعه[1]، وهذا المعنى أدق وأعمق من المعنيين السابقين، ويؤكده الواقع من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه يمر بمنازل أربعة نورية ثم ينطفئ وييبس إن لم يقطف، ويعود من جديد في كل عام، ومثله يكون القمر، فإن منازله أربعة نورية ثم يختفي. هي الهلال، ثم التربيع الأول، والبدر، والتربيع الثاني، ثم يدخل في المحاق، وكذلك الطلع فإنه أول مايكون طلعاً ويكون لونه

(١) تفسير القمي: ج٢، ص١٨٩؛ لسان العرب: ج٨، ص٢٣، (طلع).

أبيض نقياً يتفتق عن قشره المغلق المظلم فيكون كالهلال[١]، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾[٢] أي الغلف التي تضم ثمر النخيل حتى ينشق عنه[٣]، ثم يتلقح ويصير بسراً[٤]، وينعقد شكله الأولي، ويكتسب لون الخضرة، ثم يصير رطباً[٥] يصفر ويينع، ثم تمراً، فإذا لم يجنه أهله يبس ودخل في ظلمة الموت والانطفاء.

الثاني: وصف العرجون بالقديم وقد قدرته الروايات الواردة عن الأئمة الأطهار عليهم السلام بالستة أشهر، وهو مايؤكده الواقع الخارجي لثمر النخل، ففي تفسير القمي بإسناده قال: دخل أبو سعيد المكاري على أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال له: أبَلَغَ من قدرك أنّك تدّعي ما ادعاه أبوك؟ فقال له أبو الحسن عليه السلام: «مالك أطفأ الله نورك، وأدخل الفقر بيتك، أما علمت أنّ الله عزّ وجّل أوحى إلى عمران: أنّي واهب لك ذكراً فوهب له مريم، ووهب لمريم عيسى، فعيسى بن مريم من مريم، ومريم من عيسى ومريم وعيسى شيء واحد وأنا من أبي وأبي مني وأنا وأبي شيء واحد؟».

فقال له أبو سعيد: أفأسألك عن مسألة؟ قال: «سل ولا أخالك تقبل مني ولست من غُنمي ولكن هاتها» فقال له: ما تقول في رجل قال عند

---

(١) مجمع البحرين: ج٤، ص٣٦٩، (طلع).

(٢) سورة الرحمن: الآية ١١.

(٣) انظر مجمع البيان: ج٩، ص٣٣١، تفسير الآية ١١ من سورة الرحمن.

(٤) مجمع البحرين: ج٣، ص٢٢٩؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥٦، (بسر).

(٥) المعجم الوسيط: ج١، ص٣٥١، (رطب).

موته: كل مملوك لي قديم فهو حر لوجه الله؟ قال: «نعم ما كان له ستة أشهر فهو قديم وهو حر لأن الله يقول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[1] فما كان لستة أشهر فهو قديم، وقال: فخرج من عنده وافتقر وذهب بصره، ثم مات لعنه الله وليس عنده مبيت ليلة»[2].

وفي رواية أخرى لم يكن عنده مبيت ليلة[3]، وفي الرواية دلالات هامة لا يسعنا بحثها.

ومن ذلك يتضح أن وصف العرجون بالقديم هو مابلغ ستة أشهر، وهذه الستة أشهر هي مدة طلوع ثمر التمر حتى ينضج ويجنى[4]، فالنخل يثمر في ستة شهور، وهما فصلان من أول الربيع إلى نهاية الصيف، ولو بقي يبس وتلف في فصلي الخريف و الشتاء.

الثالث: أن تفسير العرجون بالطلع أوفق بالحكمة والأثر؛ لأن خواص النخلة وآثارها وفوائدها وعبرتها بثمرها فكما أن للقمر مظاهر وآثاراً وخواص في كل منزل من منازله يعرفها المختصون كذلك التمر له في كل مرحلة خواص وآثار، بخلاف التعبير بالعذق أو بساقه، فإنه خالٍ من الآثار والخواص والمنافع التي تستحق أن يذكرها الباري ويعدها من الآيات.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٩.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٥؛ وانظر مجمع البيان: ج٦، ص٢٧٥.

(٣) الكافي: ج٦، ص١٩٥، ح٦.

(٤) انظر مجمع البيان: ج٧، ص٢٧٤.

فحكمة التشبية للقمر بالعرجون تقتضي هذا التفسير لا ماذكره أهل اللغة و المفسرون.

وماذكروه من خواص للعذق لا تناسب وصف القمر حتى الانحناء والتقوس؛ إذ لو أريد التشبيه بالتقوس لكان في الوجود ما هو أجمل وأرقى من العذق للتشبيه، على أن لون العذق بين الأصفر الداكن والقهوائي والأسود فلا تناسب صفة القمر البيضاء، وبذلك يتضح أن الآية الشريفة تشبه القمر بالطلع في حركته ومنازله وخواصه وآثاره، وبه تتحقق الغاية في الإرشاد والتشبيه.

المفردة الرابعة: ﴿الْقَدِيمِ﴾

فانه يدور بين احتمالين العتيق والسابق في الأمر الذي يتقدم على غيره كما في اللغه[1]، والأول أنسب بوصف العذق، والثاني أنسب بوصف الطلع، ولكن الذي يحقق غاية الخطاب هو الثاني لا الأول، لوضوح أن العذق العتيق يابس لا أثر له ولا نفع، فلا يصلح للتشبيه بالقمر الذي هو أجمل آيات السماء وأكثرها خواص وآثاراً.

فالعرجون القديم أي الثمر المتقدم في طلوعه، وهو أول منازل التمر، كما أن الهلال كذلك، ولا يتنافى مع مدلول الرواية؛ لأن سيرته تستغرق ستة أشهر حتى يدخل أواخر مراحله.

---

(١) انظر لسان العرب: ج١٢، ص٤٦٥، (قدم).

المفردة الخامسة: ﴿عَادَ﴾

فإنه يحتمل أن يكون بمعنى صار[١]، والمعنى أن القمر قدرناه منازل حتى صار كالعرجون القديم، وهذا أنسب بالعذق.

ويحتمل أن يكون بمعنى (رجع) وهذا أنسب بالطلع؛ لأن الطلع بعد أن تنتهي مراحله[٢] وينتهي فصل الصيف ويجنى في بداية الربيع يرجع من المحل الذي بدأ منه وهو صدر النخلة، وينبع من جديد، وهذا التشبيه أوفق بحالة القمر؛ لأن كل شيء يطوي المنازل ثم في الشهر الثاني يبدأ من جديد من حيث بدأ في الشهر السابق عليه.

والنتيجة المستخلصة من منطوق الآية: أن العرجون القديم هو الطلع السابق في طلوعه فإنه يشبه القمر في هلاله وفي منازله وفي طلوعه من جديد، وهذا أوفق بمعنى الآية ومحقق لغايتها.

---

(١) التحرير والتنوير: ج٢٣، ص٢٢.

(٢) ذكروا للتمر مراحل عديدة منها الطلع، وهو أول ما يبدو من ثمرته في أول ظهورها، والبلح وهو مابين الخلال والبسر، والبسر وهو التمر قبل إرطابه، والأزهى أي تلون بسره، وأمعى أي كان ذا معو، والمعو الرطب إذا دخله بعض اليبس، والرطب نضج البسر، انظر فقة اللغة و سرّ العربية، ص٣٩٥.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

تضمنت الآية المباركة لطائف عديدة هامة نستعرضها على التوالي:

اللطيفة الأولى: لماذا شبهّت منازل القمر بالعرجون؟

الآية المباركة وصفت حركة القمر وتبدلاته وشبَّهته بالعرجون، ولا كلام في أنّ التشبية ليس من تشبيه غير المحسوس بالمحسوس؛ لأن القمر ومنازله محسوسة، وإنّما من أجل بيان وحدة النظام والغايات بين العالي والداني والكبير والصغير، وهذه حقيقة عظيمة تهدينا إليها الآية وتدلنا على أن الكون كله مترابط تجمعه مشتركات كثيرة من أعظم شيء إلى أصغره، واختيار لفظ العرجون لتشبيه القمر دون غيره من المفردات يشير إلى حقيقة هامة في حركة القمر وحركة العرجون وهي التسامي والصعود التدريجي، فإن العرجون له أكثر من أصل في اللغة:

أحدهما: الميل والانحناء وتقدم الكلام فيه.

وثانيهما: العروج أي الارتقاء والصعود، ومنه العروج إلى السماء[1]، ولهذا الوصف إشارتان:

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٧٤١، (عرج)؛ بصائر ذوي التمييز: ج٤، ص٤١.

الأولى: ظاهرية لحركة القمر، فإنه يبدأ بالظهور هلالاً من أدنى الآفاق ثم يرتقي ويصعد حتى يتوسط السماء ويكون عمودياً على الأرض، ثم يأخذ بالانحدار والنزول إلى آخر الشهر فيرتمي غائباً، وبهذه الحركة الدائمة يتدرج في الصعود، ثم يتدرج في النزول، وهذه صفة للطلع حيث يبدأ صغيراً ثم يكبر ويصل الذروة، ثم يأخذ بالانحدار واليبوسة إذا لا يقطف.

الثانية: بحجم القمر، فإنه يكون صغيراً ثم يكبر ويعود صغيراً ويغيب، وتدل الآية على أن ذات القمر يمر بهذه المراحل وأنه يكبر ويصغر، وكذلك ذات الطلع، وحيث إن الباري عز وجل جعل ذلك آية للناس وقال ﴿**آية لهم**﴾ فإن ذلك يشير لهم إلى أن الناس هكذا يكونون أيضاً في حياتهم الجسدية، يبدؤون نطفة صغيرة لا ترى بالمجهر، ثم تتكوّن جنيناً في الرحم، ثم تولد وتكبر وتنضج فتكون ذات أجساد كبيرة، فإذا بلغوا منتصف العمر تنحدر وتعود صغيرة، وربما تفنى في التراب، ثم يخلق من هذه التربة بشر آخرون وكأنهم يعودون من جديد كما يعود الطلع في بداية فصله والقمر في بداية الشهر، وهو ما أكدته الآيات الشريفة؛ إذ يقول: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾[1] وهذه إعادة للأجسام وليست للأرواح؛ لأن الأرواح لا تفنى، بل تعود إلى جسدها بعد تكونها، بل هي في ارتقاء وصعود دائم، فالصالحون يرتقون روحياً

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٩.

للصلاح، والطالحون يتصاعدون في السوء حتى يصبح الشر والسوء طبيعة لهم، ويصير من ذاتياتهم؛ لذا يخلدون في العذاب؛ لأن ذاتهم هكذا، بينما الصالحون ذاتياتهم تكون صالحة يخلدون في الجنة.

والخلاصة: أن الأجساد تمر بمراحل ومنازل منذ تكونها إلى فنائها؛ إذ يرد إلى أرذل العمر فلا يقدر على شيء، وبه تكون نهايته فتعود من جديد، فكما القمر له شروق وازدهار وغروب الجسد البشري كذلك، والعمر الذي يعيشه الإنسان كذلك؛ إذ يمر بمراحل كثيرة تتصاعد ثم تنحدر وينتهي. هذا كله في الحركة المادية للقمر والطلع والأجساد البشرية، ولكن الروح التي هي لب الإنسان وجوهره إذا ارتقت لا تنحدر، بل تزداد سمواً وارتقاءً، فيعلّمنا الباري عزّ وجل بالعرجون صورة الارتقاء والتسامي عقلاً وروحاً؛ لأن هذا الارتقاء اختياري نحن نصنعه بأيدينا. أمّا الارتقاء البدني فهو قهري يخضع للقوانين الطبيعية.

والإشارة اللطيفة للعروج الروحاني والعقلي يشير إليها القرآن في مفردة العرجون، وهذا يفسر لنا السر الذي ورد التعبير عن ذلك بهذه المفردة دون غيرها من المفردات؛ إذ كان يمكن التعبير عن ذلك بالطلع أو العذق أو بالشاخة على اختلاف الآراء، لكنه عبر عنها بمفردة فيها شيء من الغرابة لقلة استعمالها في اللغه والعرف؛ لما تتضمنه هذه المفردة من دلالة لطيفه على السمو والارتقاء الجسدي والروحي للبشر.

اللطيفة الثانية: خصائص الآية الإلهية

إن الآية المباركة وصفت القمر وحالاته بالآية، ولهذا الوصف إشارة إلى خصائص الآية في كل شيء وهي ثلاث:

أولها: أن تكون علامة فيها تعليم للناس، وهادية إلى الله سبحانه كما يقتضيه معنى الآية في اللغة والعرف.

وثانيها: أن تتضمن الإعجاز لتكون حجة وبرهاناً لهم وعليهم، فلا يكون إيمانهم عن سذاجة أو عفوياً دون دليل.

وثالثها: أن تشتمل على سر لتحفيز الناس إلى المعرفة والتفكير.

هذه أركان ثلاثة تجتمع في كل آية يجعلها الباري عز وجل للبشر، وهي تلخص غايات الأنبياء والرسالات السماوية، أي تعليم الناس وهدايتهم إلى الخالق عز وجل ليكونوا في نهج الطاعة وتحصينهم بالحجة والبرهان فيما يؤمنون به فيخرجون من الجهل إلى العلم، ومن الظلمة إلى النور، وتحفزهم إلى الارتقاء والسمو في الفكر، ثم منه إلى العمل، فلا يرتقي الإنسان إلّا بارتقاء روحه وعقله، ولا ترتقي روحه وعقله إلّا بالعمل والجد والمثابرة، وهذا أحد وجوه فلسفة خلق الدنيا واختبار العباد فيها؛ لأن البشر لا يكتملون ولا يرتقون إلّا بذلك.

اللطيفة الثالثة: دلالة القمر والعرجون على المعاد الجسماني

قوله تعالى: ﴿عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[(١)] يتضمن إشارة لطيفة إلى المعاد الجسماني الذي سينتهي إليه البشر؛ إذ يشترك العرجون القديم مع البدن البشري بأربعة وجوه:

الأول: أن جسمه يبدأ صغيراً جداً ثم يكبر ثم يعود صغيراً ويضمحل في التراب، وهذه صفة العرجون القديم وهي صفة القمر.

الثاني: أن العرجون أصل ثابت في جميع مراحل حياته، والذي تتبدل وتتغير أشكاله ومظهره كما هو الحال في القمر، فالمنازل التي يمر بها القمر والتي يمر بها العرجون القديم لاتغير جوهرهما، بل شكلهما ومظهرهما، وهذه هي الحقيقة في مراحل عمر الإنسان؛ إذ يتبدل شكله ومظهره لا جوهره؛ لذا قال عرجون ليؤكدله وجوب الاهتمام بعروجه الروحي دون عروجه البدني؛ لأن الثاني قهري حاصل ولا خيار للإنسان فيه، بخلاف الأول، فلذا يتمكن الإنسان أن يحافظ على عروجه الروحي ويزيده ارتقاء، وهذا هو الذي لا يتبدل بل يرتقي بخلاف البدن.

الثالث: أن العرجون بعد قدمه يعود من جديد في العام القابل، كما أن القمر يعود بنفسه في الشهر القابل، كذلك البدن البشري يعود في الرجعة والقيامة.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٩.

الرابع: أن القمر بتبدل منازله ونشآته يظهر للعيان فإنه ينتقص ويتبدل لحد الانمحاء التام، وكذلك العرجون ييبس ويموت، ولكن في القابل يعود حياً، كذلك الإنسان فإنه قد يتراءى موته في آخر عمره وأنه انفنى لكنه ليس بميت، وإنما تغيب روحه عن جسده، وتحتجب عنه، ثم تعود إليه من جديد، فما يطرأ على القمر والعرجون من احوال وحالات كذلك تمر على البدن البشري، فيكون شاهداً على نموه وموته وحياته، ولذا وصفه الباري عز وجل بالآية؛ لأنه ينطوي على أسرار عظيمة.

اللطيفة الرابعة: بطلان أقوال المنجمين

في الآية المباركة والآيات التي سبقتها إشارة لطيفة أعمق من الأولى؛ إذ انتقلت من آية الليل والنهار ثم الشمس ثم القمر ثم النخل والعرجون. كل ذلك جاء معطوفاً على قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**﴾[1] وفي ذلك دلالتان:

الأولى: قانون الزوجية فيما تنبت الأرض ظاهر جلي، وكذا في خلق النفوس البشرية، فيخلق من الشجر شجراً، ومن التمر تمراً، ومن الفاكهة فاكهة وهكذا، وكذلك خلق البشر يكون من أنفسهم. من النفس تخلق النفس. الله سبحانه هو الخالق ولكن يخلق النفس من النفس. هذا طبعاً في النفس لا الروح؛ لأنها من أمر الله سبحانه، ولا يستثنى من هذا القانون

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

الكواكب والأفلاك والشمس والقمر فإنها أيضاً أزواج وإن كنا لحد اليوم نجهل كيف ينتظم قانون الزوجية فيها؛ أو في بعضها لذا قال: ﴿**خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ**﴾(١) ولعل مما لا نعلمه هو الزوجية في الشمس والقمر، وبهذا القانون تعطي الشمس آثارها والقمر خواصه ومنافعه، كما يعطي الإنسان والشجر خواصه وآثاره.

والثانية: الترابط والتكامل بين الموجودات، فالآيات الأنفسية والآفاقية وما بينهما وهو النبات والشجر وثمارهما كلها تتكامل في مسيرة واحدة ونظام واحد وغاية واحدة، ولو اشترك المتفرق بين النظام والغاية والأثر دلّ على أن المنظم والمحرك لها والمؤثر فيها واحد، لذا وصفها بالآية.

اللطيفة الخامسة: أن ما أشارت إليه الآية المباركة من آثار وخصائص ودلائل ورد مضمونه في الروايات.

الرواية الأولى: رواية الصدوق بسنده عن أبي ذر في قضية سؤاله عن جريان الشمس ومكان مغيبها وارتفاعها وسبب غيابها وطلوعها وسجودها لله سبحانه تحت العرش، ورد ذلك عن القمر أيضاً. قال: والقمر كذلك من مطلعه ومجراه في أفق السماء ومغربه وارتفاعه إلى السماء السابعة، ويسجد تحت العرش - أي حينما يغيب - ثم يأتيه جبرائيل بالحلة من نور الكرسي، فذلك قوله عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ**

---

(١) سورة يس: الآية ٣٦.

الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾[1] قال أبو ذر ﵁ ثم اعتزلت مع رسول الله ﷺ فصلينا المغرب[2].

وهنا نكته فارقة، فإن الرواية نصت على أن نور الشمس يكتسب حلة من نور العرش. أما القمر فمن نور الكرسي - وينبغي أن نعرف الفرق بين العرش والكرسي حتى نعرف السر الكامن في هذا الاختلاف في التعبير - وإجمالاً. نقول: العرش مادياً هو الفلك الأعلى، والكرسي هو فلك الكواكب، ومعنوياً العرش هو مظهر السلطة والقدرة الإلهية، والكرسي هو مظهر الفلك والعقل والتدبير الإلهي[3].

وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أن مقام الشمس أعظم من القمر، وأن نورها حاكم والقمر محكوم ولذا وصف نور الشمس بالضياء؛ لأنه أسطع من نور القمر، كما أن نور الشمس ذاتي والقمر اكتسابي من الأفلاك.

الرواية الثانية: قد مر في بحث جريان الشمس وصف النبي ﷺ بالشمس والإمام ﵇ بالقمر، وبناء على أن القديم يراد به السابق لغيره يشير إلى طلوع فجره وسابقيته بالعدل الإلهي والفرج قبل يوم القيامة، وبناء على أنه العتيق فيدل على طلوعه بعد قدمه وطول عمره الشريف، والبحث في ذلك يأتي.

---

(١) سورة يونس: الآية ٥.

(٢) التوحيد: ص٢٨٠، ح٧؛ الأمالي (للصدوق): ص٥٥٠، ح٧٣٢؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٣٩٥، ح١.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٥٨- ٥٥٩، (عرش)؛ ص٧٠٦، (كرس).

الرواية الثالثة: ماروواه الكليني قدس سره بسند معتبر عن عبد الرحمن بن سيابة قال: قلت: لأبي عبد الله عليه السلام جعلت لك الفداء إن الناس يقولون: ان النجوم لا يحل النظر فيها وهي تعجبني، فإن كانت تضر بديني فلاحاجة لي في شيء يضر بديني، وإن كانت لا تضر بديني فو الله: إني لأشتهيها وأشتهي النظر فيها، فقال: ﴿ليس كما يقولون لا تضر بدينك﴾ ثم قال: ﴿إنكم تنظرون في شيء منها كثيره لايدرك وقليله لاينتفع به، تحسبون على طالع القمر﴾ ثم قال: ﴿أتدري كم بين المشتري والزهرة من دقيقة؟﴾ قلت: لا والله ... قال: ﴿أفتدري كم بين الشمس والسنبلة - أي العذراء أحد بروج السماء الاثني عشر[(١)] - من دقيقة؟﴾ قلت: لا والله ما سمعته من أحد من المنجمين قط. قال: ﴿أفتدري كم بين السنبلة وبين اللوح المحفوظ من دقيقة؟﴾ قال: لا والله ما سمعته من منجم قط. قال: ﴿ما بين كل واحد منهما إلى صاحبه ستون أو سبعون دقيقة﴾ ... ثم قال: ﴿يا عبد الرحمن! هذا حساب إذا حسبه الرجل ووقع عليه عرف القصبة التي في وسط الأجمة - الشجر الكثيف الملتف - وعدد ما عن يمينها، وعدد ما عن يسارها، وعدد ما خلفها، وعدد ما أمامها حتى لا يخفى عليه من قصب الأجمة واحدة﴾[(٢)].

وتضمنت الرواية دلالات هامة:

---

(١) المعجم الوسيط: ج١، ص٤٥٣، (سنبل).

(٢) الكافي : ج٨، ص١٩٥، ح٢٣٣؛ تفسير البرهان: ج٦، ص٣٩٥-٣٩٦، ح٢.

الأولى: أن الضابطة التي جعلها السائل للعلم وتعلم العلوم هو الدّين، فكل علم يضر بالدين يجب اجتنابه وهو محرم، وهذه الضابطة قد يغفل عنها بعض المؤمنين فيهدر عمره في الحرام والعصيان، وقد فصّل الفقهاء العلوم التي يحرم تعلمها في المكاسب المحرمة من الفقه من شاء فليرجع.

الثانية: أنّ الإمامعليه السلام قال: تعلم التنجيم لا يضر بالدين، وبمقتضى الأدلة الأخرى يتقيد ذلك بالتنجيم الذي لا يؤمن صاحبه بأن النجوم والقمر والأفلاك تؤثر في الأشياء من دون الله، وإلّا كان من الشرك وهو محرم. أما التنجيم الذي يتعلم لمعرفة أحوال النجوم والأفلاك وخصائصها وآثارها من دون نسبة التأثير إليها فلا إشكال فيه، وهذا ما أشار إليه الإمامعليه السلام؛ لأنه يعلم بحال عبد الرحمن وأنه رجل فاضل لا يقع في مهاوي الشرك في الاعتقاد فقال: «لا يضر بدينك».

الثالثة: أن الإمامعليه السلام كشف عن حقيقة هامة فقال: «إن المنجمين يحسبون طالع القمر» ولاخصوصية للقمر، وإنما ذكره لأن السائل كان هكذا يعمل، والطالع هو اصطلاح المنجمين والفلكيين يراد به ما تنبأبه المنجم من الحوادث بطلوع كوكب معين يسمى بذلك من باب الاطلاع والنظر، أو الاستشراف على الشيء من علو(١).

وفي عين الحال أظهر خطأ ما يقوله المنجمون فقال: «كثيره لايدرك» أي لا يعلم به «وقليله لا ينتفع به» لأن قول المنجم قد يصادف الواقع

(١) المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٦٢، (طلع).

أحياناً إلّا أنه بالقياس إلى ما يخطؤه كثير، فلو اعتمد الناس على أقواله وقعوا في الخطأ الكثير الذي يضيع فائدة الإصابة القليلة.

الرابعة: أنه عليه السلام أشار إلى أن المسافة بين الأفلاك واللوح المحفوظ لا يدركها المنجمون، وهذا سر خيبة ظنونهم وخطئهم في التنبؤات؛ لأن اللوح المحفوظ فيه تجتمع المقدرات الإلهية، والله سبحانه يقضي ويقدر بحكمته، ولا علاقة للنجوم والكواكب في ذلك، فالذي يصدق تنبؤه هو المطلع على اللوح المحفوظ وليس ذلك إلّا النبي والإمام عليه السلام؛ لذا إخباراتهم تصيب الواقع، وهي عين الحقيقة، فيجب على الناس الالتجاء إليهم والتعلم منهم لا الذهاب إلى المنجمين؛ لأن المنجم ليس لديه أكثر من التنبؤات الظنية والاحتمالية التي خطؤها أكثر من إصابتها، وأما عند النبي والإمام فهو العلم الحقيقي.

الخامسة: كشف الإمام في قوله عليه السلام عن حقيقة هامة تحدثنا عنها سابقاً وهي أن أسرار الوجود مودعة في القرآن والسنة لو التفت إليها المتخصصون ووضعت لها الدراسات والميزانيات لبلغوا مراقي عالية في العلوم والمعارف، فقال: «ما بين كل واحد منهما - أي الأفلاك - إلى صاحبه ستون أو سبعون دقيقة» هذا حساب إذا عرف تمكن العالم به أن يحصي المخفيات، ويطلع على مواقعها، وإذا علم عن خفايا أعدادها المشتبكة فإنه يكون أعلم بخواصها وآثارها وفوائدها.

وهذا سر يكشفه الإمامعليه السلام لنا، ويعززه: قولهعليه السلام: ﴿واعلموا أنكم إن اتبعتم طالع المشرق سلك بكم مناهج الرسول فتداويتم من العمى والصمم والبكم﴾[١] ولهذا تفسيران:

الأول: مادي يستند إلى ظاهر العبارة، وهو أن معرفة حساب الطالع بالبيان الذي أفاده الإمامعليه السلام يوجد القدرة على معالجة العمى.

الثاني: باطن يستند إلى دلالة الإشارة الحقيقية، وهو أن الطالع هو طلوع المهدي عجل الله تعالى فرجه لو طلع يسلك بالناس مناهج الرسولصلى الله عليه وآله، ويداويهم من عمى الجهل والضلالة، وللبحث تفاصيل لسنا بصددها[٢].

---

(١) البحار: ج٣١، ص٥٥٧، ح٥٢؛ وانظر الكافي: ج٨، ص٦٦، ح٢٢.

(٢) انظر مجمع البحرين: ج٣، ص٥٦، (طلع).

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة نستعرض بعضها:

التعليم الأول: العروج البدني والروحي للبشر

الآية المباركة وبدلالتي المنطوق والإشارة تحدثت عن العروج المادي للقمر والطلع والأبدان البشرية، وتحدثنا عن منازل القمر ومنازل الطلع وهي أربعة لكل منهما. أما البشر فلهم نوعان من العروج: العروج البدني والعروج الروحي، وفي العروج البدني هناك منازل أربعة يمر بها الناس هي مراحل أعمارهم، وهي مرحلة الطفولة ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة، وبعدها يموت البدن ويفنى في التراب، وهذه المراحل هي آية من آيات الله سبحانه مودعة في الناس لو يلتفتون؛ لأن كل الفعاليات والتكامل الذي يحصل بالأبدان هي غير اختيارية، وهي في عين الحال عاملة في نظام واحد دائب الحركة، ومتوجه لغاية واحدة هي كمال البدن البشري وسعادة الإنسان بلا اضطراب ولا اختلال.

لا يملك الإنسان في هذه المراحل إلّا ثلاثة أشياء هي أن يأكل ويشرب ويلبس، وأما التغذية ليست بيده، والتنمية ليست باختياره، وحتى نومه ليس باختياره، ولا عافيته وصحته ومرضه باختياره، وفي ذلك دلالة على ثلاثة أمور:

الأول: أن البشر ليس مجبراً بنحو مطلق، بل له اختيار على فعله وهو الأكل والشرب واللبس، ولكن ليس له اختيار في استثمار الأكل والشرب إلّا ما كان بالواسطة.

الثاني: أن الإنسان فاقد للسلطة على نفسه، وهو يتقلب في كل شؤونه في قدرة الله وعلمه وعنايته، فلا يمكن أن يخرج من حكومته وقدرته، فهو أضعف مما يتصور، ولو شاء فليجعل معدته تتوقف عن هضم طعامه، وليأمر أمعاءه أن لا تمتص غذاءه، أو يمنع عينه عن الإبصار، وأذنه السماع وعقله عن التفكير.

الثالث: أن النظام هو القاعدة والميزان الذي يعمل فيه بدن جميع الناس، فلا يختلف إنسان عن إنسان. كله في تنسيق دائب ومتكامل يعمل، فلا فرض ولا استبداد ولا إقصاء لبعض خلاياه لغيرها، وعافية الإنسان وصحته وسلامته في هذا التنسيق والتكامل، ومتى ما اضطرب أصاب الإنسان المرض، ولو تفاقم الاضطراب مات، فليتعلم الناس هذه الحقيقة التي تعيش في وجودهم أن النظام والتنسيق والتعاون هو أساس راحتهم وسعادتهم وتطورهم، وبخلاف ذلك يصابون بالأمراض والموت، وأنهم عباد لله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ليبطلوا الغرور والعجب والطغيان، فهم لا يملكون سلطة على أنفسهم فكيف يجحدون ربهم أو يعصون أوامره وأحكامه؟ هم بنعمته أحياء، وبفضله ورحمته عائشون، فكيف يجرؤون على جحوده

أو عصيانه؟ ولو يسأل الذين يجحدون الخالق العظيم أنفسهم ترى كيف وجدت هذه الأبدان؟ وكيف عملت بهذا النظام؟ هل يعقل إن الصدفة هي التي أوجدت ذلك؟ ولو كان كذلك لماذا لا تتناقض الأبدان ويكون لكل بدن نظامه الخاص؟ بل وكيف في البدن الواحد آلاف الفعاليات والأنظمة تعمل بتنسيق كامل؟ لماذا صدفة لا تتبدل المهام؟ فالعين تخرج في الصدر، والقلب ينبت في الرأس، والرجل من البطن، والرأس في الرجل وهكذا الذين يدعون العلم والمعرفة والعقلائية في التفكير كيف لهم أن يغفلوا عن هذه الحقيقة؟

والذين يدعون العلم ومعرفة الفيزياء والفلك وفسلجة الخلايا والنباتات وسائر العلوم لو نظروا إلى وحدة القانون والغاية في الأشياء لا يمكنهم إلّا الإذعان لوحدة الخالق المنظم المدبر، فإن القانون الحاكم في القمر هو ذاته الحاكم في التمر، وهو ذاته الحاكم في الأبدان البشرية، فهل يعقل حصل هذا عبثاً أو صدفة؟ إن العقول السليمة لو التفتت إلى هذه الحقيقة لا يمكنها إلّا الإذعان للخالق ووحدته وحكمته وتدبيره. هذا هو العروج البدني وآثاره ودلالته الذي يكون آية لجميع الناس، وحجة عليهم في نفس الوقت.

العروج الروحي قسمان

وأما العروج الروحي فهو قسمان: عروج العقل وعروج القلب، وكل منهما له أربعة منازل، وقد ذكر أهل المعقول أن العروج العقلي يتحقق باليقين وهو العلم وعلم اليقين وحق اليقين وعين اليقين. هذه هي المراحل الأربع التي تتكامل بها الحقائق، وبها يتفاوت الناس في مستوياتهم في العلم والمعرفة، والغالب من الناس يعيشون في المرحلة الأولى، ولو ارتقى بعضهم يبلغ علم اليقين، والخواص منهم يرتقون إلى الثالثة، وعباد الله المصطفون يبلغون الرتبة الرابعة والأخيرة، وهي المرتبة التي يقول عنها أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً»[١].

وبهذه المراتب يتفاوت الناس في مستوياتهم الإنسانية والمعرفية والأخلاقية، فكلما ازدادت درجة اليقين قلّت المعاصي وارتكاب القبائح، وازدادت المحاسن وفعل الخير.

مراتب اليقين والمعرفة

واليقين ما يحصل عن فكر واستدلال، ولذلك لا يوصف علمه تعالى باليقين؛ لتنزهه عن الكسب والاستدلال، بل هو علم لدني، فاليقين أدنى مراتب العلم، ويشترك فيه الناس فيما يعتقدون، وبما أن الاستدلال قابل

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٣١٧؛ البحار: ج٤٠، ص١٥٣.

للشك والشبهة والخطأ فإن هذه المرتبة قد تختلط بالجهل المركب، أو أن صاحبها يشك و يضعف يقينه، وعلم اليقين أعلى رتبة من الأولى ويحصل بتأكيد القطع بالتجربة، كالشخص الذي يؤمن بالنبيﷺ بعد أن يرى معجزته وكمال أخلاقه وعلمه بالغيب.

وعين اليقين أعلى رتبة من الثانية؛ إذ يرى الحقيقة كمن يراها بعينه، فيتطابق العقل والحس عليها، وحق اليقين أعلى منها رتبة، وهو الذي يكون في الحقيقة ولا ينقطع عنها، ومثلوا لذلك بمثال الشخص إذا سمع بوجود البحر فإنه يتيقن بوجوده إذا كان المخبرون كثيرين وكانوا ثقاتاً كلهم، فإذا شاهد في الأفلام والصور البحر يزداد يقيناً ويبلغ علم اليقين، فإذا ذهب إليه واقترب منه يبلغ عين اليقين، وإذا دخله واغتسل به يبلغ حق اليقين، وهكذا معرفة الله سبحانه، فإن العباد يتفاوتون فيها، فبعضهم يعلم بوجوده وحكمته وجماله وجلاله بالدليل والبرهان العقلي والإخبار النقلي، وهذه أدنى المراتب، فإذا استشعر لطف الله ورحمته واستجاب له دعاءه وحقق له آماله ونجاه من مرض ورزقه وأطعمه يبلغ علم اليقين، وإذا ارتقى وتجلت عليه صفات الخالق في الكمالات والفضائل، وصار متوجهاً منعطفاً إليه يكون قد رآه في كل شيء وهو عين اليقين، وأما إذا ارتقى ورآه في كل شيء، وأنه لايغيب عنه، وأنه كلّه فقر وحاجة إليه بحيث لاتشغله عنه الشواغل يبلغ حق اليقين، ويراه ليس برؤية العقل فقط، بل برؤية القلب، وهذا منتهى العروج العقلي للبشر.

مقامات العروج القلبي

وأما العروج القلبي فهو أيضاً في أربعة مقامات بأربعة منازل.

ومقامات القلب الصدر والقلب والفؤاد واللب، ومقامات البشر ودرجاتهم بحسب قلوبهم، فالصدر للإسلام، والقلب للإيمان، والفؤاد للمعارف، واللب للتوحيد والعبودية التامة ولكل واحدة منها بحث مفصل وطويل.

وأما منازل القلوب فأربعة: أولها سلامة القلب من الشك، والثاني سلامة القلب من الهوى المضل والأنانية، والثالثة سلامة القلب من الرياء والعجب، والرابعة سلامة القلب من ذكر كل شيء سوى ذكر الله سبحانه.

وبالمقام الأول يبلغ المنزل الأول أي نفي الشك عن الصدور وهو الإسلام، وهذه حقيقة إسلام العبد، وبالمقام الثاني يبلغ المنزل الثاني أي نفي الهوى من القلب، و هي حقيقة الإيمان، ولذا صار الحب والبغض والتولي والتبري من علائم الإيمان، فالموالي هو الذي لايتبع هواه، بل يسلم قلبه لربه وأوليائه.

وبالمقام الثالث يبلغ المنزل الثالث أي نفي الرياء والعجب عن فؤاده، وهي حقيقة المعرفة؛ لأن بهذا المقام يدرك حقيقة فقره وعجزه وحاجته، وحقيقة غنى مولاه وقدرته وعظمته فينقطع إليه.

وبالمقام الرابع يبلغ المنزل الرابع أي نفي الأغيار عن توجهه وحبه وذكره، وهذه هي حقيقه العبودية التي يطلبها الطالبون.

وبهذا يتضح أن مقامات العباد ودرجاتهم ومستوياتهم تعود إلى قلوبهم، وعلى قدر العروج القلبي يقتربون ويبتعدون، وإن علوهم وارتقاءهم يعود إلى قلوبهم في التصفية والتحلية والتزكية والتربية. هذا هو العروج الروحي، وكلما ازداد المؤمن رعاية لقلبه وحظي بالقلب السليم من الشكوك والهوى وضلالات العجب والرياء انقطع إلى الله سبحانه، وبلغ مقامات الولاية، وصار عبداً لربه، وإلّا كان عبداً لمقاماته، ولا يخلو إما أن يكون عبداً لشكوكه وأوهامه، أو عبداً لهواه، أو عبداً لأنانيته وغروره، ومثل هذا يستحيل أن يرتقي ويعرج بروحه إلى المقامات العالية.

وهو في كل ذلك يحتاج إلى الغذاء. بالغذاء يملك طاقة العروج، ويبصر الطريق.

غذاء العروج الروحي

الغذاء الروحي للعروج القلبي ثلاثة:

الأول: القرآن الكريم.

الثاني: الروايات الشريفة.

الثالث: الأدعية والمناجاة، فإنها السبيل الوحيد لعروج النفوس والأرواح وتهذيبها، وكل طريق آخر يدعى أنه يوصل فهو وهم ولا أساس له. يقول الباري عز وجل: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ**﴾(١)

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٢.

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ هذَا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[(١)] فبالقرآن شفاء النفوس والعقول والأبدان، وبه يبصر طريق السعادة في كل مجال ومعترك.

وبالروايات الشريفة يقترب العبد منهم عليهم السلام، وإذا اقترب العبد من القريب صار معه، وفي صحيحة زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث الإمامة قال: «أما لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه وتكون جميع أعماله بدلالته إليه ماكان له على الله عزّ وجل حق في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان»[(٢)].

ويدل الحديث على ثلاثة أمور هامة:

الأول: أن القرب من الله سبحانه والإيمان ليس بكثرة العبادة بل بسمو المعرفة.

الثاني: أن المعرفة الأهم والتي عليها تدور رحى المقامات المعنوية للعباد هي معرفة الولاية لولي الله سبحانه، وركن الولاية لولي الله موالاته أي محبته والانقطاع إليه؛ لذا قال: «فيواليه».

الثالث: أن الإيمان والمعرفة يدوران على اتباع ولي الله في جميع الأعمال، فعلمه وعباداته وأخلاقه وتهذيبه وتربيته يأخذه من ولي الله، وهنا يظهر أن المؤمنين أيضاً على درجات ومقامات، وهي على قدر أخذهم وتشبههم بأولياء الله.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٢) الكافي: ج٢، ص١٩، ح٥؛ وانظر المحاسن: ص٢٨٧، ذيل ح ٤٣٠.

ويتلخص من هذا الحديث الشريف أن العروج الروحي لا يكون إلّا بهمعليهم السلام وبالأخذ عنهم وبالتشبه بهم في الصفات والأخلاق والآداب، وكل طريق آخر غير طريقهم موصد لا يوصل، وربما يتوهم أهله أنهم يصلون أو وصلوا لكنه وهم، والروايات الواردة بهذا المعنى كثيرة(١).

منها: الحديث المتواتر بطرق العامة والخاصة عن أبي عبد اللهعليه السلام أن رسول اللهصلى الله عليه وآله قال لعليعليه السلام: «يا علي! أنا مدينة العلم وأنت بابها، فمن أتى من الباب وصل. ياعلي! أنت بابي الذي أوتى منه، وأنا باب الله، فمن أتاني من سواك لم يصل إلي، ومن اتى الله من سواي لم يصل إلى الله»(٢).

وبهذا تنبيه لثلاث فئات من الناس: العامة وأهل الكتاب وأهل العرفان، كما يقولون كل يريد الله والرسول ولكن لا طريق للمسلم إلّا بالأخذ من عليعليه السلام، ولا طريق لأهل الكتاب إلّا بالأخذ عن الرسولصلى الله عليه وآله وآله، فهو الخاتم لما مضى، والفاتح لما استقبل، ولا طريق لأهل المعرفة إلّا بطريقهماعليهما السلام.

وأما الأدعية والمناجات فهي الطريقة القويمة لمناجاة الله سبحانه والتمجيد والتسبيح والتهليل له وكل دعاء منها يفتح باباً من أبواب الغيب ويفتح أبواباً للمعرفة وبلوغ المقامات الروحية العالية.

---

(١) انظر الوسائل: ج٢٧، الباب ٧ من أبواب صفات القاضي، ص٦٨-٦٩، ح٣٣٢٢٠، ح٣٣٢٢١، ح٣٣٢٢٢، ح٣٣٢٢٣، ح٣٣٢٢٤، ح٣٣٢٢٥.

(٢) تفسير الفرات: ص١٢؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ٧ من أبواب صفات القاضي، ص٧٦، ح٣٣٢٤٢؛ وانظر المستدرك: ج٣، ص١٢٦؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١١٤.

التعليم الثاني: منازل تكامل الإنسان

تعلّمنا الآية المباركة أن التكامل والسعي إلى الكمال من أهم غايات الموجودات، وأن كل شيء لابد وأن يتكامل، ولولا تكامله فسد وانتهى، وأعظم وأهم تكامل في الوجود الإمكاني هو تكامل الإنسان؛ لأنّه أعظم المخلوقات، وتكامله أهم غاية من وجوده، وتكامل الإنسان له أربعة منازل أيضاً:

الأول: التكامل العقلي، وأثره يظهر في كمال الفكر.

الثاني: التكامل النفسي، وأثره يظهر في كمال الأخلاق.

الثالث: التكامل العملي، وأثره يظهر في كمال الأفعال.

الرابع: التكامل المعرفي، وأثره يظهر في كمال الاعتقاد.

وهذه الأركان الأربعة هي التي تقوم عليها الحياة الإنسانية فردياً واجتماعياً وحضارياً، وكل ما نلحظه حوالينا من حضارات وتطور علمي وإنساني يعود إلى هذه الأربعة؛ لأن الإنسان ليس إلّا هذه الأربعة، وهذه هي أهم غاية بعث لأجلها الأنبياء وأنزلت الكتب السماوية وشرعت الشرائع والأحكام وتكاملت التعاليم والمناهج، وخاتمها هو مانزل به القرآن الكريم وجاء بها النبي والأئمة عليهم السلام للبشر، ولو أردنا تصنيفاً لآيات الكتاب العزيز فإنّها في المجموع تتضمن هداية الخلق إلى أقوم الأفكار والحقائق والتعاليم لتربية الإنسان فكرياً وأخلاقياً وعلمياً وعقيدياً؛ لأنّ بها يكون كاملاً متوازناً مع غايات خلقه، وواصلاً إلى سعادته، وبهذا يتضح الجواب عن سؤال قديم وجديد لازال يثار عن فلسفة الدين والغاية من

بعثة الأنبياء ونزول الشرائع السماوية، وقد أجاب عن ذلك أهل المعقول من الإلهيين بأجوبة كثيرة تعود إلى اختلاف المباني والمدارس الفكرية، فللفلاسفة والحكماء أجوبة، وللمتكلمين أجوبة، ولأهل العرفان بالمعنى المصطلح أجوبة بعضها يعود إلى البرهان، وبعضها يعود إلى الأدلة النقلية، وقد استوفوا في مجموع ماذكروا الكثير من الغايات.

فأجوبة الفلاسفة بعضها ناظرة إلى الضرورات الاجتماعية، وهو جواب الفارابي[(١)]، وبعضها ناظرة إلى الحاجة إلى العدالة الاجتماعية التي تقوم بالشرائع والأديان وهو جواب ابن سينا[(٢)]، وبرهن عليه صدر الدين الشيرازي والسهروردي وغيرهما[(٣)]، وأجوبة المتكلمين بعضها ناظرة إلى قاعدة اللطف كما يظهر من كلمات الشيخ المفيد[(٤)] والسيد المرتضى[(٥)] والخاجة نصير الدين الطوسي[(٦)]، وبعضها ناظرة إلى قاعدة الحسن والقبح العقليين كما يظهر من كلمات الشيخ الطوسي والعلامة الحلي[(٧)]. هذا فضلاً

---

(١) أفكار أهل المدينة الفاضلة: ص٢٨٠- ٢٩٣.

(٢) الإشارات والتنبيهات: ج٣، ص٣٧١- ٣٧٣.

(٣) الشواهد الربوبية: ص٣٣٧- ٣٤٥.

(٤) النكت الاعتقادية (للمفيد): ص٣٥.

(٥) الذخيرة في علم الكلام: ص٣٢٣.

(٦) انظر كشف المراد: ص٣٥٠.

(٧) تمهيد الأصول (للطوسي): ص٦٨٥-٦٩٥؛ كشف المراد: ص٣٥٠؛ الباب الحادي عشر: ص٣٤-٣٥.

عن الطرق التي سلكوها أهل العرفان لإثبات ذلك عبر مراتب السير والسلوك والارتقاء المعنوي إلى غير ذلك مما قرروه[١].

فمن أراد الإطلاع على ذلك عليه الرجوع إلى آرائهم لكننا قد لا نحتاج إلى هذه الطرق والبراهين التي أقاموها، وقد قررنا في بحثنا وجوهاً عقلية خمسة لذلك تبدأ من الضرورات التكوينية والتشريعية والعلمية، ولكن حيث إن الحقيقة بعضها عقلية وبعضها نقلية لابد من النظر إلى القرآن والسنّة الشريفة لمعرفة ذلك، وما قرره القرآن أوسع وأنقى مما ذكروه.

ما هي وظائف الأنبياء؟

وقد ذكر القرآن أكثر من عشر وظائف للأنبياء لا يستغني عنها البشر كلها تهدف لكمال الإنسان وتكميله، ولا يمكن أن يحصل عليها الناس إلّا عبر الأنبياء مهما تطور العلم وتحضرت الحياة. أكتفي بذكر ثلاث منها وأوكل التفاصيل إلى الأبحاث الموضوعية:

الوظيفة الأولى: هداية الناس إلى معرفة عبادة الله سبحانه وتجنيبهم من عبادة الطاغوت، أي عبادة كل ما يوجب الطغيان والتمرد والظلم. قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾[٢]

---

(١) انظر الجوهر المراد (للاهيجي): ص٣٦٢-٣٦٣؛ الفتوحات المكية: ج٤، ص١٦١.

(٢) سورة النحل: الآية ٣٦.

وبهذه الآية يلخص الباري أهم غاية من غايات الأنبياء، وهي تخليصهم من عبادة الطاغوت وهدايتهم لعبادته؛ لأن بعبادته سبحانه يكتملون فكراً وخلقاً وعملاً واعتقاداً.

بعبادة الله يتوجهون لمن يستحق العبادة وهو المنعم الحقيقي الذي وهب لهم نعمة الوجود ونعمة الحياة وكل ما بينهما من نعم ظاهرة وباطنة، وبعبادته يتعلمون أداء الحقوق لأهلها وعدم الظلم والتجاوز، وبها يتواضعون فلا يتكبرون ويتعالون، وبها يتحررون من القيود والأغلال، بخلاف عبادة الطاغوت فإنها مظهر كل نقص ورذيلة، ولذا عرِّف الطاغوت بأنه كل معبود من دون الله(١)، وهذا ما يؤكده الواقع، فإن البشر كلما ازدادوا قوة في المال أو في العلم أو في السلطة إذا لم يكونوا من عباد الله سبحانه يطغون ويعبدون مالديهم، وتصبح القوة التي بايديهم إلهاً تعبد، وتقام لأجلها الحروب والاستعمار والاستغلال، فلا يأمن الناس بحياة آمنة مطمئنة إلّا بعبادة الله، ولا يعلمون العبادة الحقة إلّا بالأنبياء، فلولاهم وقعوا بين محذورين كلاهما مر.

أولهما: أن لا يعبدوا.

وثانيهما: أن يعبدوا ما يخلقون، وكلاهما طغيان وانحدار في المستوى العقلي والروحي والفكري للإنسان، وتؤكد الحقائق التأريخية أن البشر كلما

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٢٠، (طغى).

ابتعدوا عن نهج الأنبياء انقادوا إلى الشرك والظلم والجور، وشاركوا بدمار الأرض وزوال حضارتها.

الوظيفة الثانية: تعليمهم الهداية والحكمة وتزكية النفوس وكل ما لا يعلمون، وهذه العناصر أهم ما تقوم عليها حضارة الإنسان، أي الهداية إلى الله، والحكمة في السياسة والتربية للنفوس لكيلا تطغى وتتمرد، والعلم. لخّص ذلك قوله تعالى: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾[1] وهي دالة على حقائق كثيرة، وما يهمنا منها هنا اثنتان:

الأولى: تعليم الناس نوعين من العلوم:

الأول: ما يحتاجونه لحياتهم اليومية. قالت: ﴿**يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ أي علوم الشرائع والأحكام، والحكمة أي السياسة العامة ووضع الشيء في موضعه.

والثاني: تعليمهم علوماً يستحيل أن يعلموها إلّا بواسطة النبي صلى الله عليه وآله، ولذا لم يقل: (لم تكونوا تعلمون) أو كنتم تجهلونها وإنّما قال: ﴿**وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾، ومن هذه العلوم الحقائق الغيبية، فإن عقول البشر لا تبلغها إلّا بتعليم الوحي، ومنها المعارف الدينية والحدود والأحكام، ومنها الكثير من العلوم الطبيعية التي ذكرها النبي صلى الله عليه وآله في كلماته والناس

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥١.

غافلون عنها في الطب والفلك والفيزياء وأخبار الماضين ومصير العالم ومستقبل الدنيا وغيرها.

وبذلك يتضح أن الأنبياء لم يكونوا قادة أخلاقيين أو هداة اجتماعيين فقط، بل هم فاتحون للعلوم والمعارف، وأئمة للعدل، لولاهم لم يتعلم الناس ولم يهتدوا إلى سبيل.

الثانية: تعليم الناس تزكية النفوس وتربيتها وتهذيبها وتصفيتها من الرذائل لتكون راقية في مستواها ومشاعرها وانجازاتها، فإن هذا العلم لا يوجد إلّا في الدين، ولا يعرفه إلّا النبي والإمام عليهما السلام، ولو ابتعد الناس عنه وقعوا في محذوري البهيمية فيعيشون هموم البهائم وشهواتها، وتتلخص حياتهم بالطعام والشراب والنكاح ونحو ذلك، والسبعية فيعيشون كأطباع السباع في الاستغلال وسيطرة القوي على الضعيف.

وقد بُذلت محاولات لدراسة علم التربية، وأسست له مناهج، وأنشئت جامعات ومعاهد لكنها جميعاً لم تستطع أن تبني إنساناً كاملاً، ويوماً فيوماً تظهر عيوب هذه المناهج وفشلها؛ لأن الإنسان في انحدار أخلاقي وروحي مستمر.

والنكتة اللطيفة التي أشارت إليها الآية والتي لم تدركها حتى العلوم الحديثة أن التعليم والارتقاء العلمي لا يقوم بالتعليم فقط، بل بالتزكية والتهذيب؛ لأن العلوم هي قسمان: نظرية اكتسابية والقائية إفاضية، وهذه الثانية هي أساس الذكاء والفتوحات العلمية الكبيرة؛ فإن العالم مهما بلغ من العلم يفتقر إلى الهداية والإلهام الإلهي، ولولا الإلهام لم تتطور العلوم،

والآية الشريفة تكشف عن هذه الحقيقة، وتفيد أن التزكية من أسباب التعليم؛ لأنّها توفر الاستعداد والقابلية في النفس لأجل إفاضة العلوم الربانية عليها، وهذا السر العظيم لا يمكن أن يتعلمه الناس إلّا بواسطة الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام.

الوظيفة الثالثة: الحياة الطيبة التي هي طموح كل إنسان على وجه الأرض، ومعلوم أن الإنسان له حياتان: واحدة في الدنيا والثانية في الآخرة، وهي الأهم والأعظم، وفي الحياة الدنيا هناك أصناف وأنواع للحياة ولا تختص بحياة واحدة. منها حياة العقل، ومنها حياة القلب، ومنها حياة الروح، ولكل واحدة منها آثار وخواص، وفي الآخرة هناك أنواع أخرى من الحياة لا يسعنا المجال لذكرها.

الحياة الطيبة في الدين فقط

والآية ترشد الناس إلى حقيقة هامة تعجز عنها جميع العلوم والمعارف البشرية وجميع التقنيات، وهي أن الحياة الطيبة التي هي طموح الجميع لا تتحقق إلّا بالأنبياء، والبشرية لا تعيش ما تستحقه من العيش الكريم في دنياهم وفي أخراهم وبعقولهم وقلوبهم وأرواحهم إلّا بتعاليم الأنبياء؛ لذا يقول سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعَاكُمْ لِمَا**

يُحْيِيكُمْ﴾[١] وفي آية أخرى يشير إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقوله: ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[٢].

فمهمة النبي صلى الله عليه وآله هي توفير الحياة الطيبة للناس، فالبعض يتصور أن الحياة بالعلم الذي وصل له العالم، والبعض يتصور أن حياته بالمال والثروة، أو بالسلطة والنفوذ، لكن هذا ليس هو الحياة بالمعنى الدقيق لها. نعم هو عيش، وأمّا العلم فيوفر للإنسان المعيشة، وكذلك المال والسلطان، ولكن الحياة التي تعني السعادة العقلية والقلبية والروحية البعيدة عن الآلام والهموم والغموم فضلاً عن الجسدية هي الحياة في المنازل الأربعة المتقدمة، فإن كل هذه لا يحققها العلم، وإنما الإيمان والعمل الصالح واتباع نهج الأنبياء، ومهما تطور البشر لا يمكن أن يوفر لنفسه الحياة وان وفر لنفسه المعيشة[٣]، وهذا ما تؤكده البراهين العقلية، وأكتفي بالإشارة إلى بعض الحقائق في هذا المجال:

الحقيقة الأولى: أن الفطرة الإنسانية والعقل القاطع يجزمان بوجود حياة أخروية ينتهي إليها الناس بعد رحيلهم من الحياة الدنيا، وتلك الحياة تختلف عن هذه الحياة من حيث المعايير والأرزاق وكيفية المعيشة والسعادة

---

(١) سورة الأنفال: الآية٢٤.

(٢) سورة النحل: الآية ٩٧.

(٣) انظر نفحات الرحمن : ج٣، ص٧٨؛ بيان السعادة: ج٢، ص٤٢٥ تفسير الآية ٩٧ من سورة النحل.

والشقاء، فإذا كان المال هو معيار مهم في الحياة الدنيا فإن العلم والمعرفة هو المعيار المهم في الحياة الآخرة.

وإذا كانت العلقة بالأمور المادية من جمال ومفاخر ومصالح هي مبادئ هذه الحياة الدنيا فإن مبدأ التولي لأولياء الله والتبري من أعدائهم هو المبدأ الذي تقوم عليه تلك الحياة الآخرة، وإذا كان الطعام والشراب هو المقوّم لهذه الحياة الدنيا فإن العبادة والذكر والتسبيح والتهليل هو الطعام والأساس الذي تقوم عليه تلك الحياة مع وجود الطعام والشراب المادي، إلّا أن الطعام الأهم هو التسبيح والتحميد والذكر، وإذا كان الفناء والزوال هو مصير هذه الحياة فإن تلك الحياة مصيرها الدوام و البقاء.

الحقيقة الثانية: أن العقل والعلم غير كافيين لإيصال البشر إلى حقيقة تلك الحياة الأخروية، والبشرية بالرغم من ارتقائها في العلوم ظلت قاصرة عن بلوغ حقيقة تلك الحياة ولم تدركها ولم تعرف شيئاً عن حياة الإنسان بعد الموت، وهذه الحياة هي الأهم والأرقى والتي يجب أن يتعرف عليها الناس ويطلعوا على أحوالها؛ لأنها مصيرهم أجمع.

وهنا تتجلى أهمية الدين ومدى الحاجة إلى الأنبياء؛ لأنهم يخبرون عن تلك الحياة والمصير الذي يلاقيه الناس في ذلك العالم، ولولاهم لم يتعرف على تلك الحياة أحد، بل ومن جانب آخر فإنه لولا الدين والأنبياء لاندثرت الحياة الإنسانية الاجتماعية والمدنية وصارت حياة الناس أشبه بحياة الحيوانات المحكومة بالجهل والتصارع والوحشية.

الحضارة البشرية مدينة للأنبياء

فإن البشرية والحضارة بكافة صورها وأشكالها مدينتان للأنبياء – كما تقرر ذلك بجملة من الدراسات الاجتماعية ودراسات فلسفة الأديان – والشاهد على هذه الحقيقة أن التقدم الذي أحرزته الإنسانية في مجالات العلوم والفنون والصناعات والتجارات وغيرها لم يستطع أن يلغي دور الأنبياء فيها، ولازال العالم يدين للديانتين المسيحية والإسلامية كأكبر الديانات السماوية، ولازال عيسى المسيح والرسول المصطفى ﷺ أعظم شخصيتين آمن بهما البشر على طول التأريخ، وكل المبادئ التربوية والحقوقية والأخلاقية التي تملكها الإنسانية المعاصرة هي عبارة عن إرث روحي وأخلاقي توارثوه من الأنبياء، فكل القيم الأخلاقية والمعنوية على الأرض هي بتأثير الأديان السماوية وكلمات الأنبياء ونهجهم، وهذه الحقيقة يذعن لها أهل البحث والتحقيق من سياسيين وحقوقيين وتربويين وكبار قادة العالم على طول التأريخ.

ومهما حاولت السياسة وأهل الدنيا أن يحرفوا هذه الحقيقة أو يضللوها وينكروا أثر الأديان والأنبياء في الحياة الإنسانية فشلت، وكان مثلها مثل من يحجب الشمس بالمنخل.

وبعد هذه الحقيقة تبطل ثلاث دعوات لازال أهل السياسات المادية يرددونها ويعقدون لها الندوات ويؤلفون الكتب.

الأولى: دعوى عدم الحاجة إلى الأنبياء والأديان؛ لأن البشر بلغوا بعقولهم ومستوياتهم مديات يستطيعون بها أن يحكموا أنفسهم، وأن يبلغوا في المعارف إلى ما يريدون، فإن هذه الدعوى مبنية على مكابرة كبيرة أو جهل بحقيقة الأديان وغايات بعثة الأنبياء.

والشاهد عليه أن العالم اليوم وقد ارتقى علمياً لكنه انحدر روحياً، وحتى العلم الذي بلغه صار وسيلة للاستعباد والاستغلال بدلاً من أن يحرر الناس، وجاء لهم بالخوف والقلق والفقر والأمراض بدلاً من أن يأتيهم بالسلام.

والشاهد الآخر أن المجالس المقننة في العالم وقد تضمنت بعضها كبار القانونيين والحقوقيين والسياسيين لا زالت تخرج بقوانيين ظالمة تحمي القوي، وتأكل حقوق الضعيف، وتحمي المعتدي ولا تنصف المعتدى عليه.

ومتى ما تعب العالم من الضياع والحروب وابتلي بالأمراض الروحية يشعر بشدة حاجته للأنبياء والكتب السماوية.

الثانية: دعوى أن العلم والصناعة المتطورة وفرت للناس السعادة وحققت لهم ما يطمحون إليه من العيش الكريم، وهذه دعوى تجتمع على بطلانها مئات الشواهد على أن العيش الكريم ليس في الدار الواسعة والسيارة والطائرة وصعود القمر ونحوها من مسائل بالرغم من أهميتها إلّا أنها ليست أساس السعادة، وإنما السعادة تأتي بالحب والخير والأمن والسلامة من الأمراض والتعاون على البر والتقوى ومعونة الضعيف وإطعام الجائعين واحترام الكبير والعطف على الصغير. هذه هي السعادة،

ولم يستطع العلم والصناعة أن يأتي بالسعادة هذه، وإنما الأنبياء والأديان هي التي تأتي بذلك؛ لذلك قال تعالى: ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[(١)].

الثالثة: دعوى أن التقنيات البشرية قادرة على إدارة الحياة الإنسانية على أفضل نظام، وأن السلطة التشريعية والتنفيذية في الدول على المستوى المحلي أو الدولي تضمن للناس العدالة، وهذه الدعوى هي الأخرى تجتمع مئات الشواهد على زيفها وبطلانها، ولو كانت صحيحة لما انتشر الظلم والفساد في الأرض، وبات الجميع في خطر عظيم، والحكومات تضع وزارات ومؤسسات لمكافحة الظلم والجور، والمحاكم التي تعاقب الجناة والمجرمين، ورغم ذلك تجد أن المعني بمكافحة الفساد هو الآخر يحتاج إلى من يحاسبه على فساده، وأن القضاة الذين يحمون العدالة هم بحاجة إلى من يحمي العدالة منهم، وهكذا تدور الحياة في حلقات مفرغة من الظلم والفساد.

ويتلخص من هذه الحقائق: أن البشرية بأمس الحاجة إلى الدين وإلى النبوة، وإلى التشريعات النبويّة لأجل ضمان العدالة والحياة الحرة، ولا يقال: كيف تقولون ذلك وهذه البلاد التي تنتمي إلى الإسلام ضعيفة وضاجة بالمفاسد والظلامات؟

والجواب: أنها ضجت بذلك لأنها ابتعدت عن الإسلام ومناهج النبوة الفردية والاجتماعية، واتبعت المناهج الوضعية، وآمنت بعقولها وعلومها

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٧.

ولم تؤمن بتشريعات الباري عزّ وجل، ولم تلتزم بأحكامه وحدوده، ولذلك ضجت بالفساد، ولو التزمت بذلك لتطورت وصارت في أعلى مستوياتها، كما تبدلت بداوة العرب الجاهليين إلى حضارة ومدنية في زمن الإسلام.

ولو لوحظ بعض الحكومات أو الدساتير تنتمي للإسلام أو تقرر بعض المبادئ فذلك لايعني أنهم عملوا بالإسلام وطبقوا أحكامه.

وبذلك يتضح أن التكامل الإنساني في أبعاده الأربعة أي التكامل الفكري والنفسي والعملي والعقدي - أي التحضر الحقيقي للبشر - لا يحصل إلّا بدين النبي المصطفى ﷺ؛ لأنه أكمل الأديان، ونبيه أكمل الأنبياء وسيدهم، ومن بعده اتباع الأئمة الأطهار عليهم السلام، ثم من بعدهم من يتبع نهجهم وسيرتهم وهم العلماء الربانيون، وبدون هذا النهج لا يصل الناس إلى خير وسعادة، ولا يكتملون التكامل الحقيقي وإن تصوروا أنهم اكتملوا بما لديهم من علوم، وفرحوا بما لديهم من معيشة.

التعليم الثالث: أن النظم والتدرج في الارتقاء هو أساس التطور وتحقيق النجاحات في الحياة، فليس النجاح أن يملك الإنسان الرغبة والطموح أو يملك البرنامج له فقط، بل لا بد من توفر شرطين آخرين هما:

النظم والتنسيق، أي الأولويات والالتزام الدائب بذلك، وبهذا يتميز الناجحون المتفوقون على غيرهم، ويعرف سر نجاح بعض الناس و فشل بعضهم الآخر، فيجب أن يتعلم الإنسان من الحقائق الكونية كالقمر والطلع كيف يتكامل وينتظم و يقضي على الفوضى والعبثية حتى يصير سعيداً، ويكون ناجحاً ومحققاً لأهدافه.

التعليم الرابع: خصائص المتفوقين في الحياة

نتعلم من الآية المباركة ضرورات أربع تعد هي أهم خصائص المتفوقين من الناس:

الأولى: السعي الدائم للتسامي والارتقاء.

الثانية: العطاء الدائم المستمر دون كلل ولا تعب.

الثالثة: التجرد من الغرور و الأنانية؛ لأن كل صعود وراءه هبوط، وكل قوة وراءها ضعف.

الرابعة: الهدوء والتوازن، فالعطاء مع الضجيج والصخب يفقد رونقه والكثير من أثره، بل قد يرتد ضرراً أو ناقضاً لنفسه أو لغرضه.

وهذه هي صفات الأنبياء والأولياء ومن ينتهج نهجهم. أنفسهم منهم في تعب والناس في راحة، ويعطون دون توقع للجزاء، ويمشون على الأرض هوناً دون صخب ولا ضجيج، وهكذا هي حركة القمر وحركة الطلع على الشجر.

وللتيمن في خاتمة البحث نذكر ثلاثة أحاديث: الأول والثاني عن الإمام الصادق عليه السلام الذي أجمعت البشرية على علوه وتفوقه، في العلوم والمعارف على سائر العلماء في بيان فلسفة بعثة الأنبياء، وفي مكانة العلماء في الأمة، والثالث عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

الحديث الأول: رواه الكليني قدس سره في الكافي بسنده عن الصادق عليه السلام لما سأله ملحد أو مخالف للدين عن غاية الرسل والدليل على وجوب

وجودهم قال عليه السلام: ﴿لما أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ولا يلامسوه، فيباشرهم ويباشروه، ويحاجهم ويحاجوه ثبت أن له سفراء في خلقه يعبرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم ومابه بقاؤهم وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، والمعبرون عنه جل وعزّ، وهم الأنبياء وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس - على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب - في شيء من أحوالهم، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز - نفوذ - عدالته﴾[(١)].

ويلخص الحديث أهم خصائص الأنبياء وغاياتهم في ثلاث هي:

أولاً: يدلّون العباد إلى ما ينفعهم ويضرّهم من المصالح، ومن أهم المصالح هدايتهم إلى معرفه الله وعبادته واجتناب عباده الطاغوت.

ثانياً: يدلّون العباد إلى مابه حياتهم الأبدية وبه فناؤهم.

ثالثاً: يؤدّبون العباد بالحكمة والتعلم للعلوم والمعارف، وهذه كلها تقصر عنها العلوم البشرية.

---

(١) الكافي: ج١، ص١٦٨، ح١؛ وانظر التوحيد: ص٢٤٩، ح١.

الحديث الثاني: رواه الكليني قدس سره بسند معتبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وذاك أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً، فانظروا علمكم هذا عمن تأخذونه، فإن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»(١).

وفيه دلالات تؤكد ماذكرناه في التعليم السابق:

الأولى: أن العلماء الذين يرثون الأنبياء هم الذين يرثون علومهم وينقلونها للناس، وأن الحظ الوافر للبشر في ذلك.

الثانية: أن على الناس أن لا يثقوا بكل من انتسب إلى العلم، بل عليهم أن يبحثوا عن العلماء الربانيين فيتبعوهم ولا يصدقوا بكل متحدث أو مدع مالم يتوثقوا منه.

الثالثة: أن العلماء الربانيين هم الذين يدافعون عن الدين، ويبطلون دعاوى المحرفين والغالين، والذين يتصدون لمقامات العلم وهم جهلاء يضيّعون الناس بمدعياتهم.

الحديث الثالث: رواه الكليني بسنده عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام. يقول فيه: «لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٢، ح٢؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ٨ من أبواب صفات القاضي، ص٧٨، ح٣٣٢٤٧.

وخوض اللجج. إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى دانيال: أنَّ أمقت عبيدي اليّ الجاهل المستخف بحق أهل العلم، التارك للاقتداء بهم، وإنّ أحب عبيدي إليَّ التقي الطالب للثواب الجزيل، اللازم للعلماء، التابع للحلماء، القابل عن الحكماء﴾[١].

وبهذا تتضح مكانة العلماء الربانيين وخصوصياتهم ووظيفة الناس في اتباعهم والاقتداء بهم، وأن من يجب الاقتداء به هو العالم الحليم، أي واسع الصدر الحكيم، أي المدبر.

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٥، ح٥؛ منية المريد: ص١١١.

لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ
الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ
وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

يس/ ٤٠

تأتي هذه الآية المباركة متممة لدلالات الآيات السابقة ومقاصدها، وهي معطوفة بالمعنى عليها، ومفادها أن من آياته سبحانه للناس أن الشمس لا تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، وجميعها سابحة في الفلك، مع أن القاعدة في السباحة تقتضي الإدراك والأسبقية وعدم الاستقرار، إلّا أن هذه الحقائق الكونية تخالف قانون السباحة العام وانضباطها بميزان ثابت ومستقر، والفرق بين هذه الآية والآيات السابقة أن تلك الآيات تحدثت عن ذات الشمس والقمر والليل والنهار، وأما هذه تتحدث عن حالاتها، وذكرت لها صفتين:

الأولى: السباحة والحركة الدائبة في الفضاء، وبذلك تشير إلى أن حركة الشمس والقمر والليل والنهار ليست بأرجل ولا بيد ولا بزحف، بل سباحة، ولهذه الكلمة (سباحة) دلالات كثيرة وهامة.

الثانية: أن سباحة هذه الكواكب ليست فوضوية ولا عبثية ولا مضطربة بين الحركة والسكون والشدة والفتور، بل هي حركة دائبة في نظم وتوازن دقيق ومحكم، فلا الشمس في سباحتها تدرك القمر، ولا الليل يسبق النهار.

وأما البحث في الآية فيقع في مباحث:

المبحث الأول: في مفردات الآية

وهي عديدة:

المفردة الأولى: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

وقد قدمناها لتوقف دلالة المفردات الأخرى عليها، فنقول: السبح هو المر السريع في الماء وفي الهواء(1)، ولذا يطلق على الانشغال الدائب بالعمل كما في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾(2) والتسبيح منه، ويراد به المرّ السريع في تنزيه الباري عز وجل عن النواقص عقيدة، وفي ذكره وعبادته عملاً(3).

والفلك المدار المستدير يسبح فيه الجرم السماوي(4)، وقيل: سمي بذلك لأنه كالفلك(5)، وفيه نظر؛ لأن الفلك اسم للمدار وليس للكواكب، ولو قال إن الكواكب في سباحتها فيه كالفلك كان وجيها.

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٩٢، (سبح).

(2) سورة المزمل: الآية ٧.

(3) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٩٣، (سبح).

(4) المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٠١، (فلك).

(5) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٤٥، (فلك).

وقيل السباحة من الانبساط، وكل ما انبسط في الشيء فقد سبح فيه، ولذا سميّ العوم في الماء سباحة[١]؛ لأن السابح ينبسط على الماء ويجد في حركته سهولة، وعلى كل تقدير فإن سباحة الشمس والقمر والكواكب دالة على ثلاث حقائق:

الأولى: أن حركتها دائبة ومتواصلة لو توقفت فنيت في الفضاء، كما هي حال حركة السابح فإنه لو توقف عن السباحة غرق في الماء.

الثانية: أن حركتها غائية وليست عبثية.

الثالثة: أنها حركة اختيارية، وبهذه الحركة تتحقق آثارها وخواصها. يشهد له وصفها بضمير العاقل في قوله: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[٢].

وهذا بحث هام وله آثار علمية مفيدة.

المفردة الثانية: ﴿لاَ﴾

في قوله تعالى: ﴿**لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا**﴾[٣] و: ﴿**وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**﴾[٤] وتحتمل معنيين:

---

(١) انظر المصطلحات: ص١٣١٤؛ معجم لغة الفقهاء: ص٢٣٩؛ المحاسن: ج٢، ص٥٧٠، الهامش.

(٢) سورة يس: الآية ٤٠.

(٣) سورة يس: الآية ٤٠.

(٤) سورة يس: الآية ٤٠.

الأول: أن تكون نافية، ومفادها الإخبار عن حقيقة كونية مبنية على نفي الإدراك والأسبقية بلحاظ نفي الموضوع، ولو انتفى الإدراك حقيقة دل على أنهما يجتمعان في زمان واحد، وكذا لو انتفت الأسبقية موضوعاً دل على عدم وجود أسبقية؛ لأن الاثنين يجتمعان في وقت واحد، وذلك يدل على كروية الأرض؛ إذ لا يصح أن يكون في الأفق شمس وقمر في وقت واحد، إلّا إذا كان في بعض الأرض شمس فيكون يومه نهاراً، وفي بعضها الآخر قمر فيكون يومه ليلاً.

الثاني: أن تكون نافية، ومفادها الإنشاء، ويراد بها النهي، والمعنى أن الشمس والقمر كلاهما لا يجتمعان في وقت واحد، وكذا الليل والنهار؛ لوجود أسبقيّة بينهما، إلّا أن الشمس مأمورة بحركة منتظمة لا تستطيع خرق قانونها لتلحق بالقمر، ولا الليل يستطع ذلك، فكل ميسر لقانونه ونظامه، وهذا قد يعضد القول بأن الأرض مسطحة دائرية لا محدبة كروية، ولو قيل لو كانت كذلك وجب أن تشترك جميعها في ليل واحد ونهار واحد؛ لأن الجواب حينئذ يكون له وجه غيبي بأن يقال إن ذلك في نفسه يكون آية لله سبحانه؛ إذ يجمع الشمس والقمر والليل والنهار في وقت واحد من دون أن يطغى أحدهما على الآخر، فيعزز قدرته وسلطته سبحانه على الأشياء، وهذا تؤكده الآيات الأخرى التي نصت على أن نور الشمس والقمر بيده سبحانه، وأن الشمس آية النهار والقمر آية الليل، وأنه سبحانه جعل آية النهار مشرقة ومحا آية الليل، فهو الذي يضيء الشمس ويضيء

القمر بقدرته، وربما محا إحداهما وأبقى الآخرى، وهذا ما يؤكده الواقع المحسوس؛ إذ في منتصف الشهر يرى القمر في السماء وفي وسط النهار لكنه غير مضيء، فتجتمع الشمس والقمر لكن أحدهما مشرق والآخر معتم، وهذا بناء على التفسير الفيزياوي المشهور أن نور القمر اكتسابي من نور الشمس، وباعتبار أن نورها أقوى يغطي على نور القمر ويمحيه.

وأما بناء على التفسير الغيبي فقد يقال بأن الباري عزّ وجل جعل القمر خافتاً نهاراً ومشرقاً ليلاً وبالعكس الشمس، كما هو الحال في الاتيان بالليل والنهار، وفي ذلك دلالة على سعة حكومته وسلطته ودوام تأثيره في الأشياء، فلا يوجد جبر ولا تعطيل في فعله سبحانه.

ويعزز هذه الدعوى قوله: ﴿**لَّا يَنبَغِي**﴾ فإن ينبغي قد ترد لبيان عدم الوقوع تكويناً، وقد ترد لبيان عدم النهي عن الوقوع تشريعاً، وهذا الغالب في استعمالها، وشواهده كثيرة منها قوله: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ**﴾[(١)] ويتضمن النفي معنى النهي للدلالة على أنه قادر عليه ولا يفعله.

وقوله عليه السلام: «فليس ينبغي لك أن تنقض اليقين بالشك»[(٢)] أمر بإبقاء اليقين على حالته السابقة، وعلى هذا تكون الشمس مأمورة بالانتظام في

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

(٢) علل الشرائع: ج٢، ص٣٦١؛ الاستبصار: ج١، ص١٨٣، ح٦٤١؛ التهذيب: ج١، ص٤٢٢، ١٣٣٥.

الحركة لكيلا تدرك القمر، وكذلك الليل، وقد تقدم البحث مفصلاً في أن حقائق الوجود كلها حية ومدركة، ولها عقل وحركة منتظمة ومتوازنة.

وإن قيل: إن الأبحاث العلمية أثبتت كروية الأرض فكيف يفترض سطحيتها

يقال: يمكن للمدعي أن يقول: إن أدلة كروية الأرض ظنية تقابلها أيضاً أدلة سطحيتها وهي ظنية، وما أكثر ما تخطأ الظنون، والصور المأخوذة عن الأرض الظاهرة في أنها كروية قد تكون من أخطاء الباصرة التي تجاوزت الثمانين، وعلى كل تقدير فإن البحث مجرد فرضية تستند إلى الظهور لكن التحقيقات العلمية المتوفرة تنفيها.

المفردة الثالثة: ﴿يَنبَغِي﴾

وهو بمعنى الطلب. أصله بغى يبغي أي يطلب، وهو من أفعال المطاوعة[1] ويدل على الاقتضاء الذاتي في الشيء، مثل ينقضي ويقتضي ويعتلي أي من ذاته، ومفادها أن الشمس باختيارها لا تطلب إدراك القمر؛ لأنها مأمورة بذلك فتطيع، ويؤيدها قوله: ﴿**تُدْرِكَ**﴾ و: ﴿**سَابِقُ**﴾ و: ﴿**يَسْبَحُونَ**﴾ فإنها ظاهرة في نسبة الفعل إلى الشمس والقمر والليل، ولهذا دلالات:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٣٧، (بغى).

منها: تعزيز ماذكرناه من وجود الحركة الاختيارية والحياة والإدراك في الشمس وسائر الموجودات، وتؤيده نسبة الضمير للعاقل في قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ وبه يتضح سر بعض الأدعية التي يخاطب فيها الإنسان القمر، كما في قوله: ﴿أيّها الخلق المطيع﴾[(١)] فإنه لولا العقل والإدراك فيها لم يصح ذلك كما ذكره بعض المفسرين[(٢)] والمنجمين[(٣)].

ومنها: أن ﴿لَّا يَنبَغِي﴾ إنشائية لا إخبارية فتكون ناهية لا نافية.

ومنها: أن النظام الكوني اختياري لا جبري، وبها تبطل نظرية الجبر التي تقوم على دعوى أن الإنسان مجبر في أفعاله، وتقديم (اللا) على الاسم والفعل يفيد تأكد النهي وعدم الوقوع، ولو قال: (لاينبغي للشمس) أو (الشمس لا ينبغي لها) أفاد عدم الوقوع الا أن في قوله: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾[(٤)] تفيد قوة النظام والميزان الذي تجري عليه، وقد ذكروا أن تقديم المسند إليه يفيد التأكيد[(٥)].

---

(١) مصباح المتهجد: ص٥٤١، ح٢٨٦؛ الصحيفة السجادية: ص١٩٩؛ وانظر عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١، ص٧٦.

(٢) انظر بيان السعادة: ج٣، ص٢٨٨؛ تقريب القرآن إلى الاذهان: ج٤، ص٤٥٠؛ مقتنيات الدرر: ج٩، ص٨٥.

(٣) انظر تفسير الرازي: ج٩، ص٧٢، المسألة الخامسة.

(٤) سورة يس: الآية ٤٠.

(٥) روح البيان: ج١١، ص٧٤.

المفردة الرابعة: ﴿تُدْرِكَ﴾

ومعناها البلوغ والوصول، واختلفوا في معنى عدم إدراك الشمس للقمر على أقوال:

القول الأول: إنها لا تدركه مكاناً لسرعة سير القمر وبطء حركة الشمس فإن القمر يقطع فلكه ويدور في منازله الثمانية والعشرين في شهر واحد، بينما الشمس تدور في أبراجها الاثني عشر في سنة، أو تدرك بالنزول إلى فلكه ومداره.

وفي ذلك حكمة عظيمة؛ لأن الشمس لو كانت بطيئة السير جداً لدامت زماناً كثيراً، وسطوعها المستمر على الأرض يحرق النباتات والحيوانات، ولو كانت سريعة كسرعة القمر لما نبت النبات، ولا أورقت الأشجار، ولا أثمرت الثمار، ولكان في الشهر الواحد صيف وشتاء، ويزول الربيع والخريف، والسرعة في تبدل الفصول تقتل الموجودات وتفنيها، وهذا القانون تفهمه الشمس وتدركه، وقد سخرت لأجله فلا تعصي الله سبحانه ما أمرها به، كما لا يتحرك أحدهما في مدار الآخر وإلّا ارتطما مع بعضهما، أو أبطل أحدهما الآخر، وكله خلاف الميزان.

القول الثاني: ذهب إلى أنها لا تدركه في الخواص والآثار؛ لأن لكل منهما خواصه ومنافعه، ولو اشتركا فيها اختل التوازن، وحصل الإفراط والتفريط في الآثار، فالتوازن قائم على أساس الخصوصية في كل شيء، وقديماً قالوا: إن الشمس تنضج الثمار ونور الكواكب يلونها، ويعطيها الطعم، وقالوا إن بعض كوكب سهيل مثلاً يعطي الحجر اللون الأحمر

فيصير عقيقاً، وهكذا باقي الكائنات تستنير من الشمس وجودها ونضجها، ومن القمر لونها وبريقها[١].

والقول الثالث: ذهب إلى أنها لا تدركه في سلطانه؛ لأن الزمان موزع على مملكتين: مملكة النهار ومملكة الليل، ولكل منهما سلطان وجنود، وسلطان النهار الشمس، وبإشراقها تحكم الأشياء، وتنير عليها، وتعطيها آثارها وخواصها وحكومتها بذلك؛ إذ لا تمتنع الأشياء من اكتساب المنافع من الشمس.

وسلطان الليل القمر، وبنوره يحكم الوجود، وينير على الأشياء ويعطيها خواصها، وكلاهما آية على عظمة الخالق ووحدانيته؛ لأن الشمس لو طلعت ليلاً مع القمر، بطل القمر ولو طلع القمر نهاراً بطلت الشمس واختل توازنها، وفي ذلك حكمة عظيمة أيضاً؛ لأن توزع السلطانين في زمانين يمنع من اجتماعهما؛ لأنهما إذا اجتمعا قامت القيامة.

وقد أخبر الباري عزّ وجل أن من أشراط الساعة اجتماع الشمس والقمر؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾[٢] وهذا كله في الشمس والقمر الفلكيين، وأما الشمس والقمر المعنويان الذي نصت عليهما الأخبار فهما النبي ﷺ إذ وصف بالشمس والإمام عليه السلام إذ وصف بالقمر فتدل الآية على أمور:

---

(١) انظر روح البيان: ج١١، ص٧٥.

(٢) سورة القيامة: الآية ٩.

الأول: أن النبوة والامامة كالشمس والقمر. كل منهما له آثاره ومنافعه وخواصه، ولكل منهما سباحة في الخلق يهدي ويعلّم كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً**﴾[(١)] وبوجودهما معاً يعتدل النظام، ويستقيم البشر، وتستقيم حياتهم.

الثاني: أن الإفراط والتفريط في الاعتقاد بهما يهلك العباد ويفنيهم، فيجب على العباد أن يؤمنوا بالنبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ ويتبعون، وكذلك في الاعتقاد بالإمامعَلَيْهِالسَّلَامُ. كل في مقامه ومهامه.

الثالث: أن للنبوة مقامات خاصة، وللإمامة مقامات فلا ينبغي للنبوة أن تصل إلى مقام الإمامة وتقوم بدورها وآثارها، فلذا لا يستغني الخلق عن الاثنين، فالخلق لا يستغني عن النبوة، ولا يستغني عن الإمامة، كما أن النبوة لا تستغني عن الإمامة، وهذا ما يقوله الإمامية من أن الإمامة أعلى من النبوة، أي لو اجتمعت النبوة والإمامة كانت الإمامة أرقى رتبة، ولذا قال الباري في إبراهيم الخليل بعد أن جعله نبياً ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾[(٢)] ففي درجة الارتقاء الإمامة أعلى من النبوة، والنبي المصطفى إمام الأنبياء والأئمة، وقد جمع النبوة والإمامة معاً.

وسر تقدم الإمامة على النبوة يعود إلى وجوه حققت في مباحث الكلام أكتفي بواحد منها، وهو أن الإمامة خلافه عن الله سبحانه في الأرض

---

(١) سورة المزمل: الآية ٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

ورئاسة عامة على شؤون الخلق في الدين والدنيا تشمل الملائكة والجن والانس والحيوان والنبات والجماد بتنصيب وجعل إلهي يثبت للإمام التقدم في ثلاثة أمور:

الأول: التربية والتعليم.

الثاني: الولاية والتدبير.

الثالث: الاقتداء والتأسّي.

إن النبوة مقامات بعضها محدود وبعضها مطلق وبعضها تبليغ عن الباري عز وجل وهداية للخلق تتوقف مهمتها على مقام التعليم، وربما يضاف لها الاقتداء والتأسّي، ولو اشتملت على الولاية والتدبير كانت إمامة أيضاً، فأعلى مقامات النبوة هي الإمامة، وللكلام تفصيل نوكله لمحله، ولا تنافي بين الأقوال والمعاني، ويمكن القول بها؛ لأن الدلالة التضمنية والتلازمية تتحملان أكثر من معنى.

المفردة الخامسة: ﴿وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾

وقال سابق بصيغة اسم الفاعل ولم يأت بصيغة الفعل للإشارة إلى أن هذه حقيقة ثابتة، وهي أن الليل والنهار يتحركان ويسبحان في الفضاء في مدة اليوم، فالنهار يطلع أولاً ثم يأتي الليل، ولا يمكن أن يلحق الليل بالنهار فيجتمعان في وقت واحد، بل بينهما تعاقب منتظم ودائم، وبه تظهر خواص كل منهما، وينتظم الوجود بجميع مخلوقاته.

ومعلوم أن القضية لها طرفان، فإذا نفيت أسبقية الليل للنهار بالملازمة دل على نفي تأخر النهار عن الليل، وفي ذلك دلالة على أن لليل مداراً

وللنهار كذلك يدوران حول الأرض، فالظلام يغطي نصف الأرض، والنور يغطي النصف الآخر، وهما يتبادلان الأدوار في الأربع والعشرين ساعة، فدورتهما أسرع من دورة القمر، وهو أسرع من دورة الشمس، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿**يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ**﴾(١) فالليل والنهار أحدهما يلف على الثاني ويدخل فيه حتى يغطيه، وهو مأخوذ من كور الشيء إذا لفه على جهة الاستدارة(٢).

والنكتة اللطيفة أن الآية في حركة الشمس والقمر قالت: لا ﴿**تُدْرِكَ**﴾ ولكن في اليل والنهار قالت: ﴿**وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**﴾ وذلك للإشارة إلى أمور:

أحدها: أن حركة الشمس والقمر فيها محطات وفواصل هي المنازل والأبراج، بخلاف الليل والنهار فإنها خالية منها، فكأنهما في حلبة سباق في الحركة، بخلاف الشمس والقمر فكأنهما في مقام عمل وأداء المهام والوظائف، ولدى أدائها لا بد من محطات هي تتراءى توقفات، وهذا يعزز ما أشارت إليه الآيات السابقة من منازل القمر والشمس.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٥.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٧٢٩، (كور)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٨٠٤، (كور)؛ مجمع البحرين: ج٣، ص٤٧٨، (كور)؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٥٤٦.

ثانيها: لتنبيه الناس إلى أن أعمارهم تنخرم في اليوم الواحد بمرور الليل والنهار، فينبغي أن يتسابقوا للعمل والطاعة لكي يفوزوا بالسعادة، فكما أن الليل والنهار في سباق فإن العمر كذلك.

وثالثها: تنبه الناس وتذكرهم بنعمة الليل والنهار، فإن لكليهما فوائد حاصلة في تعاقبهما، فلو اجتمعا أو اختل توازنهما بسبق الليل لتعطلت المنافع ووقعوا في الضرر البالغ، والنكتة الأخرى الترتيب السياقي، فإن الآية ابتدأت بالشمس، وفيها إشارة إلى أن النهار يبدأ بالشمس، وقالت الليل لايسبق النهار، أي أن النهار هو الأول، وفي ذلك إشارة إلى نكته فقهية وهي أن النهار يبدأ بطلوع الشمس لا بطلوع الفجر، وأما اليوم فيبدأ من طلوع الفجر، ولهذا آثار فقهية في الأحكام نوكلها لمحلها.

المفردة السادسة: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

اختلفوا في الواو هل هي عاطفة تفيد العطف على جملة ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ...﴾[١] أم هي حالية غايتها بيان حالة نظام الشمس والقمر والليل والنهار. جماعة من المفسرين ذهبوا إلى الأول، والظهور مع الثاني، وجماعة سكتوا عنها لكن الحق ماذكرنا، والتنكير والتنوين في قوله ﴿كُلٌّ﴾ بدلاً عن المضاف إليه المحذوف، والتقدير وكلها أو كل الكواكب في فلك يسبحون، و: ﴿فَلَكٍ﴾ نكرة وتتضمن معنيين هما

---

(١) سورة يس: الآية ٤٠.

الوحدة كقولهم جرادة أو سيارة أي واحدة، والثاني هو الطبيعة ويراد بها أن حلبة سباحة الكواكب حركة فلكية أي دائرية، ولا يعقل أن يراد الأول؛ لأن مفاده أن جميع الكواكب تدور في فلك واحد، وهذا يؤدي إلى اصطدامها وزوالها لتباين حركاتها ومواقعها، فيحمل على المعنى الثاني، ومفاده أن الكواكب تدور في مدارات متعددة ومختلفة من طبيعة واحدة، وهذا ما تؤكده النتائج العلمية.

وكان القدماء يعتقدون بالحركة الفلكية للكواكب، ولكن كانوا يقولون بأن لها طرائق مستديرة صلبة ترتكز عليها في سيرها كالشوارع للسيارات، والسكك للقطارات، وبعضهم قالوا إنّ الشمس في سيرها مجرورة بسلاسل وكلاليب كما هو معتقد القبط في مصر على ما حكي[1]، لكن الآية تبطل ذلك وتؤكد أن حركة الكواكب اختيارية ذاتية وغائية. وهنا أسئلة تفتقر إلى أجوبة.

السؤال الأول: لماذا قال في فلك ولم يقل في أفلاك بصيغة الجمع؟

والسؤال الثاني: لماذا قال وكل في فلك يسبحون ولم يقل وكلها في الأفلاك تسبح؟

والسؤال الثالث: لماذا حركة الكواكب في فلك وليست حركة أفقية أو عمودية؟

والسؤال الرابع: أن (كل) و(يسبحون) تفيدان الجمع والشمس والقمر اثنان فما الذي يشترك معهما ويكون جمعاً؟

---

(١) التحرير و التنوير: ج٢٣، ص٢٥.

والجواب: عن الأول والثاني واحد، وهو أنه لا يريد أن يثبت أن الكواكب تسبح وتتحرك في الأفلاك، وإنما يريد أن يثبت أن حركتها متوازنة ومنسقة ونظام واحد له مبدأ ومنتهى وغاية مشتركة، فجميع الكواكب المختلفة في جواهرها وأشكالها وآثارها خاضعة له، وهذه قضية في غاية الأهمية ترشد إلى أن القانون الواحد والنظام يجمعان المختلفات المتباينات في توازن واعتدال، بحيث كل شيء يؤدي مهمته ويعطي آثاره وخواصه، ويصل إلى غاياته، ولولاه لاختل النظام وضاعت الآثار، ولم يصل شيء منها إلى غايته ومبتغاه، وفي هذا تعليم عظيم للبشر في وجوب الانتظام تحت نظام موزون وقانون عادل بحيث يصل كل منهم إلى غاياته وأهدافه، ولولاه يعيشون التفرّق والتنازع والحروب والتأخر. كما أشير من بعيد إلى ضرورة وجود الإمامة والإمام في الناس وفلسفة ذلك، ولماذا إذا أخذ الله الحجة ساخت الأرض بأهلها.

ومعلوم أن النظام والقانون يجب أن يكون في نفسه عادلاً ودقيقاً وحكيماً لا يختلف ولا يتخلق ولا يخضع للأهواء والأمزجة وتبدلات الظروف والمصالح، وذلك ليس إلّا القانون الإلهي.

أما القوانين والأنظمة التي يجعلها البشر فهي قد تحقق للناس بعض المصالح إلّا أنها تضيع عليهم الكثير من النعم، وتحرمهم منها، وربما يتحقق بعض ما يريدون إلّا أنها من جهات أخرى تضرّبهم إضراراً بالغاً، وهذا الواقع الذي يعيشه البشر اليوم شاهد على هذه الحقيقة.

فلا توجد عدالة ولا توازن بين القيم والمصالح والدنيا والآخرة إلّا في الإسلام ومبادئه، ولو لوحظ أن بعض المنتمين إلى الإسلام شوَّهوا الصورة فذلك لم ينشأ من نفس الدين، بل من سوء فهم هؤلاء، أو سوء تطبيقهم، وللبحث في هذا تفصيل نوكله لوقته.

فالآية المباركة عبرت عن الأفلاك بصورة الفلك للإشارة إلى وحدة النظم والعلاقة والارتباط بين الكواكب، وعبّرت عن الكواكب بلفظ (كل) للإشارة إلى أنها جميعاً خاضعة لهذا النظام الواحد غير المتعدد ولا المضطرب أو المتباين.

ولو قالت: (وكلها في أفلاك سابحة) لدلّت على أنّ حركتها فوضوية ومتباعدة هنا وهناك، وهذا خلاف واقع الأفلاك المنتظم في نظام واحد من جهة، ولا يخدم غرض الآية، ولا يكون عبرة للناس، فالعظمة في النظام أن الكواكب السيارة وهي عظيمة جداً وكلها متحركة وفي فلك ولا تتصادم ولا تضطرب، ولا أحدها يسبق الآخر، فعلى الإنسان أن يتدبر لو كانت هذه الأفلاك والكواكب ليست من خالق قادر وعالم وحكيم لاضطربت ولتصادمت، وكانت حركتها فوضوية.

ولو كانت من أكثر من خالق وقادر تنوعت مراكز القدرة في الوجود، وهو الآخر أدى إلى التنازع والاضطراب، كما نلاحظ ذلك في البشر، لكن حيث إنها متعددة الجواهر متحدة النظام والقانون دلت على أن مكوّنها ومنظمها واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، وهذا ماتؤكده آيات عزيزة كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ**

الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[(١)] ومرجع الضمير في (فيهما) السماوات والأرض التي هي كل الوجود الإمكاني، وقد دلت على حقيقتين هامتين:

الأولى: أن كل آلهة غير الله سبحانه ناقصة وقاصرة ومصيرها الفساد حتى لوكانت واحدة، ولا شيء يوجد النظم ويتقن العدل والتوازن للوجود إلّا أُلوهية الباري عز وجل.

الثانية: ان تعدد الآلهة ينتهي إلى فساد العالم وفنائه بناء على أن الفساد هنا رفعي لا دفعي، أي تفسد بعد أن كانت صالحة، وربما يكون دفعياً أي لو تعددت الالهة استحال وجود العالم لبرهان التمانع، ولكن حيث إنه موجود (ومنتظم) دل على وحدة الموجِد وأنه الله سبحانه لا غير، وهذا نوع من البرهان المشترك بين الإنّي واللّمي، وهو قسم ثالث لم يتعرّض له أهل المعقول؛ لأنهم قسّموا البرهان إلى إنّي يتم به الانتقال من معرفة المعلول إلى معرفة العلة، ولّمي يتم به الانتقال من معرفة العلة إلى المعلول، ولكن الآية أشارت إلى قسم ثالث هو البرهان المشترك من الإنّي واللمّي معاً، فمن وحدة العالم وانتظامه نتوصل إلى وحدة المنظم، ومن وحدة المنظم نتوصل إلى أُلوهية الباري عزّ وجل.

وأنه لا خالق ولا ربّ ولا إله لهذا العالم إلّا إله واحد هو الله سبحانه، وهذه هي عصارة دعوات الأنبياء أن يدعوا الناس إلى وحدانية الآلهة

---

(١) سورة الأنبياء: الآية٢٢.

وانحصار الآلهة بالله سبحانه، كما ذكر شواهد ذلك القرآن، ولا يسعنا شرحها هنا[١]. هذا ما يقال في الجواب عن السؤال الأول والثاني.

وأما السؤال الثالث: فجوابه أن للحركة الفلكية مزايا وخصوصيات لا توجد في غيرها؛ لأنها حركة ليست عبثية، بل ضرورة يفرضها نظام التكوين والتشريع، ومن أهم مزاياها ثلاث:

الأولى: أنها تثبت وحدة النظام وتوازنه ووحدة المنظم وقدرته وحكمته في التدبير.

الثانية: لأن بها تحقق العدالة في النعم الإلهية والخيرات والبركات؛ لأن الحركة الأفقية والعمودية لها حالة واحدة وليست متغيرة ومتبدلة، وفيها يتعذر تحقق الليل والنهار والفصول الأربعة، وبهذا التبدل والتغير تدوم الحياة وتنمو وتتكامل الأشياء، ولولاها لفنيت الحياة حقيقياً واجتماعياً، وقد ورد ذلك في مضمون حديث قدسي عن الباري عزّ وجل وهو: ﴿لو وضعت الشمس في جانب خاص من الكون لرفع الغني بناءه، وحجب نور الشمس عن الفقير، ولكن وضعتها في أفق تدور فيه وتسير حتى يجد الفقير نصيبه من نورها وخيرها كما يجد الغني﴾[٢].

---

(١) انظر سورة الذاريات: الآية ٥١؛ سورة البقرة: الآية ١٣٣.

(٢) انظر تفسير الكاشف: ج٦، ص٣٠٦ تفسير الآية المباركة؛ تفسير الرازي: ج٢، ص١٠٨؛ الحكمة المتعالية: ج٣، ص١٤٣.

الثالثة: لأن الحركة الدائرية لها محور تدور عليه، وهذه المحورية تحفظ النظام والتوازن والاستقرار، ويصل بها كل إلى غايته، وهذا النظام نفسه الحاكم في السموات ذاته يحكم على الأرض، فمن الذرة إلى المجرة محكوم بالحركة الدورية، كما أنه ذاته يحكم في المعنويات، فإن الحياة البشرية تقوم على محورية الخالق في العقيدة، وعلى محورية القيادة الإلهية بالنبي والإمام ومحورية الدين والشريعة في القانون والنظام.

فالنظام الذي جعله الباري للبشر - عقيدتهم وأعمالهم وحياتهم الخاصة والعامة - يدور على توحيد الخالق والاقتداء بأوليائه الطاهرين عليهم السلام، فهم المحور الذي تدور عليه العقول والقلوب، ولولاهم لا يتحقق نظام ولا عدالة ولا تكامل ولا ارتقاء، وهذا ما أشارت إليه الصديقة الزهراء عليها السلام في خطبتها: ﴿فجعل الله ...طاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً للفرقة﴾[(١)].

والملة هنا بمعنى الدين والأمة معاً، بناء على جواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى، ودلالتها أعمق، أي أن طاعتهم توحد الشريعة والدين، وتمنع تفرّق المسلمين إلى فئات ومذاهب، وإن إمامتهم أمان للفرقة في المواقف والمسير العام للأمة، ومن هذا يتضح مدى وحدة النظام في ظاهر العالم وباطنه، والشذوذ عنه تكويناً يؤدي إلى الفوضى والاضطراب والفناء، كما أن الشذوذ عنه تشريعاً ومعنوياً يؤدي إلى الفوضى والاضطراب والهلكة.

---

(١) انظر البحار: ج٢٩، ص٢٢٣، ح٨؛ الاحتجاج: ج١، ص١٣٤؛ فقه الزهراء عليها السلام: ج١، ص٣٧٨-٣٨٥.

وأما السؤال الرابع: ففي جوابه احتمالات:

الاحتمال الأول: أن يكون عطف على ما مضى من آيات، وقد ذكرت الأرض والأنفس والأزواج؛ إذ جعلها جميعاً آيات فقال: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**﴾[(١)] وقال: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾[(٢)] ثم جعل من الآيات الليل نسلخ منه النهار، وكذلك الشمس والقمر، وكلها تشترك في غاية واحدة هي أنها آية دالة على وحدانية الخالق وعلمه وقدرته وحكمته وعزته، فإنها جميعاً آيات وتسبح في فلك، وهذه السباحة هي الأخرى آية أيضاً.

الاحتمال الثاني: المذكورات في الآية وهي الشمس والقمر والليل والنهار فإنها جميعاً تسبح في الفلك، ولو تم هذا دل على أن تعاقب الليل والنهار هو الآخر دوار ويدور في فلك، ويشهد له أن الليل يسلخ منه النهار، كما يسلخ نور القمر من الشمس بحسب ظاهره في أول الشهر؛ إذ يطلع من المحاق قليلاً قليلاً ثم يكبر ويتكامل وكأنه يلبس ثوب النور بعد أن كان مظلماً.

الاحتمال الثالث: ولعله الأقوى أن المقصود هو الأرض والشمس والقمر، وقد عبر عنها بالليل والنهار؛ لأن الأرض يتعاقب عليها الليل والنهار، وهي الظرف الذي يحدثان فيها، فيكون التعبير من ذكر

---

(١) سورة يس: الآية ٣٣.

(٢) سورة يس: الآية ٣٦.

المظروف وإرادة الظرف والواسطة في العروض، كما يقال للجالس في الطائرة إنه يطير ولكن بنحو المجاز، والمقصود أنه يطير بالطائرة، وكذا حينما يقول الليل والنهار يسبحان في فلك يراد به الظرف الذي يحدثان فيه وهو الأرض، ولذا قال: ﴿**كل**﴾ أي الشمس والقمر والأرض كلها تدور في فلك.

والنتيجة أن الشمس لا تدرك القمر، وهو الآخر لا يدرك الأرض مع أنها جميعاً سابحة، لكن لدقة حركتها وانتظامها لا تتصادم ولا تضطرب، وفي الأرض انتظام آخر لليل والنهار بحيث لا يسبق الليل النهار، أي أن النهار هو السابق والليل يعقبه، وقد ذكروا لسر أسبقية النهار وجوهاً:

الأول: أنها أسبقية وجودية، أي أن الباري عز وجل أوجد النهار قبل الليل، وهذا ضعيف لسببين:

أحدهما: العقل؛ لأن النهار حادث وهو متقوم بالنور، وهو الآخر حادث، والحدوث وجود بعد العدم، والعدم ظلام.

ثانيهما: قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**﴾[1] الظاهر في أسبقية الليل، وهو ضعيف؛ لأن الليل والنهار حادثان من الشمس والقمر، فهما متأخران، ولا علاقة لهما بالعدم الأصلي قبل الوجود.

---

(١) سورة يس: الآية ٣٧.

الثاني: الأسبقية الوظيفية، فإن النهار هو الذي يحقق غاية الإنسان؛ لأنه به تتم المعيشة وكسب الرزق والعلم والبناء، بينما الليل فبه تتم الاستراحة من ذلك.

الثالث: الاسبقية الزمانية، فإن الليل والنهار كلاهما حادثان ولكن النظام الحاكم جعل النهار مقدماً على الليل، وهو راجع إلى الأول وليس بشيء مغاير لملازمة الحدوث للزمان، ولا مانع من الجمع؛ لأن بها جميعاً تتحقق الغاية، وهي كونها آية للناس تعلمهم وحدة النظام والمنظم والعدالة في الحقوق والواجبات.

المبحث الثاني: في لطائف الآية

تدل الآية بدلالة الإشارة على لطائف هامة:

اللطيفة الأولى: آثار القمر معنوياً

أن الآية نفت أو نهت الشمس عن أن تدرك القمر، والدرك لحوق الشيء بالشيء ووصوله إليه[1]، ولا يقال إلّا إذا كان بينهما أسبقية؛ إذ لا يقال لما مضى إدراك وإنما وجدان، وهذا الفرق بين وجدت وأدركت[2]، والإدراك قسمان مادي ومعنوي، والوصول المادي يدل على وجود النظم بينهما بحيث يمتنع التقاؤهما؛ لأن التقاءهما يؤدي إلى التصادم وانهدام العالم.

والمعنوي يتضمن الإحاطة العلمية بالشيء عبر العقل أو عبر الحواس، ولذا يطلق على نباهة الإنسان وفهمه بالإدراك، وهو من مراتب العلم، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[3] أي لا

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ج٢، ص٢٦٩، (درك)؛ مجمع البحرين : ج٥، ص٢٦٥، (درك)؛ المعجم الوسيط : ج١، ص٢٨١، (أدرك).

(٢) معجم الفروق اللغوية: ص٥٦٨، (٢٢٩١) .

(٣) سورة الأنعام: الآية١٠٣.

تحيط به علماً ولا حساً. أما الأول فلقصور العقل المحدود عن الإحاطة باللامحدود، وأما الثاني فلأنه لا مادة ولا مادي لكنه يدرك الأبصار لأنه يحيط بها علماً.

ولا يبعد أن الآية ناظرة إلى نفي الإدراك المعنوي أيضاً، كما تشهد له نسبة الإدراك إلى ذات الشمس، وقد مر أن الكواكب حية مدركة ولها حركة غائية، وعدم إدراكها للقمر يدل على أن للقمر مزايا وخصائص أرقى من خصائص الشمس معنوياً يستحيل أن تدركها الشمس بناء على أن (لا) نافية، والشمس مأمورة في أن لا تدركها بناءً على أنها ناهية، والأول إخبار عن علو مكانة القمر وتفوقه على الشمس، وأن الكواكب فيها تفوق وقصور ذاتي، والثاني يدل أن الإدراك فيه مباح ومحظور يتبعان الوظيفة لكل منهما.

ويتضمن هذا إشارة إلى حقيقتين هامتين يجب أن نلتفت إليهما:

الأولى: أن على مراكز دراساتنا وجامعاتنا أن تكثف الدراسات والبحوث لمعرفة مزايا القمر وخصائصه فإنّ الآثار والمنافع الموجودة فيه أكثر مما موجود في الشمس، وما حققته العلوم من إنجازات لفهم الشمس وطاقتها وآثارها أمر مهم إلّا أن الآية تشير إلى أن منافع القمر أهم يجب التحقيق فيها.

فقد ذكرت التحقيقات العلمية أن للقمر آثاراً كثيرة وبعضها مادية تتعلق بالنبات، ومن تأثيراته في النبات أن نوره يساهم في سرعة إنبات البذور، وبسببه تقل مدة الإنبات إلى الثلث أو النصف، أي أن المدة التي يستغرقها النبات من دون نور القمر لو كانت شهراً كاملاً فإنها تنبت

وتنمو مع نور القمر في أسبوعين، كما ويساهم في سرعة نضج المحاصيل والثمار، كما توصلت إلى أن الشمس هي مصدر الطاقة الأكبر في الأرض، وأن بهذه الطاقة يقوم النبات بعملية التركيب الضوئي والتي هي أساس استمرار الحياة في هذا الكون، ولها الأثر في تلون الأوراق والثمار التي تختزن الغذاء و التنفس، وهذه الطاقة يستطيع ضوء القمر أن يعوضها بما يستغنى به عن ضوء الشمس.

وهذا يعني أن للقمر مزايا أكثر من مزايا الشمس، كما له مزايا معنوية كثيرة، فإن القمر مصدر إلهام الشعراء والأدباء وأصحاب الفكر، وليس له أثر سلبي أو طاقة سلبية على الأرواح والنفوس، كما أن طاقته جاذبة وليست دافعة، بخلاف الشمس فإن لها منافع وأضراراً؛ لذا لها جاذبة ودافعة فلذا لا تدرك الشمس القمر.

الثانية: أن هذه الحقيقة الثابتة للشمس والقمر الماديين ثابتة للشمس والقمر المعنويين، وقد مر في الأخبار تفسير الشمس بالنبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ والقمر بالإمام عَلَيْهِالسَّلَامُ[1]، ولو كانت الشمس لا تدرك القمر فإن النبوة لا تدرك الإمامة؛ لأن الإمامة مرتبة معنوية أعلى من النبوة، فإن إبراهيم عَلَيْهِالسَّلَامُ بعد أن اتخذه الباري نبياً قال: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ ولو اجتمعت النبوة والإمامة في شخص كانت إمامته أعلى من نبوته، وذلك لأسباب عديدة، أذكر ثلاثة منها:

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٢٤٢؛ شجرة طوبى: ج٢، ص٤٢٦.

الأول: لأن النبي بمنزلة العلة المحدثة للدين، والإمام بمنزلة العلة المبقية، والعلة المبقية أبلغ أثراً وفضلاً من العلة المحدثة؛ إذ لولاها انتقضت العلة المحدثة ولم يظهر أثرها.

الثاني: أن الإمامعليه السلام يحقق غاية بعثة النبيصلى الله عليه وآله، ولولاه كانت بلا أثر وفائدة، ولذا جعل تنصيب الإمام في الغدير المكمل للدين، ولولاه كان ناقصاً ولم يبلغ رسالته(١).

الثالث: أن الإمامة هي خلافة عن الله سبحانه على عباده، والنبوة سفارة بين الله وبين عباده، والخلافة أعظم شأناً وأوسع مهمة وأقوم صفة وعصمة وعلماً من السفارة، وأن الأرض قد تخلو من النبي ولكنها لا تخلو من إمام، وأن أولي العزم من الأنبياء إنما بلغوا ذلك بإمامتهم لانبوتهم على ما فصّلوه في علم الكلام، وتضافر مضمونه في الأخبار المعتبرة. يشهد للوجه الأول قول أبي الحسن الرضاعليه السلام للفضل بن شاذان يشرح له وجه الحاجة إلى الإمام - والرواية مفصّلة – منها: «أنه لو لم يجعل لهم إماماً قيماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملّة، وذهب الدين، وغيّرت السنن والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون، ونقص منه الملحدون، وشبهوا ذلك على المسلمين، إذ قد وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتت حالاتهم، فلو لم يجعل فيها قيّماً حافظاً لما جاء به

---

(١) الكافي: ج٨، ص٢٧؛ دعائم الإسلام: ج١، ص١٥.

الرسول الأول لفسدوا على نحو ما بيّناه، وغيرّت الشرائع والسنن والأحكام والإيمان، وكان في ذلك فساد الخلق أجمعين﴾[(١)].

ويتلخص أن ما يحقق الغاية من بعثة النبيﷺ ويوجب بقاء الدين والعدل الاجتماعي وصلاح العباد والبلاد هو الإمامعليه السلام، وهذه الغاية مستمرة في جميع الأزمنة والأمكنه ولا تختص بزمان أو مكان، فهي العلة المبقية لكل ذلك، ولذا تكون أكثر أهمية من العلة المحدثة.

ولذا قال الصادقعليه السلام: ﴿إن الأرض لا تخلو إلّا وفيها إمام كيما إن زاد المؤمنون شيئاً ردهم، وإن نقصوا شيئاً أتمه لهم﴾[(٢)].

وفي رواية أبي حمزة عن أبي جعفرعليه السلام قال: ﴿والله ما ترك الله أرضاً منذ قبض آدمعليه السلام إلّا وفيها إمام يهتدى به إلى الله، وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة لله على عباده﴾[(٣)] ومثلها وردت عن الإمام الكاظمعليه السلام، وفيها إضافة: من تركه ضل، ومن لزمه نجا حقاً على الله عز وجل[(٤)].

---

(١) علل الشرائع: ج١، ص٢٥٣، ح٩؛ وانظر عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص١٠٨، ح١.

(٢) الكافي: ج١، ص١٧٨، ح٢؛ شرح أصول الكافي: ج٥، ص١٢٣، ح٢؛ الفصول المهمة: ج١، ص٦٥٣، ح٢.

(٣) الكافي: ج١، ص١٧٩، ح٨؛ علل الشرائع: ج١، ص١٩٧، ح١١.

(٤) كمال الدين: ص٢٢١، ح٣؛ معجم أحاديث الإمام المهديعليه السلام: ج٤، ص١٤٨، ح١٢٠٨.

يتحصل منها: أن الأرض قد تخلو من النبي ولكن لا تخلو من الإمام الحجة، وأن الملتزم به ينجو، وأنَّ المخالف له يضل ويهلك، وهذه خصوصية ثابته للإمام وليست للنبي صلى الله عليه وآله.

وعن الصادق عليه السلام أن الإمامة هي أعلى المقامات المعنوية التي يصل إليها الأنبياء[1]، وفي الكافي الشريف في باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة عن زيد الشحام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ الله تعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وإن الله تعالى اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وإن الله تعالى اتخذه رسولا قبل أن يتخذه خليلا، وإن الله تعالى اتخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً، فلما جمع له هذه الأشياء قال: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً**﴾[2]»[3].

ووردت بهذا المضمون روايات عديدة[4] كلها تشهد بأن النبي إذا ارتقى في مقامات القرب الإلهي نال علو الدرجات، وأعلى هذه الدرجات هي درجة الإمامة، فتدل على أن مقام الإمامة هو الأقرب إلى الله سبحانه، ولذا تستمر خلافته لله سبحانه على عباده إلى نهاية العالم.

---

(١) انظر الكافي: ج١، ص١٧٤-١٧٥، ح١.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣) الكافي: ج١، ص١٧٥، ح٢؛ وانظر الاختصاص: ص٢٢.

(٤) انظر الكافي: ج١، ص١٩٨، ح١.

وفي رواية هشام بن سالم عن الصادقعليه السلام - يفصِّل فيها مقامات الأنبياء والمرسلين - يقولعليه السلام: ﴿الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات: فنبي منبأ في نفسه ولا يعدو غيرها، ونبي يرى في النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اليقظة، ولم يبعث إلى أحد، وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوطعليهما السلام، ونبي يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك وقد أرسل إلى طائفة قلوا أو كثروا كيونس. قال الله تعالى ليونس: ﴿**وَأَرْسَلْنَاهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**﴾[(١)] قال: يزيدون ثلاثين ألفاً، وعليه إمام، والذي يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة وهو إمام مثل أولي العزم، وقد كان إبراهيم نبياً وليس بإمام حتى قال الله تعالى ذكره: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَتِي**﴾[(٢)] فقال الله عز وجل: ﴿**لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[(٣)] من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً﴾[(٤)].

والصنم والوثن كالفقير والمسكين إذا اجتمعا. يراد بالصنم كل مجسَّم يعبد من دون الله[(٥)]، وبالوثن أعم منه، فيشمل كل معبود غيره سبحانه

(١) سورة الصافات: الآية ١٤٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٤) الكافي: ج١، ص١٧٤- ١٧٥، ح١؛ انظر الاختصاص: ص٢٢؛ البحار: ج١١، ص٥٥، ح٥٢.

(٥) مجمع البحرين: ج٦، ص١٠٣، (صنم).

كالهوى والسلطة، وفي الحديث فسّر الوثن بأنواع القمار[1]، فيدل على أن كل ناقص غير معصوم لا يليق بمقام الإمامة.

ولو طبقنا ذلك على ضوابط التفسير والتأويل التي ذكرت غير مرة نتوصل إلى أن مزايا الشمس تنطبق في النبي، فإن الشمس هي مصدر الطاقة المادية في الوجود، والنبي هو مصدر الطاقة المعنوية، وبالنبوة يعيش الناس الدين ويهتدون إلى توحيد الخالق وعبادته.

إلّا أن الطاقة المعنوية التي يفيضها الإمام على الموجودات أكبر وأعظم، فإن القمر المادي يساهم في إنبات البذور وإنضاجها وتنفسها وحياتها، وهذه هي مهمة الإمامة والإمام في المعنويات؛ إذ به تكتمل العقول والنفوس، وتنبت الحكمة والمعرفة وتستمر حياتها الروحية الباقية، ولولاه لظل الناس في الجهل وماتت قلوبهم، وهذا يفسر الروايات الكثيرة التي علقت قبول الإيمان والأعمال العبادية وغيرها على معرفة الإمام وولايته، فالحاجة البشرية إلى الإمامة والإمام أكثر من حاجاتهم إلى النبوة والنبي، وكما أن الشمس لا ينبغي أن تدرك القمر لعلو مكانته وآثاره فكذلك النبوة والإمامة؛ ولذا اجتمعت النبوة والإمامة في رسول الله صلى الله عليه وآله إذ به تتم الكمالات والسعادات الروحية.

---

(١) مجمع البحرين: ج٦، ص٣٢٤، (وثن).

اللطيفة الثانية: سرّ التطور والإبداع

إن الآية نفت أن يسبق الليل النهار، وفي ذلك دلالة على أنّ اليوم يبدأ بالنهار وأنّ الليل متأخر عنه، وقد ذكرنا لذلك فائدة فقهية في تعيين مبدأ اليوم الشرعي من طلوع الفجر، والنهار يبدأ من طلوع الشمس، وهناك فائدة ثانية لها الأثر الكبير في الكثير من الأعمال والصلوات والأدعية، وهي أن الليل داخل في اليوم، فلو قال زر الحسين عليه السلام يوم الخميس معناه يشمل ذلك ليل الخميس أيضاً ولا يختص بالنهار، ولو قال زره يوم الأربعين معناه نهاره وليله وهكذا، وقد أكدت الأخبار الشريفة أنه سبحانه خلق النهار قبل الليل(١)، وخلق الشمس قبل القمر، والنور قبل الظلمة(٢)، والنكتة اللطيفة هي التعبير عن نفي الأسبقية بصيغة اسم الفاعل: ﴿**وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**﴾(٣) للإشارة إلى حقيقتين هما حتمية الوقوع واستمراره، ولو سأل سائل لماذا؟

فالجواب: لثلاث غايات: واحدة حقيقية تكوينية، والثانية تعليمية، والثالثة نفسية. أما الأولى فللدلالة على دقة النظم في الحركة وثبات قانونها، والثانية فلتعليم الناس النظم والحركة المتزنة في الأفكار والأعمال لكيلا

---

(١) الاحتجاج: ج٢، ص١٠٠.

(٢) الكافي: ج٨، ص١٤٥، ح١١٦؛ موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام: ج٣، ص٢٤٥، ح٣٠٨١.

(٣) سورة يس: الآية ٤٠.

يسبق الإنسان أوانه فيفشل، فإن أكثر الفاشلين ينشأ فشلهم من طي المراحل الاستعدادية دون قانون، وأكثر الناجحين يراعون هذه الضابطة، فإن لكل شيء أواناً، وأفضل ما يحصل من نتائج هو ما كان في أوانه، فالتسرّع والتعجيل في النظم والإدارة يفشلان ولا يحققان نجاحاً.

وأما الثالثة فإن ثبات النظام يعطي للناس الشعور بالأمن والاستقرار والسكينة، وهذا الشعور هو أهم نعمة بها يحقق الإنسان طموحاته ويصل إلى أهدافه، فإن التطور والإبداع الإنساني يحصل في ظروف الأمن والاستقرار، والقلق والاضطراب يسببان الهزائم، وهذا قانون أثبتته التجارب؛ لذا نجد أن التطور العلمي والتقني والتجاري والصناعي يحصل في البلدان المستقرة، والتخلف والتاخر يحصل في البلدان المتنازعة المضطربة.

وهذا التطور الملحوظ في البلاد الغربية ناشئ من عوامل عديدة من أهمها الاستقرار الأمني والسياسي والاجتماعي الحاصل فيها منذ مئات السنوات، ومن أهم أسباب تأخر بلادنا ومجتمعاتنا هو انعدام الأمن والاستقرار، ولذا يخطط الغرب دائماً إلى إيجاد الحروب والمشاكل في بلادنا، وأخيراً اخترعوا ما عبروا عنه بالفوضى، ولخداع الناس وصفوها بالخلاقة، فإن الفوضى في بلادنا تنفعهم من جهات عديدة: منها تجارية وصناعية وسياسية، وتجلب لهم خيرة العقول حيث تهرب إلى بلادهم.

هذه الحروب في بلادنا الكثير منها مفتعلة يصنعها الغرب لأجل استعمارنا، والباري عزّ وجل يعلمنا أن وجود النظام ثم استقراره يجلبان

الأمن والسكينة للناس، وبها يتطورون ويرتقون، ولذا جعل عدم سابقية الليل للنهار آية.

وفي ذلك وردت بعض الروايات، ففي رواية القمي عن الباقرعليه السلام: «الشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل. لا ينبغي للشمس أن تكون مع ضوء القمر بالليل ولا يسبق الليل النهار»[1] والنفي المطلق دليل على ثبات النظم واستمراره.

اللطيفة الثالثة: أن الشمس والنهار ظرف الحياة والحركة والعمل، والقمر والليل ظرف السبات والراحة والسكون والنوم، وبالنظم الحاصل تتحقق دورة الحياة لكل كائن.

فقد مرت برهة لم يكن موجوداً ولم يظهر على مسرح الوجود ثم ظهر وأخذ يزاول حركته وحياته، ثم في آخر المطاف ينتهي عمره إلى وقت يسبت فيه ويموت.

ومن الثابت أن الأشياء حادثة ولحدوثها محدث؛ لاستحالة أن توجد نفسها، فهناك مرحلة قبل الحدوث لم تكن شيئاً مذكوراً ثم حدثت ثم تموت وتفنى في حركتها الظاهرية، ولم يصف القرآن الليل والنوم بالوفاة. قال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ**﴾[2] بينما عبر عن الصبح بالتنفس فقال:

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢١٤؛ تفسير الأصفى: ج٢، ص١٠٣٧؛ وانظر تفسير الصافي: ج٤، ص٢٥٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٦٠.

﴿وَالصُّبْحِ إذا تَنَفَّسَ﴾[١] لأن التنفس علامة الحياة، والوفاة علامة الموت، فعلى الإنسان أن ينظم نفسه ضمن هذا القانون والميزان فيعمل نهاراً ويرتاح ليلاً، فلو عكس الأمر دبّت فيه الأمراض وتعجلت وفاته، وهذا يفسر لنا السر في تضافر الروايات على استحباب التبكير في طلب الرزق، وفي السفر، وفي إنجاز الأعمال وكراهة النوم نهاراً، والكثير من الأمراض المستشرية اليوم وقلة الأرزاق والبركات ناشئة من انقلاب النظام ومشي حياة الناس على عكس القانون الإلهي فيسهرون الليل وينامون النهار.

اللطيفة الرابعة: التسبيح يوحد المخلوقات

قولة تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٢] الكل يعود على الشمس القمر والليل والنهار، ويسبحون يقترب في الإشارة من التسبيح وهو الذي يؤكده قوله تعالى: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٣] وهذا التعبير يرمز إلى معنيين:

الأول: أن سباحة الكواكب ودورانها في أفلاكها هو تسبيحها و عبادتها وفي رواية القمي عن الصادق عليه السلام حركة كل شيء تسبح لله عزّ وجل[٤]، ووجه التسبيح هو دلالتها على فقر المتحرك وحاجته إلى الغني المطلق،

---

(١) سورة التكوير: الآية ١٨.

(٢) سورة يس: الآية ٤٠.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.

(٤) تفسير القمي: ج٢، ص٢٠؛ البحار: ج٥٧، ص١٧٩، ح١٠.

ولعل الإتيان بضمير الجمع الخاص بالعقلاء في قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ للإشارة إلى انها مدركة ومطيعة ومنفذة لأوامره سبحانه التي لها سخرها.

الثاني: أن التسبيح هو السر المعنوي الذي يوحد حركة المخلوقات العينية والزمانية والمكانية، وبه تتحقق غاياتها، وتعطي أفضل خواصها، ولولاه تفشل وتفقد مبرر وجودها.

فإن التسبيح هو تنزيه الله سبحانه من النواقص والحاجات، وهذا هو عمق المعرفة والتوحيد بكل مراتبه - توحيد الذات والصفات والأفعال والعبادة - وغيرها من مراتب؛ لأن كل ما ليس بتوحيد هو نقص لا يليق بمقامه، وهو أشرف العبادات، ولذا نلاحظ أن الباري عز وجل أمر بالتسبيح في أهم الأوقات، وهي قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وأدبار السجود ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾[1] فالكسر أي آخر الليل الذي بعده يأتي الفجر وهو وقت عبادة الليل؛ لأن هذه الأوقات هي مبدأ اليوم ومنتهاه مادياً بالشمس والنهار ومنتهاه بالقمر والليل، وهي مبدؤه ومنتهاه، وهو أعظم عبادات الملائكة، وهو مهمة ملائكة العرش. يقول تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[2] وينظم حركة البشر في سياق العبادة، ويجعل أوقاتاً لها؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾[3] والآيات بهذا

---

(١) سورة الطور: الآية ٤٩.

(٢) سورة الزمر: الآية ٧٥.

(٣) سورة ق: الآية ٣٩.

المعنى كثيرة[١]، وفي سورة آل عمران يقول سبحانه: ﴿**وَاذْكُر رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**﴾[٢] وفي آية أخرى: ﴿**بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾[٣].

ويتحقق الذكر الكثير في الأوقات الأربعة المذكورة؛ لأنها أوقات شهود ملائكة الليل والنهار، فوقت طلوع الشمس تنزل ملائكة النهار وتصعد ملائكة الليل، ويلتقي الفوجان، فلو كان العبد في تسبيح وذكر يشهد له الفوجان، وفي آخر الليل وقت صعود ملائكة الليل ونزول ملائكة النهار، فلو كان في ذكر وعبادة وتسبيح شهدوا له بذلك، ويقول تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**﴾[٤] أي بعد السجود أو بعد الصلاة، وفي آية أخرى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ**﴾[٥] وفي بعض الأخبار وأدبار السجود نوافل المغرب، وبعضها غير ذلك، والأقوال كثيرة[٦] إلّا أن جامعها هو التسبيح والذكر بعد الصلاة، ولا يتعجل المؤمن في إنهاء صلاته ثم الانصراف، بل يجلس في مصلاه يذكر ويسبح ويحمد الله، ومن أفضل التسبيحات هو تسبيح فاطمة عليها السلام بعد كل صلاة.

---

(١) انظر سورة طه: الآية ١٣٠؛ سورة غافر: الآية ٥٥.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤١.

(٣) انظر سورة الأحزاب: الآية ٤٢.

(٤) سورة ق: الآية ٤٠.

(٥) سورة الطور: الآية ٤٩.

(٦) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١٢، ص٣٩٢-٣٩٣؛ الكافي: ج٣، ص٤٤٤، ح١١.

وعن الصادق عليه السلام أنه أحب إليه من صلاة ألف ركعة في كل يوم[(١)]، وفي رواية أخرى أن من سبحه كان من الذاكرين الله كثيراً[(٢)]، وأنه يطرد الشيطان ويرضي الرحمن[(٣)].

وقد ورد في الأخبار الشريفة أن تسبيح المؤمن وقت طلوع الشمس ووقت الغروب، وهو أن يقول عشر مرات: (لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير)[(٤)] وفيما عَلَّم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه: «واطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فإنه أسرع في طلب الرزق من الضرب في الأرض، وهي الساعة التي يقسّم الله فيها الرزق بين عباده»[(٥)] وهذا هو أفضل أوقات الطالبين والراغبين إلى الله سبحانه لإحياء القلوب والانقطاع إلى ربهم؛ لأنه وقت حضور الملائكة واستجابة الدعاء، ولا ينال الحظوظ والتوفيقات الإلهية فيها إلّا اليقظون.

وفي رواية الصدوق قدس سره بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما عجت الأرض إلى ربها عزّ وجل كعجيجها من ثلاثة:

---

(١) الكافي: ج٣، ص٣٤٣، ح١٥؛ ثواب الأعمال: ص١٦٣.

(٢) معاني الأخبار: ص١٩٣، ح٥.

(٣) ثواب الأعمال: ص١٦٣؛ الوسائل: ج٤، الباب ٨ من أبواب التعقيب وما يناسبه، ص١٠٢٣، ح٨٣٩٥.

(٤) مجمع البيان: ج٥، ص١٥٠.

(٥) الخصال: ج١، ص٦١٦؛ تحف العقول: ص١٠٦؛ الوسائل: ج٧، الباب ٢٥ من أبواب الدعاء، ص٦٨، ح٨٧٤٦.

من دم حرام يسفك عليها، أو اغتسال من زنا، أو النوم عليها قبل طلوع الشمس»[(١)] والعج رفع الصوت[(٢)]، والعجيج المبالغة فيه، والمراد به صوت الأذى والاستغاثة.

ونلاحظ أنه صلى الله عليه وآله جعل النوم قبل طلوع الشمس في سياق العظائم الموجبة للعذاب، فإن أفدح الجنايات التي ترتكب على الأرض هو القتل الحرام والزنا، ولهما آثار معنوية خطيرة تمنع البركات، وتقصرّ الأعمار، وتأتي بموت الفجأة، وكذلك النوم مثلها، وهو إن لم يكن ذنباً في الشرع فهو ذنب لدى أهل القلوب والمنقطعين إلى ربهم؛ لأنه يحرمهم من الخيرات والفيوضات الإلهية وهو لأهل الدنيا ضرر عظيم؛ لأنه يضيق أرزاقهم، وإذا لاحظ بعض الناس انعدام البركات وقلة الأمطار وازدياد الأمراض وضيق المعاش لأنهم بدلوا سنة الله سبحانه، فسهروا الليل، وناموا النهار، وفي أوقات التسبيح والعبادة لا تشهد لهم ملائكة النهار والليل حضوراً في مصلى أو مسجد أو لساناً ذاكراً.

وللأسف صارت هذه سيرة الكثير من المسلمين يسهرون الليالي في توافه الأمور في الغالب إلى طلوع الفجر ثم ينامون إلى الظهر، فهم في وقت تقسيم الأرزاق نائمون فلا يصلهم رزق فيضيق معشيتهم، وتظهر أمراضهم.

---

(١) الخصال: ج١، ص١٤١، ح١٦٠؛ الفقيه: ج٤، ص٢٠، ح٤٩٧٩؛ الوسائل: ج٦، الباب ٣٦ من أبواب التعقيب وما يناسبه، ص٤٩٧، ح٨٥٣٤.

(٢) مجمع البحرين: ج٢، ص٣١٥، (عجج).

المبحث الثالث: في تعاليم الآية

وهي عديدة:

التعليم الأول: ما سبب تأخر المسلمين؟ وما هو علاجه؟

إن وحدة الفلك والطبيعة وانتظام الكواكب فيه يدلنا على أن النجاح والفشل والانتصار والهزيمة في أداء المهام والإنجازات على الصعيد الفردي كالمدرس والمدير والوزير والتاجر والموظف أو على الصعيد الاجتماعي كالدولة والحكومة والمديريات والمؤسسات وعموم فعاليات المجتمع هذه جميعاً نجاحها يتقوم بثلاثة أركان هي:

الأول: وحدة الهدف.

الثاني: وحدة القانون.

الثالث: وحدة النظم والتوازن في العمل، والمقصود وحدة النظم لا وحدة العمل؛ لأن العمل يستحيل توحيده لاختلاف طبائع البشر وأذواقهم ومصالحهم، إلّا أن الممكن منه هو وحدة النظم والتوازن في الأعمال، ووحدة النظم توجب التنسيق والتعاون والتكامل، بخلاف وحدة العمل فإنها توجب التفرد والاستبداد.

أن واحدة من أهم أسباب تأخر المسلمين وابتلائهم بالأزمات والحروب والمشاكل والتأخر العلمي والصناعي هو أنهم يعيشون في أفلاك متفرقة ليسوا في فلك واحد، وتشتتهم أهداف كثيرة ولا يجمعهم هدف واحد، ويعملون في أنظمة متفاوتة لانظام واحد، مع أن دينهم ورسالتهم ومبادئهم هي خير ما أنزل الله سبحانه على الأرض، ولا مخلص لهم من هذا العناء إلّا بالعودة الحقيقية إلى الدين والاستقاء منه في الفكر والعلم والعمل وبناء الدولة والمجتمع المقصود الدين الذي جاء به النبي والعترة الطاهرة عليهم السلام لا ما جاء به البشر باجتهاداتهم وظنونهم، فإن الإسلام ونهج النبي والأئمة يجمع الناس تحت هدف واحد وقانون واحد ونظام كذلك، واليه يشير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[(١)] وفي آية أخرى: ﴿**فَاتَّقُونِ**﴾[(٢)] ولكن حيث إن الأمة الواحدة صارت أمماً اختلف الهدف والنظم والقانون ففشلت وذهبت ريحها، وفي آية أخرى قال: ﴿**تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾[(٣)] ولم يقل اتحدوا أو تسابقوا أو تحالفوا على البر والتقوى بل تعاونوا.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية٩٢.

(٢) سورة المؤمنون:الآية٥٢.

(٣) سورة المائدة الآية ٢.

التعليم الثاني: الحياة جميلة بالجميع

إن الذي يحقق السعادة والاستقرار النفسي والاجتماعي ويأتي بالنصر والتطور هو تكامل الأدوار بين الناس لا تنافرها. يعلمنا الباري عز وجل بواسطة الشمس والقمر والليل والنهار أهمية النظم والإحكام والإتقان في العمل.

فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر، ومعنى ذلك أنها يجب أن تقر لمكانته وفضله ولا تحتل موقعه، فإن القمر قمر في موقعه، والشمس شمس في موقعها، فلو أخذت الشمس مكانة القمر والقمر مكانة الشمس الكل ضاع وانهدم، فلا ينبغي لها أن تدرك القمر بل تحفظ مكانته، وبهذا تحفظ مكانتها أيضاً، والحياة بالشمس والقمر معاً جميلة وسعيدة، وكذلك جميلة بالليل والنهار ونظمهما وتناسقهما، فلو أخذ أحدهما مكان الآخر تعطل كل شيء.

فالكون جميل بوجود الكل وبمكانة الكل، الكل شركاء في صناعة نظامه وسعادته وحياته الحرة، وهكذا يجب أن تكون حياة الناس أن لا يبخس أحد حق أحد، ولا يحتل مكانه، ولا ينافسه على قوة أو سلطان تعسفاً؛ لأن الحياة بالجميع جميلة وسعيدة ومتقومة، ولو لاحظنا حياة الاسرة لو ألغت الأم مكانة الأب وألغى الأب مكانة الأم أو أراد أحدهما أن يحتل مكانة الآخر ماذا يصير؟ وفي المدرسة لو أخذ الطالب مكانة الأستاذ وبالعكس ماذا سيكون؟ وهكذا في الوزارة والحكومة والدائرة؟

فالحياة بوجود الكل جميلة، فالتفرد والاستبداد والاستغلال والاستعمار خطأ وخطيئة، ومنشأ هذه التعاسة التي يعيشها الناس في مختلف المستويات

ناشئة من هذا التنافس غير المشروع القائم على الأنانية والتفرّد والاستغلال.

يعلمنا الباري عز وجل أن عطاء الشمس بنفسها وبانضباطها في نظام التوازن الذي يحترم مكانة الجميع، ويقر بتفضيلهم، وكذلك القمر والليل والنهار، وهكذا يجب أن نكون نحن البشر.

التعليم الثالث: تطور الحياة بالحرية

أن الحياة تستقر وتدوم وتتطور بالحرية والحركة السابحة، فالتقييد في الحركة كالتقييد في الفكر والعلم والقدرة، فإنها تعرقل التطور والنماء، وبحركة السباحة في الوجود تم النظم وتوازنت الأشياء، وهي في تطور دائم ومستمر، ولو كانت الحركة غير ذلك لانهدم. نعم لا ينبغي أن يفهم بأن الحركة السابحة مطلقاً هي الأساس، وإنما الحركة السابحة في نظم وتوازن وتنسيق. هذه الثلاثة هي التي تصيّر الحركة حرة والعمل نشاطاً والتقدم تطوراً، وإلّا كانت فوضى ولا مسؤولية، وكلها عوامل هدم لا نجاح.

التعليم الرابع: أن في مجموع الآيات الدالة على حركة الشمس والقمر والليل والنهار اللذان يمثلان الأرض وكونها تجري في فلك منتظم ويجمعها جامع القوة والنظام ووحدة الغاية كشفاً علمياً عظيماً سبق به القرآن العلوم البشرية ولو كان الناس يدرسون آيات القرآن ويقرؤون معانيه قراءة علمية تخصصية لتوصلوا إلى هذه الحقائق قبل قرون، ولاكتشفوا من الأسرار ما لازال مجهولاً لديهم، وهذا شاهد آخر على حقانية القرآن والإسلام، وأنه من لدن عليم خبير.

الفهرس

إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ۞قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ۞بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ........ ٩

المبحث الأول: في مفردات الآيات ١٣

المفردة الأولى: (ضمير المخاطب)........ ١٣

المفردة الثانية: ﴿الْجَنَّةَ﴾ ٢٦

المفردة الثالثة: ﴿قَوْمِي﴾ ٢٩

المبحث الثاني: في لطائف الآيات المباركات ٣١

اللطيفة الأولى:........ ٣١

اللطيفة الثانية:........ ٣١

اللطيفة الثالثة: لماذا يستغفر المعصوم؟ ٣٤

اللطيفة الرابعة:........ ٤١

اللطيفة الخامسة: كيف ينتفع الميت في البرزخ؟........ ٤٣

عناية رجال الله بذويهم ٤٧

المبحث الثالث: في تعاليم الآيات المباركات........ ٥١

التعليم الأول: نفوذ الإقرار على النفس........ ٥١

التعليم الثاني: الدفاع عن حجج الله وشعائره ٥٣

موارد التقية وأساليبها........ ٥٤

التعليم الثالث: التخلية قبل التحلية ٥٩

التعليم الرابع: بين المرشد والمؤرّخ........................ ٦٠
وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ........ ٦٥
ما هي صيحة جبرئيل؟........................ ٦٧
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٦٩
المفردة الأولى: ﴿وَمَا﴾........................ ٦٩
المفردة الثانية: ﴿جُندٍ﴾........................ ٦٩
المفردة الثالثة: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾........................ ٧١
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٧٣
اللطيفة الأولى: الجهل بنعمة رجال الله........................ ٧٣
اللطيفةالثانية:........................ ٧٥
اللطيفة الثالثة:........................ ٧٦
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٧٧
التعليم الأول:........................ ٧٧
التعليم الثاني:........................ ٧٧
التعليم الثالث: هكذا يقتلون رجال الله........................ ٧٧
كيف هجروا القرآن؟........................ ٨٠
إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ........................ ٨٣
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٨٥
المفردة الأولى: ﴿إِن كَانَتْ﴾........................ ٨٥
المفردة الثانية: ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾........................ ٨٥
المفردة الثالثة: ﴿خَامِدُونَ﴾........................ ٨٨

المبحث الثاني: في لطائف الآية........................... ٩١
اللطيفة الأولى:.. ٩١
اللطيفة الثانية: لماذا تهلك أمة لأجل رجل؟................ ٩٢
اللطيفة الثالثة:.. ٩٣
اللطيفة الرابعة: ٩٣
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................... ٩٥
التعليم الأول:... ٩٥
التعليم الثاني: وجوب الاعتماد على الله................... ٩٦
التعليم الثالث: الصلاح بإتباع العلماء لا الساسة........... ٩٦
يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ٩٩
المبحث الأول: في مفردات الآية........................... ١٠٣
المفردة الأول: ﴿يَاحَسْرَةً﴾.............................. ١٠٣
المفردة الثانية: ﴿الْعِبَادِ﴾ ١٠٧
المفردة الثالثة: ﴿رَّسُولٍ﴾ ١٠٩
المفردة الرابعة: ﴿يَسْتَهْزِؤُون﴾ ١٠٩
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................... ١١١
اللطيفة الأولى: الإستهزاء بالقول وبالعمل.................. ١١١
ماذا يعني الاستخفاف بالصلاة؟........................... ١١٤
اللطيفة الثانية: الإستهزاء بالمؤمن أشد..................... ١١٨
اللطيفة الثالثة: الاستخفاف بالرواية........................ ١١٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................... ١٢٣

التعليم الأول: الثبات على رغم المستهزئين.................١٢٣
التعليم الثاني: تحدي الاستهزاء.................................١٢٧
التعليم الثالث: أشكال الاستهزاء ١٢٨
أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ۞وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ١٣٣
المبحث الأول: في مفردات الآيتين.................................١٣٥
المفردة الأولى: ﴿أَلَمْ﴾..١٣٥
المفردة الثانية: ﴿يَرَوْا﴾..١٣٨
المفردة الثالثة: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ١٤١
المفردة الرابعة: ﴿الْقُرُونِ﴾..١٤٢
المبحث الثاني: في لطائف الآيتين.................................١٤٣
اللطيفة الأولى: لماذا انتقل الخطاب إلى الحوار؟ ١٤٣
اللطيفة الثانية: فرق الموت عن الهلاك.............................١٤٦
اللطيفة الثالثة: ما معنى المعاد الجسماني؟ ١٤٧
اللطيفة الرابعة: لماذا وصفت الأمم بالقرون؟......................١٥٠
اللطيفة الخامسة: لماذا عبرّ بالرؤية دون العلم؟ ١٥٣
اللطيفة السادسة:...١٥٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين الكريمتين ١٥٧
التعليم الأول: نقصان نظرية الطبيعيين والحكماء ١٥٧
التعليم الثاني: دراسة التأريخ واجبة ١٥٨
التعليم الثالث: حرمة تتبع العثرات..................................١٦٠

التعليم الرابع: إبطال نظرية الطبيعيين والحكماء في المعاد........١٦١
التعليم الخامس: زمان الرجعة وغايته ١٦٧
دلائل الرجعة عقلاً ونقلاً........................١٦٩
وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ١٧٧
المبحث الأول: في مفردات الآية.......................١٧٩
المفردة الأولى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾...........................١٧٩
المفردة الثانية: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾...........................١٨٢
المفردة الثالثة: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾....................١٨٣
المفردة الرابعة: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾.......................١٨٤
المفردة الخامسة: ضمير الجمع (نا)......................١٨٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية.........................١٨٩
اللطيفة الأولى: كيف يصل العارفون إلى اليقين؟ ١٨٩
اللطيفة الثانية: أقسام الروح وبطلان الداروينية...............١٩٣
اللطيفة الثالثة:....................................١٩٤
المبحث الثالث: في تعاليم الآية.........................١٩٧
التعليم الأول: أصول المحاججة المثمرة ١٩٧
التعليم الثاني:.....................................٢٠١
التعليم الثالث: اكتسبوا العلم يكسبكم الحياة................٢٠١
التعليم الرابع: الخبز من آيات الله........................٢٠٧
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۞ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ..........................٢٠٩

المبحث الأول: في مفردات الآيتين.............................٢١١
المبحث الثاني: في لطائف الآيتين.............................٢١٥
اللطيفة الأولى: فرق الجعل عن الخلق والإخراج ٢١٥
اللطيفة الثانية: لماذا خص العنب والتمر بالذكر؟..........٢١٨
شباهة النخل بالإنسان.....................................٢٢١
اللطيفة الثالثة: لماذا ذكر العيون دون المطر؟..............٢٢٣
اللطيفة الرابعة:...٢٢٥
اللطيفة الخامسة:...٢٢٨
اللطيفة السادسة: فوائد الشكر وآثاره ٢٢٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآيتين ٢٣١
التعليم الأول: معرفة الله بالنظر لآياته.........................٢٣١
التعليم الثاني: حق الربوبية والعبودية..........................٢٣١
التعليم الثالث: ٢٣٢
التعليم الرابع:..٢٣٢
التعليم الخامس:...٢٣٢
التعليم السادس: قواعد وفروع أصولية وفقهية.................٢٣٣
سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ...٢٣٥
تكامل العقل والدين ٢٣٧
المبحث الأول: في مفردات الآية..............................٢٣٩
المفردة الأولى: ﴿الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾...........................٢٣٩

قضايا الدين وحقائقه.......................................٢٤١
المفردة الثانية: ﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ ٢٤٢
المفردة الثالثة: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ٢٤٥
المفردة الرابعة: النفي في ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾..................٢٤٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية..................................٢٤٩
اللطيفة الأولى: الأبناء صنائع الآباء..........................٢٤٩
اللطيفة الثانية: معنى التسبيح وآثاره..........................٢٥٠
بطلان نظرية الواحد.......................................٢٥٦
وهن البرهان اللّمي في المعرفة..............................٢٥٧
توظيف العلم للشكر والعبودية..............................٢٥٩
اللطيفة الثالثة: الزوجية علة التأثير في الخلق ٢٦٠
اللطيفة الرابعة: العلم يقود إلى الإيمان ٢٦١
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٢٦٣
التعليم الأول: كل شيء يقوم بالزوجية حتى الدول...........٢٦٣
وجوب العمل بقانون الزوجية...............................٢٦٥
مباديء قانون الزوجية......................................٢٦٩
التعليم الثاني:..٢٧٥
التعليم الثالث: ٢٧٦
التعليم الرابع: التواضع للعلم والدين..........................٢٧٦
وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ٢٧٩
المبحث الأول: في مفردات الآية.................................٢٨١

المفردة الأولى: (الواو)........................ ٢٨١
المفردة الثانية: ﴿آيَةٌ﴾ ٢٨٢
المفردة الثالثة: ﴿لَّهُمُ﴾........................ ٢٨٤
المفردة الرابعة: ﴿الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ ٢٨٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٢٩٩
اللطيفة الأولى: حقيقة الموت والحياة........................ ٢٩٩
اللطيفة الثانية:........................ ٣٠١
اللطيفة الثالثة:........................ ٣٠٢
اللطيفة الرابعة: النور والظلمة بيد الناس ٣٠٣
المعنى الباطن لليل والنهار........................ ٣٠٤
أقسام الوراثة والوراثة المعنوية........................ ٣٠٧
اللطيفة الخامسة: التكامل بين البشر لا المساواة........................ ٣١٠
المبحث الثالث: في تعاليم الآية........................ ٣١٣
التعليم الأول: دوام الحال من المحال فتفاءلوا........................ ٣١٣
التعليم الثاني: كل آية مدرسة........................ ٣١٦
التعليم الثالث: ظلمانية الأجساد ونورانية الأرواح ٣٢٣
التعليم الرابع: الزمان أمر حقيقي أم اعتباري؟........................ ٣٢٥
وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٣٢٧
المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٣٢٩
المفردة الأولى: (الواو)........................ ٣٢٩
المفردة الثانية: ﴿تَجْرِي﴾........................ ٣٣٢

بطلان نظرية جمع القرآن وقراءاته ٣٣٦
المفردة الثالثة: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ﴾ ٣٤٠
المفردة الرابعة: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ٣٤٦
المبحث الثاني: في لطائف الآية ٣٥١
اللطيفة الأولى: دلائل حركة الشمس ٣٥١
اللطيفة الثانية: الشمس كائن حي مختار ٣٥٣
اللطيفة الثالثة: كل شيء حي ناطق ٣٥٨
كمال الدين وقصور العلم ٣٦٥
اللطيفة الرابعة: النبي والإمام شمسان للقلوب والبصائر ٣٦٧
كيف تشرق الأرض بنور الإمام عليه السلام؟ ٣٦٩
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٣٧٥
التعليم الأول: النتائج تظهر بالأعمال ٣٧٥
التعليم الثاني: أركان النجاح في كل عمل ٣٨١
التعليم الثالث: الكون جامعة للعلوم والمعارف ٣٨٣
التعليم الرابع: السعادة بالتوازن بين أمور: ٣٩٠
وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ٣٩٥
المبحث الأول: في مفردات الآية ٣٩٩
المفردة الأولى: ٣٩٩
المفردة الثانية: ﴿حَتَّى عَادَ﴾ ٤٠١
المفردة الثالثة: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ ٤٠٢
المفردة الرابعة: ﴿الْقَدِيمِ﴾ ٤٠٧

المفردة الخامسة: ﴿عَادَ﴾ ٤٠٨
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................... ٤٠٩
اللطيفة الأولى: لماذا شبهّت منازل القمر بالعرجون؟ ٤٠٩
اللطيفة الثانية: خصائص الآية الإلهية.......................... ٤١٢
اللطيفة الثالثة: دلالة القمر والعرجون على المعاد الجسماني ٤١٣
اللطيفة الرابعة: بطلان أقوال المنجمين............................ ٤١٤
اللطيفة الخامسة:... ٤١٥
المبحث الثالث: في تعاليم الآية المباركة........................ ٤٢١
التعليم الأول: العروج البدني والروحي للبشر..................... ٤٢١
العروج الروحي قسمان.. ٤٢٤
مراتب اليقين والمعرفة ٤٢٤
مقامات العروج القلبي.. ٤٢٦
غذاء العروج الروحي ٤٢٧
التعليم الثاني: منازل تكامل الإنسان............................. ٤٣٠
ما هي وظائف الأنبياء؟ ٤٣٢
الحياة الطيبة في الدين فقط ٤٣٦
الحضارة البشرية مدينة للأنبياء.................................... ٤٣٩
التعليم الثالث: ٤٤٢
التعليم الرابع: خصائص المتفوقين في الحياة....................... ٤٤٣
لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ... ٤٤٧

المبحث الأول: في مفردات الآية........................ ٤٥١
المفردة الأولى: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾........................ ٤٥١
المفردة الثانية: ﴿لاَ﴾........................ ٤٥٢
المفردة الثالثة: ﴿يَنبَغِي﴾ ٤٥٥
المفردة الرابعة: ﴿تُدْرِكَ﴾ ٤٥٧
المفردة الخامسة: ﴿وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ ٤٦٠
المفردة السادسة: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ٤٦٢
المبحث الثاني: في لطائف الآية........................ ٤٧٣
اللطيفة الأولى: آثار القمر معنوياً ٤٧٣
اللطيفة الثانية: سرّ التطور والإبداع........................ ٤٨١
اللطيفة الثالثة:........................ ٤٨٣
اللطيفة الرابعة: التسبيح يوحد المخلوقات........................ ٤٨٤
المبحث الثالث: في تعاليم الآية ٤٨٩
التعليم الأول: ما سبب تأخر المسلمين؟ وما هو علاجه؟ ٤٨٩
التعليم الثاني: الحياة جميلة بالجميع........................ ٤٩١
التعليم الثالث: تطور الحياة بالحرية........................ ٤٩٢
التعليم الرابع:........................ ٤٩٢
الفهرس ٤٩٣